

قررت وزارة المعارف هذا الكتاب للسنة الثانية من المدارس الثانوية

الشخصية

تأليف

محمد عتيق الأبراشي

مدرس باطني في مستشفى لندن

المفتش بوزارة المعارف

حقوق الطبع والنقل محفوظة للمؤلف

الطبعة الثالثة ١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م

منقحة ومزينة

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٣٨

قررت وزارة المعارف هذا الكتاب للسنة الثانية من المدارس الثانوية

الشخصية

تأليف

محمد عطية إبراهيم

مخرج باحث أكاديمي

للفنن بوزارة المعارف

حقوق الطبع والنقل محفوظة للمؤلف

الطبعة الثالثة ١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م

منقحة ومزينة

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٣٨

مقدمة الطبعة الثانية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله العلىّ القدير ، والصلاة والسلام على نبيه الكريم . وبعد
فإن أكبر دليل على توفيق الله ، وتشجيع القراء نقاد الطبعة الأولى
من كتاب « الشخصية » بعد ظهوره بأشهر قليلة .

وإني أتتهز هذه الفرصة لأقدم للقراء ، وللصحافة العربية ،
ولكل من قرظه وتقده جزيل الشكر ، ووافر الثناء على ما قاموا به
من تشجيع وبحث وتمحيص ، وما كتبوه عنه من مقالات ، وما قدموه
من إرشادات .

وللرغبة في الوصول إلى الحقيقة أعدت النظر فيه ، وتقحته ،
وأضفت إليه كثيراً من الاستشهادات ؛ توضيحاً لما فيه من النظريات .
والآن يسرني أن أتقدم به إلى القراء في صورة أخرى جديدة ،
وكان رائدي دائماً البعد عن الخفاء والالتواء في شرح الحقائق . وقد
ضبطت الكلمات الصعبة وشرحتها ؛ حتى لا أثقل على القارئ في البحث
عن ضبطها ومانيها .

ولاني بما ذكرت من أخبار الأبطال ، والعظماء من الرجال ، من
الشرقيين والغربيين ؛ وبما أوردت من حكمهم البالغة ، وكلماتهم
المأثورة ؛ وبما وضحت من النظريات العلمية التي زكّتها التجارب ،
ودعمتها البراهين من علوم النفس والأخلاق والاجتماع — أرجو أن
يوفقني الله إلى تمهيد سبل العلم للراغبين فيه ، وتقويم المروج من
الأخلاق ، وتكوين شخصيات عظيمة تكون عماداً لمصر في حاضرها ؛
وقواماً لها في مستقبلها ؛ لتعيد مجدها الماضي ، وحضارتها الخالدة .

هذا وقد فصلت الفهرس في آخر الكتاب تفصيلاً يسهل على
القارئ معرفة ما يحتاج إليه من الآراء والنظريات والاستشهادات .

والله المستعان ، وهو حسبي ، ونعم الوكيل .

محمد عطية الأبراشي

مايو سنة ١٩٣٧ م
ربيع الأول سنة ١٣٥٦ هـ

مقدمة الطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله . وبعد فقد كتب كثير من علماء النفس عن الشخصية ، وأثرها في الحياة الإنسانية ، وكتبنا عنها فصلاً في كتابنا^(١) « في علم النفس » ، ولكن عن لي فيما بعد أن موضوعاً كالشخصية يحتاج إلى كثير من التفصيل والتمثيل . والآن يسرني أن أتقدم إلى قراء العربية ، وبخاصة شبان اليوم ورجال الغد ، بذلك الكتاب — إن صح أن نسميه كتاباً — عن المثل الأعلى للشخصية ؛ راجياً أن يكون ذلك المثل خير قدوة للطلبة والعالمات ، والآباء والأمهات .

ولا أدعى أني كتبت ، أو أستطيع أن أكتب ، كل ما يتعلق بالشخصية في كتاب ؛ فكل ناحية من نواحيها تتطلب كتاباً خاصاً . وقد حاولت ألا يكون الأسلوب علمياً جافاً ، ووضحته بكثير من

(١) انظر الفصل الأخير من الجزء الثالث من كتاب « في علم النفس » تأليف الأستاذين

حامد عبد القادر ، ومحمد عطية الإبراهيمي .

للسواهد الأدبية المتصلة بالناحية العلمية للشخصية ، فجاء سهل اللفظ ،
واضح العبارة .

فإذا نجحت في توضيح ذلك البحث فذلك ما أبنيه ، وإذا وفقت
في أن يكون لتلك الرسالة أثر في تكوين شخصيات مصرية قوية ،
تكون دعامه متينة ، وذخيرة نفيسة لمصر الحديثة ، فهذا كل ما آمله
وأرجوه . أسأل الله الهداية والتوفيق

محمد عطية البراشي

الأحد } ١٨ من رجب سنة ١٣٥٥ هـ
٤ من أكتوبر سنة ١٩٣٦ م

الفصل الأول

الشخصية

مقدمة :-

إذا تقدّم أحد أقاربك من الشبان إلى وظيفة من الوظائف، ثم سئلت عما تعرفه عنه بالتفصيل فقد تُجيب بأنه شاب أمين نزيه، صادق في قوله، كريم الخلق، حسن السلوك، سليم القلب، طاهر السريرة^(١)، كثير التفاؤل، قليل التشاؤم، يقول ما يعتقد، ويعتقد ما يقول. هذا من الوجهة الخلقية؛ أما من الوجهة العقلية فهو : ذكي، حاضر البديهة^(٢)، حسن البصيرة^(٣)، صافي الذهن، صادق الحس. وأما من الناحية الاجتماعية فهو : مجبّ للتعاون، عدوّ للأثرة^(٤)، يشارك الناس في مسراتهم، ويؤاسيهم^(٥) في أحزانهم، يوقّر^(٦) الكبير، ويعطف على الصغير، مطيع للرئيس، وفّي للنظير. وأما من الناحية الجسمية، فهو قوى الجسم، معتدل القامة، حسن

(١) السر الذي يكتم .. (٢) الذهن .

(٣) الحجة ؛ (٤) حب النفس والاستبداد بالعقلاء .

(٥) يزيهم . (٦) يعظم .

الهيئة ، جميلُ الدُّوقِ . وأما من الوجهتين العلمية والعملية ، فهو :
مثلٌ في النشاطِ وأداء الواجب ، واسعُ الاطلاع ، غزيرُ المادة ...
وما إليها من الصفاتِ المختلفةِ التي يتصفُ بها ذلك المثلُ الأعلى من
الشباب .

فجموعُ هذه الصفاتِ يُصَوِّرُ شخصيته العليا بصورةٍ واضحةٍ
مفصلةٍ . وقد أثبتَ علمُ النفسِ التطبيقيُّ أن قوةَ الشخصيةِ شرطٌ
أساسيٌّ للنجاحِ في الحياة ، وأن المؤهلاتِ العلميةَ وحدها لا تكفي
للنجاحِ ، بل يجبُ أن تُصَحَّبَ بالشخصيةِ القويةِ ؛ فكثيرونَ من
الأطباءِ والمدرسينَ والمحامينَ وغيرهم ، قد فشَلوا في حياتهم العمليةِ
لضعفِ شخصياتهم ، مع كفايتهم من الوجهةِ العلميةِ ^(١) .

ولكن ما تلك الشخصيةُ التي طالما مَمَّنَّا الناسَ — ولا تزالُ
نَسْمُهُم — يتكلمونَ عنها ، ولا ندري من أمرِها شيئاً ؟ وإجابةً عن
هذا السؤالِ نقولُ :

(١) ولا يفهم مطلقاً مما تقدم أن الشخصيةَ مقصورةٌ على الصفاتِ المحسوسة ، بل إن
هناك أشخاصاً ذوي شخصياتٍ مرفوعةٍ متصفين بصفاتٍ مرفوعةٍ ؛ كالخيانة ، والؤم ،
والنفاق ، والحناء ، والنبوة ، والآخرة ، وحب الزلة ، وحب النظر ، والحق ، والمهارة
في التلمس .

تعريف الشخصية :

ليس من السهل أن نُحدِّدَ الشخصيةَ ، ونُعرِّفَها تعريفًا علميًا جامعاَ مانما ؛ فهي كالكهرباء والمغناطيسية والمذيع «الراديو» - لا تُعرَّف إلا بآثارها . ولكن هذا كله لا يَمْنُنُنا أن نحاول البحث عن سرِّها وتعرِّفها تعريفًا تقريبيًا ، فنقول : -

(١) الشخصيةُ : هي مجموعُ الصفاتِ والمزايا الذاتية التي يمتازُ بها

الشخصُ من غيره ^(١) . أو هي :

(٢) مجموعةُ الصفاتِ العقليةِ والخلقيةِ والجسميةِ والإراديةِ التي

يَتَّوَجُّعُ بها الإنسان . أو هي :

(٣) مجموعةُ الفروقِ التي تُميزُ الشخصَ عن غيره .

والحقُّ أن هذه التعريفاتِ كلها تقريبية ، وأن الشخصية لا يمكنُ تحليلها إلى عناصرِها الأوليةِ تحليلًا مُحَسَّبًا ، ولكنها تبدو لنا في مقدار ما عند الشخص من الاستقلالِ الفكري ، وحُضورِ البديهة ، وسُرعةِ الخاطر ، وقوةِ الروح ... وهي كالحُبِّ والكُرهِ اللَّذَيْنِ لا يمكنُ تعليلهما عادة ؛ فقد تُحبُّ شخصًا أو تُبغضه لمجرد رؤيته بدونِ معرفة سابقة ، وقد لا يمكنكُ إيداء السبب ، وكلُّ ما نستطيعُ أن نذكره

(١) سواء أ كانت تلك الصفات حسنة أم فسيحة .

هو أن تقول : إني أُحِبُّهُ أو لَا أُحِبُّهُ ؛ أما السببُ فلا يمكن تعليله ؛ لأنه أمرٌ معنوى ، وسِرٌّ خفيٌّ يتعلقُ بشخصية ذلك الرجل . وقد يكونُ الشعورُ بالحبِّ أو البغضِ ناشئاً عن صفاتٍ أو عيوبٍ خاصةٍ في الشخصِ الذي نعرفه ونقابله من حينٍ لآخر ؛ فنحنُ نُحِبُّ فلاناً مثلاً ؛ لأنه غلص ، كريمٌ ، شجاعٌ ، متفائلٌ ، يُؤايسِي الفقيرَ ، ويساعدُ البائسَ . ونكرهُ فلاناً ؛ لأنه لا يعرفُ الإخلاصَ ، والإخلاصُ لا يعرفهُ ، يتمثلُ فيه البخلُ ، والجبنُ ، والتشاؤمُ ، والقسوةُ ، والغِلظةُ ، لا يحنُّ إلى مسكينٍ ، ولا يتألمُ لحزينٍ . وفي مثلِ تلك الأحوالِ نعرفُ إلى حدِّ ما سببَ المحبةِ أو الكراهيةِ ؛ ولكن ليس ذلك بسهولةٍ دائماً ؛ فقد نحبُّ الشخصَ لمظاهرِهِ ، أو نكرهُ لتلك المظاهرِ ، ولا يمكننا أن نوضحَ الأسبابَ التي جَذَبَتْنا إليه ، أو التي نَفَرَتْنا منه ؛ والسببُ الجوهرى هو أن شخصيتهُ محبوبةٌ أو مكروهةٌ .

الشخصية هبة فطرية ^(١) أم صفة مكتسبة ؟

الجواب أن الشخصية توهب بالفطرة ^(٢) ، وقد تُكتسبُ بالترية الحقة ، ولكن الفطرية أقوى من المكتسبة . ولو كانت

(١) طيبة .

(٢) الطيبة والحلقة .

الشخصية هبةً طَبِيعَةً فحسبُ لَكُنَّا ضحايا الظروفِ ، وما كان للتربيةِ
أى أثرٍ فى تكوينِ المظهرِ من رجالِ الدينِ والمعلمِ والأدبِ والفنِّ ،
ولكنَّ أثرَها لا يُنكَرُ فى تكوينِ الشخصيةِ والمظنةِ فى نفوسِ
المظهرِ . وهنا نسألُ هلْ قامتِ التربيةُ وقامَ المُربُّونَ حقاً بواجبهم نحوَ
تربيةِ الشخصيةِ ؟ هلْ قامُوا بواجبهم وقد أصبحنا نفكرُ فيما فكرَ
فيه غيرُنا ، ونتكلمُ بما قاله سوانا ، ونفعلُ مثلَ مَنْ سَبَقنا ؟ إنَّنا أصبحنا
مُقلِّدينَ فى أفكارِنا وأقوالِنا وأفعالِنا ، مُهملينَ أنفسنا وشخصياتنا ؛ لأنَّ
التربيةَ تربيةَ اتكاليةٍ ، لا تَعْرِفُ معنى الثقةِ بالنفسِ ، والاعتمادِ على
النفسِ فى التفكيرِ والقولِ والعملِ . وقد نادى كبارُ المربينَ وبخاصةِ
« السيرِ برنمى نَنْ »^(١) المربِّي الإنكليزى الكبيرُ بأنَّ الغرضَ من
التربيةِ هو تربيةُ الشخصيةِ المستقلةِ . وكتبُ التربيةِ فى وادٍ ، والمدارسُ
فى وادٍ آخرَ ؛ فبينما نقولُ : يجبُ أن يُربَّى الفردُ تربيةً كاملةً من كلِّ
الوجوهِ جسيماً وعقلياً وخلقياً واجتماعياً ، نجدُ أن الفردَ مُهملٌ إهمالاً
تاماً من جميعِ الوجوهِ ، وأن شخصيتهَ تُطَبَّعُ بالطابعِ المدرسىِّ ،
وتُصَبَّ فى قالبٍ خاصٍ فتفقدُ مظاهرها الطبيعيةَ ؛ كُلُّ ذلكِ حباً
فى النظامِ . ولستُ ننكرُ أن النظامَ يجبُ أن يكونَ سائداً ، بل إننا

تُنادى بالنظام ، وتقول دائماً : النظام هو الحياة ، ولكننا نعتزُّ على الطريقة التي بها يَسُوذُ ذلك النظام ، تلك الطريقة التي تقتلُ شخصية الطفل ، وتُضعِفُ مواهبه ، وتُريدُ طريقةً أخرى بها يَسْتَتِبُ النظام من غير إضرارٍ بعقلية الطفل أو وجدانه أو إرادته أو جسمه أو شخصيته . وليست هذه الطريقةُ بسيطةً ؛ لأنها تتطلبُ مشاركة في الوجدان ، وهما لكل فردٍ من جهة الذكاء والميول والبيئة والظروف وما ذلك بالأمر الهين ؛ فنحن لا نُفكرُ إلا في المظاهر والنظام الشكلي ، والسكون العسكري ، هما ضحينا في سبيل هذه الأشياء من الضحايا . وإذا تحققت الثقة بين المعلم والمتعلم ، ووُجدت الصلة الوثيقة بينهما ، فمن المحال أن تكون هناك صعوبة في نظام أو غيره ، ولن يُضْحَى بشخصية الفرد أو الأفراد بحدٍ .

الاختلاف في الشخصية

كما أن الناس يختلفون في الذكاء والميول الفطرية ، كذلك يختلفون في الشخصية ؛ فبينما تَجِدُ هذا قوى الشخصية ، قد تَجِدُ ذاك خاملاً ضعيف الشخصية . وكما أن الشخصية تختلف باختلاف الأفراد كذلك تختلف باختلاف الشعوب ؛ ففي الشخصية الألمانية تتمثلُ

الروح العسكرية والطاعة العمياء ، والاتكّال على الحكومة في كثير من الأعمال . وفي الشخصية الإنكليزية تبدو الثقة بالنفس ، واحترام الذات ، وتقدير الحرية الشخصية ، والاستماتة في سبيلها . وفي الشخصية الأمريكية تظهر الروح المائّة أو «الديموقراطية» وعدم الاكتراث للتقاليد ؛ لأن أمريكا كأمة حديثة لا تقاليد لها . وفي الشخصية الفرنسية تنقلب العاطفة على التفكير ، والنظريات على الأعمال ، وتكثر الآمال ، والميل إلى الخيال ، وحُب الظهور ؛ فكل فرنسي يريد أن يكون ضابطاً إذا تقدّم للحرب ، ولأنه يندري من أين ميوتى بالجنود إذا كان الجميع ضابطاً . وإذا كانوا ضابطاً فإنهم لا يفكرون في الجنود ولا يختلطون بهم ، خوفاً من أن يقلّ احترامهم . والمثل يُقال في العلاقة بين المدرسين والتلاميذ ؛ فأولئك في وادٍ ، وهؤلاء في وادٍ آخر ، والصلة بين هؤلاء وأولئك لا تتجاوز صلة الحجرة الدراسية ، تزول بمغادرتها ، وتتجدّد بالعودة إليها .

فالشخصية صفة نسبية ، وقوة سرّية ، توجد في كل شخص إلى حدٍّ ما ، وتختلف في نوعها وقوتها باختلاف الأشخاص . وقد تكون بارزة واضحة في بعض الأفراد يشعر بها الإنسان في الحال ، وقد تكون كامنة خفية في بعضهم الآخر .

ولكل فردٍ صفةٌ تخصه ، وشيءٌ يُعرف به ؛ فهيرودوسُ كان معروفاً بالظلم ، وسيدنا عمرُ بن الخطاب (رضى الله عنه) كان مشهوراً بالمعالة ، ومعاويةُ بالسياسة والحلم ، وخالدُ بن الوليدُ بصلاح الدين الأيوبيُّ بالبطولة والشجاعة والإقدام ، وحاتم الطائي بالكرم ، ومُسَيْلَمَةُ بالكذب ، و (شارلز ديكنز) بالدفاع عن الفقراء ، و (إسحق نيوتن) و (أديسون) بالمشابة ، و (نابليون) بقوة الإرادة والعزيمة ، و (أبراهام لنكولن) بالمطف على المساكين ، و (جورج واشنطن) بالوطنية الصادقة ، ومصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وسعد زغلول بالتفاني في الدفاع عن الوطن ، و (شارلي شابلين) ، ولوريل ، وهاردي) بالفكاهة ...

ولست الشخصيةً مقصورةً على جنسٍ دون آخر ؛ ولا على طبقةٍ دون أخرى ؛ فكما تكون بين المتعلمين تكون بين غيرهم ، وكما تكون بين المدَّين تكون بين القرويين ، وكما تكون بين الرجال تكون بين النساء ، وكما تكون بين الأغنياء تكون بين الفقراء ، ولكلِّ تفكيره وتقاليده وطرقه وميشتة الخاصة .

الفصل الثاني

العناصر الرئيسية التي تتكوّن منها الشخصية القوية

إنّ العناصر الجوهرية التي تتكوّن منها الشخصية القوية كثيرة منها : الجاذبيّة ، والنشاط العقلي ، والمشاركة الوجدانية ، والشجاعة ، والحكمة ، والتفاؤل ، والتواضع ، وحُسن مظهر الإنسان وقوامه^(١) ، وقوة البيان ، والثقة بالنفس ، واعتدال المزاج . ولنتكلم عن كلّ عنصرٍ منها فنقول :

١- الجاذبيّة

هي قوة طبعيّة إن وُجدت في الشخص استطاع أن يجتذب قلوبَ غيره ممن يتصلون به ، بدون أن يتكلّف أو يتصنّع ، وهذا العنصرُ يمدُّ من أقوى العناصر التي تتكوّن منها الشخصية إن لم تقلّ أقواها . ولكن بماذا يجتذب الإنسان غيره من الناس ؟ الجواب أنّه يستطيع أن يجتذبهم ويُسيطرَ عليهم بأدبه وعلمه ، وضبطِ نفسه ، وسداد^(٢) رأيه . وسُرعةِ خاطره ، وحُسنِ حديثه ، وكرمِ خلقه ،

(١) قوام الرجل : قامته وحسن طوله . (٢) صواب .

ومُراعاةِ شعورِهِم ، ومُشاركتِهِم في وجدانِهِم ، وهذه الصفات بعضها وراثيٌ ، وبعضها يمكنُ أن يُكتسبَ بالتربيةِ والتعليمِ ، في البيتِ والمدرسةِ والمُلبِ والمُجتمعِ .

وقد يَسْتَقِلُّ الإنسانُ الشخصَ قبلَ أن يُختبرَهُ ، وبالتحديدِ معه قد يَجِبُ بعلمِهِ وحديثِهِ ، فيتبدَّلُ الحالُ ، فيُصبحُ النفورُ إعجاباً ، والازدراءُ إجلالاً .

وبحسَنِ المعاملةِ ، واللِّينِ في غيرِ ضَمَفٍ ، يجتذبُ الإنسانُ قلبَ غيره ، ويصلُ إلى أشياء لا يمكنُهُ الوصولُ إليها لو التجأ إلى الشدةِ والعنفِ . وبالسِّياسةِ والقوةِ الروحيةِ تستطيعُ أن تحصلِ على غرضِكَ ، وتُكسِبَ ثقةَ الناسِ بك .

الفصل الثالث

٢ - النشاط العقلي أو الذكاء

العنصر الثاني من العناصر المكوّنة للشخصية القوية هو النشاط العقلي، أو الذكاء، وبعبارة أخرى حضور ذهن، وسرعة الخاطر، وصفاء القرينة^(١). فقد يكون الرجل مثقفاً، واضح التفكير، غزير المادة، واسع الاطلاع، ولكنه قد لا يكون متقد العقل، وصائب الفكر، حاضر البديهة، فلا يعرف المراد باللفظ^(٢)، كما لا يفهمه باللفظ، ولا يمين في الناظر^(٣) ما يجري في الخاطر^(٤)، ولا يستطيع أن يدرك ما يرمى إليه محدثه^(٥)، ولا أن يشاركه في رأيه. وقد تكون المرأة وسيمة^(٦) الوجه، حسنة المنظر، جميلة الملبس، ولكنها فاقدة ذلك النشاط الفكري والانتقاد العقلي، فتعجز عن التأثير في غيرها، أو اجتذابه أو السيطرة عليه، فهي كصورة جميلة المنظر، ولكنها فاقدة الروح الفنية، تلك الروح التي تؤثر في الصورة، فتعطىها قوة وتأثيراً، وحياة معنوية.

(٣) التأمل .

(٢) الإشارة .

(١) ذهن .

(٥) حسنة الوجه .

(٤) النفس .

فللنشاطِ العقليِّ تأثيرٌ حسنٌ في شخصيةِ الإنسانِ ، وفي ارتفاعِ منزلتهِ بينَ إخوانهِ وذَوِيهِ . وللعبادةِ وقلةِ الفطنةِ والكسلِ العقليِّ أثرٌ سيِّئٌ في خمولِ الشخصِ وتأخرهِ وعجزهِ ، وارتكابهِ الجرائمِ أحياناً . ولا عجبَ إذا قلنا : إنَّ معظمَ المجرمينَ من الأغبياءِ وضمافِ العقولِ . وتبدو شخصيةُ الأذكى في أعمالهِ وأقوالهِ ، كما تبدو في منطقتهم وتفكيرهم المنظمِّ ، وآرائهم المرتبةِ ، وحُججهم القويةِ ، وحسنِ اعتذارهم ، ويُعَدُّ نظريهم ، وقدرتهم على التخلصِ بسهولةٍ من المشكلاتِ التي تتعرضُهم بما أُوتوا من نشاطٍ عقليٍّ ، وحدةِ ذهنٍ ، وصدقِ حسنٍ . وممنَ كان يُشهدُ لهم بالدكاءِ وحضورِ البديهةِ ، كثيرٌ من رجالِ العربِ ونسائهم وأطفالهم . ولنذكرَ لك كثيراً من قصصهم فنقولُ :
قِيلَ للعبَّاسِ بنِ عبدِ المطلبِ : أنتَ أكبرُ أمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ؟ قالَ : هُوَ عليه الصلاةُ والسلامُ أكبرُ مِنِّي ، وأنا وُلِدتُ قبلَهُ .

وقيلَ : شخصٌ ^(١) مُضَرٌّ وريعةٌ وإيادٌ وأنمازٌ أولادُ نزارٍ إلى أرضِ نجرانَ ، فينجامُ يسرونَ إذ رأى مُضَرَ كلاً ^(٢) قد رُعيَ ، فقالَ :

(١) شخص من بلد إلى بلد : ذهب .
(٢) الكلاً : السبب ربطاً كان أو يأساً .

البعير الذي رعى هذا أعور^(١). فقال ربيعة^(٢): وهو أزور^(٣). وقال إِيَادُ: وهو أَبْتَرُ^(٤). وقال أنمار^(٥): وهو شرود^(٦).

فلم يسيروا إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى لَقِيَهُمْ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ^(٧)، فسألهم عن البعير. فقال مضر: أهو أعور؟ قال: نعم. قال ربيعة: أهو أزور^(٨)؟ قال: نعم. قال إِيَادُ: أهو أَبْتَرُ^(٩)؟ قال: نعم. قال أنمار: أهو شرود^(١٠)؟

فقال الرجل: نعم، هذه والله صفات بعيري، دُلُونِي عَلَيْهِ. فحلفوا أَنَّهُمْ مَا رَأَوْهُ. فَلَزِمَهُمْ، وقال: كيف أَصَدَّقُكُمْ وَأَنتُمْ تَصِفُونَ بَعِيرِي بِصِفَتِهِ؟

فساروا حَتَّى قَرَّبُوا نَجْرَانَ، فَنَزَلُوا بِالْأَفْصَى الْجُرْهُمِيِّ^(١١). فنَادَى صَاحِبُ الْبَعِيرِ: هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ وَصَّغُوا لِي بِمِيرَا فَقَدْتُهُ بِصِفَتِهِ، ثُمَّ أَنْكَرُوهُ.

فقال الجُرْهُمِيُّ: كيف وصفتُموه ولم تَرَوْه؟ فقال مضر: رأيته رعى جانبًا ويدع جانبًا، فعلمت أَنَّهُ أعور.

(١) الراحلة: الناقة.

(٢) الأزور: الذي يقبل على شق حين سيره ليل في صدره، أو لعل أحد جانبيه.

(٣) بَتَرُهُ: قطعه قبل الإتمام. والأبتر: اللطوع القنب.

(٤) شرَدَ البعير: هَرَّ، فهو شارد، وشرود.

(٥) نسبة إلى جرهم وهي من اليمن تزوج فيها إسماعيل عليه السلام.

وقال ربيعة: رأيتُ إحدى يديهِ ثابتةَ الأثرِ، والأخرى فاسدةَ الأثرِ، فعلمتُ أنه أفسدها بشدةِ وطنهِ لِأزورارِهِ. وقال إِيادُ: عرفتُ بترَهُ باجتماعِ بعرِهِ، ولو كان ذِيًّا لآل^(١) لتفرَّق. وقال أنمارُ: إنما عرفتُ أنه شروءٌ لأنه كان يرعى في المكانِ الملتفِّ نبتَهُ، ثم يجوزُهُ إلى مكانٍ أرقٍّ منه وأخْبثَ.

فقال الأقفى: ليسوا بأصحابِ بغيرِك. ثم سألتُهم عن أمرِهِم، فأخبروهُ. فرحَّبَ بهم، وأضافَهُم، وبألغَ في إكرامِهِم^(٢). وهذا مثلٌ واضحٌ للفراسةِ العربيَّةِ، والدكاءِ العربيِّ، وقُوَّةِ الملاحظةِ.

وقيلَ: استودعَ رجلٌ آخرَ مالا، ثم طلبه، فجدَّه، فخاصمه إلى إياسٍ^(٣) القاضي، فقال الطالبُ: إني دفعتُ المالَ إليه.

فقال القاضي: ومن حضركَ؟

قال: دفعتهُ في مكانٍ كذا وكذا، ولم يحضُرْنا أحدٌ.

قال: فأىُّ شيءٍ في ذلك الموضعِ؟

قال: شجرةٌ.

(١) القيل: الطويل القليل، المتجتر في معيه.

(٢) من كتاب ثمرات الأوراق للحموي ج ١ ص ١٠٥.

(٣) هو إياس بن معاوية، يضرب به المثل في الدكاء والفراسة، كان قاضيا بالبصرة، ومات سنة ١٢٢ هـ وعمره ٢٦ سنة.

قال : فانطلق إلى ذلك الموضع ، وانظر الشجرة ، فلَمَلَّ اللهُ تعالى يَوْضِئُكَ هُنَاكَ مَا يَتَّبِعُ بِهٍ حَقُّكَ ، لَعَلَّكَ دَفَنْتَ مَالَكَ عِنْدَ الشَّجَرَةِ وَنَسِيتَ فَتَذَكَّرْ إِذَا رَأَيْتَ الشَّجَرَةَ ، فَضَى الرَّجُلُ .

وقال إياسٌ لِلْمَتَمِّ : اجلسْ حتى يرجعَ خَصْمُكَ لِمَجْلِسِ ، وإياسٌ يَقْضِي وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ سَاعَةً ، ثم قال له : يا هذا ! أترى صاحبَكَ بَلَغَ مَوْضِعَ الشَّجَرَةِ الَّتِي ذَكَرَ ؟

قال : لا !

قال إياسٌ : يَا عَدُوَّ اللهِ إِنَّكَ لَخَائِنٌ !

قال : أَقْلِي^(١) أَقَالَكَ اللهُ ! فَأَمْرٌ مِنْ يَحْفِظُ بِهِ حَتَّى جَاءَ الرَّجُلُ .
فَقَالَ لَهُ إِيَّاسٌ : قَدْ أَقَرَّ لَكَ خَصْمُكَ بِحَقِّكَ ، نَعْدُهُ .

وحكى : دَخَلَ مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ عَلَى أَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ ، فَقَارِبَ خَطْوَهُ ، فَقَالَ الْمَنْصُورُ : لَقَدْ كَبُرَتْ سُنَّتُكَ . قَالَ : فِي طَاعَتِكَ . قَالَ : وَإِنَّكَ لَجَدُّ^(٢) . قَالَ : عَلَى أَعْدَائِكَ . قَالَ : وَأَرَى فِيكَ بَقِيَّةً . قَالَ : هِيَ لَكَ . فَاَنْظَرُ إِلَى أَجْوِبَةٍ مَعْنٍ تَجِدُ أَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى سُرْعَةِ الْخَطَايَا ، وَحُسْنِ الْجَوَابِ .

(١) سَأَلَنِي .

(٢) جَدُّ : سَلَبٌ وَشَدِيدٌ .

وقيل إن غلاماً أشرأب^(١) للكلام وقد حضر مع وفد أهل الحجاز لما أَسْتُخِيفَ عمرُ بنُ عبد العزيز (رضى الله عنه) ، فقال عمرُ : يا غلامُ ، لِيَتَكَلَّمَنَّ مَنْ هُوَ أَسَنُّ مِنْكَ .

فقال الغلامُ : يا أمير المؤمنين ، إنما المرءُ بأصغريه : قلبه ولسانه ؛ فإذا مَنَحَ اللهُ عبده لِسَانًا لَافِظًا ، وقلبًا حَافِظًا ، فقد أجادَ له الاختيار . ولو أن الأمورَ بالسُنَنِ لكانَ ههنا مَنْ هُوَ أَحَقُّ بِمَجْلِسِكَ مِنْكَ ! فقال عمرُ : صدقت ؛ تكلم ؛ فهذا السحرُ الحلالُ .

فقال : يا أمير المؤمنين ، نحنُ وفدُ التَّهْنِئَةِ ، لا وفدُ التَّرمِزَةِ^(٢) ، ولم تُقَدِّمْنَا إِلَيْكَ رَغْبَةً وَلَا رَهْبَةً ؛ لَأَنَّا قَدْ آمَنَّا فِي أَيَّامِكَ مَا خِفْنَا ، وَأَدْرَكْنَا مَا طَلَبْنَا . فسألَ عمرُ عن سنِّ الغلامِ ، فقبلَ عشرُ سنينَ . وَقَدْ أَدْخَلَ طِفْلٌ يُدْعَى الرَّكَاضَ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِ سِنَوَاتٍ إِلَى الرَّشِيدِ لِيَتِمَّجِبَ مِنْ فِطْرَتِهِ ، فقال له : مَاذَا تُحِبُّ أَنْ أَهَبَ لَكَ ؟ قال : جَمِيلَ رَأْيِكَ ؛ فَإِنِّي أَفُوزُ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . فَأَمَرَ بِدَنَانِيرَ وَدِرَاهِمَ فَصَبَّتْ بَيْنَ يَدَيْهِ . فقال له : اخْتَرِ الْأَحَبَّ إِلَيْكَ . فقال : الْأَحَبُّ إِلَيَّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهَذَا مِنْ هَذِينَ ، وَضَرَبَ يَدَهُ إِلَى الدَّنَانِيرِ . فَضَحِكَ الرَّشِيدُ ، وَأَمَرَ بِضَمِّهِ إِلَى وَلَدِهِ وَالْإِنْفَاقِ عَلَيْهِ .

وزارَ خليفةُ من بنى العباسِ يوما وزيرُهُ في دارِهِ ، وكان لَهُ وَلَدٌ
نجيبٌ . فلَمَّا جلسَ الخليفةُ أَجْلَسَ الصَّبِيَّ إلى جانبِهِ وسألهُ : « أَدَارُ
الخليفةُ أَحْسَنُ أم دَارُ أَيْكَ ؟ » . فَأَجَابَ الصَّبِيُّ عَلَى الفورِ : « متى كَانَ
الخليفةُ فِي دَارِ أَبِي فِدَارُ أَبِي أَحْسَنُ » . ثم أراه خاتِمًا ثمينًا فِي خِصْرِهِ
وسألهُ : « هلْ رَأَيْتَ خَيْرًا مِنْ هَذَا الخَاتَمِ ؟ » فقال الصَّبِيُّ : « نعم ، اليَدُ
التي هُوَ فِيهَا خَيْرٌ مِنْهُ » .

فدهشَ الخليفةُ من حُسْنِ جوابِهِ ، وقال له : « هلْ تُحِبُّ أَنْ
تَكُونَ خليفةً بَعْدِي ؟ » فقال الصَّبِيُّ : « ابنُ الخليفةِ أَوْلَى مِنِّي ؛ فهوَ
صاحبُ الحقِّ فِي الخلافَةِ ، وَأَنَا لستُ مِنَ الخائِثِينَ » . فزاد سرورُ الخليفةِ
من هَذَا الجوابِ الذي يَدُلُّ عَلَى الذكاءِ والولاءِ ، والتفتَ إِلَى أبيهِ وقال له :
« لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لابْنِكَ هَذَا شَأْنٌ متى بَلَغَ الرِّجُولَةَ » .

ودخلَ المأمونُ يومًا بيتَ الدِّيوانِ ، فرأى غلامًا جميلًا عَلَى أَذُنِهِ
قَلَمٌ ، فقال : مَنْ أَنْتَ يَا غلامُ ؟ قال : أَنَا الناشئُ فِي دولَتِكَ ، المتقلِّبُ
فِي نِعْمَتِكَ ، المؤمِّلُ لخدمَتِكَ ، الحَسَنُ بْنُ رِجاءِ .

فقالَ المأمونُ : بِالإِحْسَانِ فِي البِدِيَةِ تَفاضَلْتَ المقولُ ،
ارفعُوا هَذَا الغلامَ فوقَ مَرْتَبَتِهِ .

وقيلَ إِنَّ رَجُلًا تَكَلَّمَ بَيْنَ يَدَيِ المأمونِ فَأَحْسَنَ ، فقالَ المأمونُ :

ابن من أنت ؟ قال : ابنُ الأدبِ يا أمير المؤمنين ، قال : نعم النسبُ .
أنتسبت إليه .

وقال الأصمعي : قلتُ لغلّامٍ حَدَثَ السنُّ من أولاد العربِ :
أيسرُك أن يكونَ لك مائةُ ألفِ درهمٍ وأنتُ أحمقُ ؟ فقال : لا والله !
قلتُ وليمةٌ ؟ قال : أخافُ أن يَحْنِي عليَّ مُحَقِّ جِنَايةٍ تذهبُ مالي ويبقى
عليَّ مُحَقِّ .

ودخلَ إياسُ بنُ معاويةَ الشامَ ، وهو غلامٌ صغيرٌ ، فتقدّمَ على
خصمٍ له أمامَ بعضِ القضاةِ ، وكان الخصمُ شيخاً كبيراً ، ثم صال^(١)
عليه إياسٌ بالكلامِ . فقال له القاضي : خَفِّضْ^(٢) عليك ، فإنه شيخٌ
كبيرٌ . قال : الحقُّ أكبرُ منه . قال : اسكت ! قال : فمنَ يَنطِقُ
بِحُجَّتِي ؟ قال : ما أراك تقولُ حقاً . قال : لا إلهَ إلا الله !

فدخلَ القاضي على عبدِ الملكِ بنِ مروانَ فأخبره . فقال : أقضِ
حاجتَهُ الساعةَ وأخرجِهِ من الشامِ لئلا يُفسدَ على الناسِ .

وَحَكِيَ أَنَّهُ لَمَّا مَدَحَ أَبُو تَمَّامٍ الطائي^(٣) الشاعرُ المعروفُ أحمدَ
ابنَ المعتصمِ بقصيدتهِ السنيّةِ وأنتهى فيها إلى قوله :

(١) استطال ، وجاوز حد الاعتدال . (٢) هون .

(٣) لنا بمصر ، وكان يبتغى الناس بالجرة في جامع عمرو بالفسطاط ، وكان يحفظ أربعة
عشر ألف أرجوزة للعرب غير القاطعين والقصائد .

إقدامُ عمرو ، في سماحةِ حاتمٍ * في حلمٍ أحفَ ، في ذكاهِ لِماسٍ
قالَ له أبو يوسفَ يعقوبُ الكِنْدِيُّ الفيلسوفُ ، وكانَ حاضراً :
« الأُميرُ فوقَ مَنْ وصفتَ » . فأطرقَ ملياً ، وقالَ :

لا تُنكِروا ضربِي له مَنْ دُونَهُ * مثلاً شَرُوداً في النَّدَى والبَاسِ
فَاللهُ قد ضربَ الأَقلَّ لنورهِ * مثلاً من المِشكاةِ والتَّبَاسِ
ولَمَّا أُخِذَتِ القَصيدةُ مِنْ يَدِهِ لم يَجِدُوا فيها هَذينِ اليَتينِ ، فَعَجِبُوا
من سُرْعَتِهِ وَفِطْنَتِهِ . وَلَمَّا خَرَجَ قالَ الفيلسوفُ : هَذَا الفَتَى يموتُ
قريباً ، فَكانَ كما قالَ .

ولَمَّا قَصَدَ أَبُو عَمَامٍ المَذْكُورُ عبدَ اللهِ بنَ طاهرٍ بِحُرَّاسَانَ وأَمْتَدَحَهُ
بالقصيدةِ الَّتِي أَوَّلَها :

« هُنَّ عَوَادِي يُونُسَ وصَواحِبُهُ »

أَنكَرَها عَلَيْهِ أَبُو العَمَيْثَلِ وَقَالَ لَهُ : لِمَ لَا تَقُولُ مَا يُفْهَمُ ؟ فَقَالَ
لَهُ : لِمَ لَا تَفْهَمُ مَا يُقَالُ ؟ فَاسْتَحْسَنَ مِنْهُ هَذَا الجَوَابَ عَلَى البِدِيَةِ .
وقَالَ (نِعمَةُ بنُ أَشْرَمَ) أَحَدُ كِبَارِ العُلَمَاءِ زَمَنِ المَأْمُونِ :
« دَخَلْتُ إِلَى صَدِيقِي لِي أَعُوذَهُ ، وَتَرَكْتُ حِمَارِي بِالْبَابِ ، ثُمَّ خَرَجْتُ ،
وَإِذَا بِصَبْيٍ عَلَيْهِ ، فَقُلْتُ لَهُ مَوْئِبًا وَلَا مِئًا : « لِمَ تَرَكَبُ حِمَارِي
بَغِيرِ إِذْنِي ؟ »

فَأَجَابَنِي الصَّبِيُّ قَائِلًا : « خِفْتُ أَنْ يَذْهَبَ خَفِظَتُهُ لَكَ ». فَمَجِئْتُ
مِنْ هَذَا الْجَوَابِ ، وَأَرَدْتُ أَنْ أُسَكِّتَ الصَّبِيَّ ، وَقُلْتُ لَهُ :
لَوْ ذَهَبَ مَا بَالَيْتُ بِذَهَابِهِ . فَأَجَابَنِي عَلَى الْقَوْرِ قَائِلًا : « إِنْ كَانَ
هَذَا رَأْيُكَ فِي الْحِمَارِ ، فَأَعْمَلْ عَلَى أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ ، وَهَبْهُ لِي ، وَأَرْبِخْ
شُكْرِي ». فَلَمْ أَذِرْ مَا أَقُولُ .

وَرَوَى ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي كِتَابِ « الْأَذْكَاءِ » أَنَّ أَبَا حَامِدٍ الْخُرَاسَانِيَّ
الْقَاضِي قَالَ : بَنَى ابْنُ عَبْدِ السَّلَامِ الْهَاشِمِيُّ بِالْبَصْرَةِ دَارًا كَبِيرَةً ، وَلَمْ يَتِمَّ
لَهُ تَرْبِيعُهَا إِلَّا بِمَسْكَنٍ لَطِيفٍ كَانَ لِمَجُوزٍ فِي جَوَارِهِ امْتَنَعَتْ مِنْ بَيْعِهِ .
فَبَذَلَ لَهَا أَضْعَافَ ثَمَنِهِ ، فَأَقَامَتْ عَلَى الْامْتِنَاعِ . فَشَكَا إِلَى ذَلِكَ . فَقُلْتُ
هَذَا مِنْ أَيْسَرِ الْأُمُورِ ! أَنَا أُوجِبُ عَلَيْهَا بَيْعَهُ ، فَأُضْطَرُّهَا إِلَى أَنْ تَسْأَلَكَ
وَزْنَ الثَّمَنِ .

ثُمَّ اسْتَدْعَيْتُهَا فَقُلْتُ : يَا هَذِهِ ! إِنْ قِيمَةُ دَارِكَ دُونَ مَا دَفَعَ لَكَ ،
وَقَدْ ضَاعَفَهَا أَضْعَافًا ، فَإِنْ لَمْ تَقْبَلِيهِ حَبَرْتُ عَلَيْكَ ؛ لِأَنَّ هَذَا
تَضْيِيعٌ مِنْكَ .

فَقَالَتْ : جُعِلَتْ فِدَاكَ ! فَهَلَا كَانَ هَذَا الصَّجَرُ مِنْكَ عَلَى مَنْ
يَزِنُ فِيمَا يُسَاوِي دِرْهَمًا عَشْرَةً وَتَرَكْتَ مَنْزِلِي ! مَا أَخْتَارُ بَيْعَهُ .
فَاتَّقَطَمْتُ^(١) فِي يَدِهَا :

(١) أى انقطعت حتى ، ولم يمكن أن أجعلها لقوتها في حبتها .

وَقَالَ الْحِجَابُ لَامْرَأَةٍ مِنَ الْخَوَارِجِ : وَاللَّهِ لَأُعَذِّبَنَّكُمْ عَذَابًا ،
وَلَأُحْصِدَنَّكُمْ حَصِيدًا . فَقَالَتْ : أَنْتَ تَحْصِدُ ، وَاللَّهِ يَزْرَعُ ؛ فَاظْطَرَّ أَيْنَ
قُدْرَةُ الْمَخْلُوقِ مِنْ قُدْرَةِ الْخَالِقِ .

وَدَخَلَ رَجُلٌ عَلَى شَرِيحِ الْقَاضِي يَخَاصِمُ امْرَأَةً لَهُ فَقَالَ : السَّلَامُ
عَلَيْكُمْ . قَالَ : وَعَلَيْكُمْ . قَالَ : إِنِّي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ . قَالَ : بَعِيدٌ
سَحِيقٌ ^(١) . قَالَ : وَإِنِّي قَدِمْتُ إِلَى بَلَدِكُمْ هَذَا . قَالَ : خَيْرَ مَقْدَمٍ .
قَالَ : وَإِنِّي تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً . قَالَ : بِالرِّفَاءِ ^(٢) وَالْبَنِينَ . قَالَ : وَلِإِنِّهَا وَلِدَتْ
غُلَامًا . قَالَ : لَتِهِنَا بِالْفَارِسِ . قَالَ : وَقَدْ كُنْتُ شَرِطْتُ لَهَا صَدَاقَهَا .
قَالَ : الشَّرْطُ أَمْلَكُ . قَالَ : وَقَدْ أَرَدْتُ الْخُرُوجَ بِهَا إِلَى بَلَدِي . قَالَ :
الرَّجُلُ أَحَقُّ بِأَهْلِهِ . قَالَ : فَاقْضِ يَنِينًا . قَالَ : قَدْ قَضَيْتُ .

وَخَرَجَ الْحِجَابُ ذَاتَ يَوْمٍ فَاصْخَرَ ^(٣) ؛ وَحَضَرَ غَدَاؤُهُ فَقَالَ :
أَطْلُبُوا مِنْ يَتْمَدِّي مَعِيَ . فَطَلَبُوا ، فَلِذَا أَعْرَابِيٌّ فِي ثَمَلَةٍ ^(٤) فَأُتِيَ بِهِ .
فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ . قَالَ : هَلُمَّ أَيُّهَا الْأَعْرَابِيُّ ؟ قَالَ : قَدْ دَعَانِي مَنْ
هُوَ أَكْرَمُ مِنْكَ فَأَجِبْتُهُ . قَالَ : وَمَنْ هُوَ ؟ قَالَ : دَعَانِي اللَّهُ رَبِّي إِلَى
الصَّوْمِ ، فَأَنَا صَائِمٌ . قَالَ : وَصَوْمٌ فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ الْحَارِّ ؟ قَالَ : صُمْتُ

(٢) الاتفاق والطبائفة .

(١) بعيد .

(٤) الثملة كساء دون القطيفة يشتمل به .

(٣) برز إلى الصغراء .

ليوم هو آخرُ منه . قَالَ : فَأَفْطِرَ الْيَوْمَ وَصُمَ غَدًا . قَالَ : وَيَضْمَنُ لِي
الْأَمِيرُ أَنِّي أَعِيشُ إِلَى غَدٍ ؟ قَالَ : لَيْسَ ذَلِكَ إِلَيْهِ . قَالَ : فَكَيْفَ يَسْأَلُنِي
عَاجِلًا بِأَجَلٍ لَيْسَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : إِنَّهُ طَعَامٌ طَيِّبٌ . قَالَ : مَا طَيِّبُهُ خَبَارُكَ
وَلَا مَطْبَاخُكَ . قَالَ : فَرَنَ طَيِّبُهُ ؟ قَالَ الْمَافِيَةُ . قَالَ الْحَاجُّ : بِاللَّهِ مَا رَأَيْتُ
كَالْيَوْمِ ، أَخْرِجُوهُ !

وَمِنَ الْمَقُولِ ^(١) أَنَّ بَعْضَ اللَّصُوصِ دَخَلَ يَتَاوَمَعُهُ جَمَاعَةٌ تَحْتَ
أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ فِي الْقَتْلِ وَالسَّرْقَةِ ، فَظَفَرُوا بِصَاحِبِ الْبَيْتِ ، وَأَوْقَفُوهُ
لِلْقَتْلِ فَتَدَخَّلَ ^(٢) عَلَيْهِمْ فِي إِبْقَاءِ مُهَجَّتِهِ ^(٣) ، وَأَخَذَ مَا فِي الْبَيْتِ بِكَالِهِ .
فَقَالَ كَبِيرُهُمْ : حَلَفُوهُ بِالطَّلَاقِ الثَّلَاثِ وَعَلَى الْمَصْحَفِ أَنَّهُ لَا يُعْلِمُ بِهِمْ
أَحَدًا . فَأَصْبَحَ الرَّجُلُ يَرَى اللَّصُوصَ يَبِيعُونَ مَتَاعَهُ ، وَلَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَتَكَلَّمَ
لَأَجْلِ الْيَمِينِ . فَجَاءَ إِلَى أَبِي حَنِيفَةَ وَأَعْلَمَهُ حَالَهُ ، فَقَالَ لَهُ أَحْضِرْ أَكْبَرَ
حَيِّكَ ، وَأَذِينَ جِيرَانِكَ ، وَإِمَامَ جَمَاعَتِكَ . فَلَمَّا حَضَرُوا قَالَ لَهُمْ
أَبُو حَنِيفَةَ : هَلْ تُحِبُّونَ أَنْ يَرُدَّ اللَّهُ عَلَى هَذَا الرَّجُلِ مَتَاعَهُ ؟ قَالُوا نَعَمْ .
فَقَالَ أَجْمَعُوا دَاعِرِيكُمْ ^(٤) ، فَأَدْخَلُوهُمْ الْجَامِعَ ، ثُمَّ أَخْرِجُوهُمْ وَاحِدًا
وَاحِدًا . وَكُلَّمَا خَرَجَ مِنْهُمْ وَاحِدٌ قُولُوا : هَذَا لِيُثْبِتَ ؟ فَإِنْ كَانَ لَيْسَ

(١) من كتاب الأذكياء لابن الجوزي . (٢) دخل بالهيلة .

(٣) المهجة : الدم ، وقيل دم القلب خاصة . وخرجت مهجته أى روحه .

(٤) الداعر : الفاسد .

بِصِّهِ قَالَ لَا ، وَإِنْ كَانَ لَصَّهُ فَلَيْسَ سَكَتَ . فَإِذَا سَكَتَ فَاقْبِضُوا عَلَيْهِ .
فَفَعَلُوا ذَلِكَ . فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِ مَا سُرِقَ مِنْهُ .

وَمِنْهُ أَنَّ الْإِمَامَ أَبَا حَنِيفَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ : دَخَلْتُ الْبَادِيَةَ ،
فَاحْتَجْتُ إِلَى الْمَاءِ ، فَجَاءَنِي أَعْرَابِيٌّ ، وَمَعَهُ قَرْبَةُ مَلَانةٌ ، فَأَبَى أَنْ يَبِيعَهَا
إِلَّا بِخَمْسَةِ دَرَاهِمَ . فَدَفَعْتُهَا لَهُ ثُمَّ أَخَذْتُ الْقَرْبَةَ ، فَقُلْتُ : مَا رَأَيْتُكَ
يَا أَعْرَابِيٌّ فِي السَّوِيْقِ^(١) ؟ فَقَالَ : هَاتِي فَأَعْطِيْتُهُ سَوِيْقًا مَلْتَوًا بَرِيْتِ
لِجَمَلٍ يَأْكُلُ حَتَّى امْتَلَأُ ثُمَّ عَطِشَ فَقَالَ : عَلَى بَشْرِيَّةٍ أَفَقُلْتُ بِخَمْسَةِ
دَرَاهِمَ عَلَى قَدَحٍ مِنْ مَاءٍ . فَاسْتَرَدَدْتُ الْخَمْسَةَ وَبَقِيَ الْمَاءُ .

وَقِيلَ إِنْ غَلَامًا لَقِيَ أَبَا الْعَلَاءِ الْمَعْرِيَّ فَقَالَ . مَنْ أَنْتَ يَا عُمِّي ؟
بَأَنْتَ الْقَائِلُ فِي شَعْرِكَ :

وَلِي وَإِنْ كُنْتُ الْأَخِيرَ زَمَانُهُ * لَا تَبِمَا لَمْ تَسْتَطِعْهُ الْأَوَائِلُ
قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : يَا عَمَّاهُ ، إِنَّ الْأَوَائِلَ قَدِ رَتَّبُوا ثَمَانِيَةَ وَعَشْرِينَ
حَرْفًا لِلْهَجَاءِ ، فَهَلْ لَكَ أَنْ تَزِيدَ عَلَيْهَا حَرْفًا ؟ فَدَهَشَ الْمَعْرِيُّ مِنْ ذَلِكَ ،
وَقَالَ : إِنْ هَذَا الْغَلَامُ لَا يَعِيشُ ؛ لَشِدَّةِ حِذْقِهِ^(٢) ، وَتَوْقُذِ فَوَادِهِ .

وَحَكَى الْمَدَائِنِيُّ قَالَ : خَرَجَ ابْنُ زِيَادٍ فِي فَوَارِسَ ، فَلَقُوا رَجُلًا
وَمَعَهُ جَارِيَةٌ لَمْ يَرْ مِثْلَهَا فِي الْحَسَنِ ، فَصَاحُوا بِهِ : خَلِّ عَنْهَا ! وَكَانَ مَعَهُ

(١) . مَا يَصِلُ مِنَ الْخُطَّةِ وَالشَّعْرِ . (٢) . مَهَارَتِهِ .

قوس^١، فرمى أحدهم، فهابوا الإقدام عليه، فعاد ليرمى، فانقطع الوتر^٢، فهجموا عليه، وأخذوا الجارية؛ فهرب، وأشتتلوا عنه بالجارية، ومدّ بعضهم يده إلى أذنها وفيها قرط^٣، وفي القرط دُرّة يقيمة لها قيمة عظيمة. فقالت: وما قدر هذه الدرّة؟ إنكم لو رأيتم ما في قلنسوتيه من الشر لاستحرقتم هذه. فتركوها وأتبّعوه، وقالوا له: ألق ما في قلنسوتيك! وكان فيها وتر قد أعدّه فنسيه من الدهش، فلما ذكره ركبته في القوس، ورجع إلى القوم، فولى القوم هارين، وخلّوا الجارية. وقيل إن موسى الهادي كان يوماً في بستان. ومعه أهل بيته وخاصته، وهو راكب على حمار وليس معه سلاح، فدخل عليه حاجبه، وأخبره أن رجلاً من الخوارج جيء به أسيراً، وكان الهادي حريصاً على الظفر به، فأمر بإذخاله، فأدخل عليه بين رجلين قد أمسكاً يديه. فلما رأى الخارجى الهادي جذب يديه من الرجلين، وأستل^(١) سيف أحديهما، ووثب نحو الهادي. ولما رأى ذلك من حول الهادي من أهله وخاصته فرّوا جميعاً، وبقي الهادي وحده. فثبت على حماله بمكانه حتى إذا قرب الخارجى منه، وكاد يعلوه بالسيف، قال الهادي: أضرب يا غلام عنقه!! فالتفت الخارجى حين سمع ذلك، فأسرع الهادي،

(١) أخذ وانزع.

ووثبَ عَنْ سَرْجِهِ ، وقبضَ عَلَى الخارجيِّ ، وانتزعَ مِنْهُ السيفَ فذبحه بِهِ ، ثُمَّ حَادَ إِلَى ظَهْرِ حِمَارِهِ ، وَتَرَجَعَ إِلَيْهِ أَهْلُهُ وَبِطَانَتُهُ يَتَسَلَّلُونَ . وَقَدْ مُلِثُوا رُعْبًا وَخَجَلًا ، فَلَمْ يَخَاطِبْتَهُمْ فِي ذَلِكَ الْمَهَادَى بِحَرْفٍ وَاحِدٍ .

وَيُحْكِي أَنَّ أَعْرَابِيًّا مَدَحَ أَمِيرًا بِقَصِيدَةٍ بَدِيعَةٍ ، فَلَمَّا قَرَأَهَا أَسْتَكْثَرَهَا عَلَيْهِ بَعْضُ الْحَاضِرِينَ . وَنَسَبَهُ إِلَى سَرِقَتِهَا . فَأَرَادَ الْأَمِيرُ أَنْ يَعْرِفَ حَقِيقَةَ الْحَالِ . فَأَمَرَ لَهُ بِمُتَدِّ^(١) مِنَ الشَّعِيرِ ، وَقَالَ فِي نَفْسِهِ : إِنْ كَانَ لَهُ بَدِيعَةٌ فِي الشَّعْرِ فَلَا بَدَأَ أَنْ يَقُولَ شَيْئًا فِي شَرْحِ حَالِهِ .

فَأَخَذَ الْمُدَّ الشَّعِيرَ فِي رِدَائِهِ ، وَخَرَجَ ، فَقَالَ الْأَمِيرُ لِلْبُيُوتَيْنِ سِرًّا لَا تُتِمَّكْنُوهُ مِنَ الْخُرُوجِ . فَوَقَفَ الْأَعْرَابِيُّ فِي الدَّهْلِيزِ حَائِرًا ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ الْأَمِيرُ مَنْ سَأَلَهُ وَقَالَ لَهُ : مَا شَأْنُكَ يَا أَعْرَابِيُّ ؟

فَقَالَ : إِنِّي أَمْتَدَحْتُ الْأَمِيرَ بِقَصِيدَةٍ .

قَالَ : فَمَا أَجَازَكَ عَلَيْهَا ؟

قَالَ : هَذَا الْمُدُّ مِنَ الشَّعِيرِ . فَقَالَ لَهُ : هَلْ قُلْتَ فِي ذَلِكَ شَيْئًا ؟

قَالَ : نَعَمْ . قَالَ مَا هُوَ ؟ فَأَنشَدَ عَلَى الْبَدِيعَةِ :

يَقُولُونَ لِي أَرْخَصْتَ^(٢) شِعْرَكَ فِي الْوَرَى^(٣)

فَقُلْتُ لَهُمْ مِنْ عُدْمِ^(٤) أَهْلِ الْكَارِمِ .

(١) مكيال خالص . (٢) جعلته رخيصة .

(٣) الخلق . (٤) قهر .

أُجِزَتْ^(١) عَلَى شِعْرِى الشَّعِيرَ وَإِنَّهُ
كَثِيرٌ إِذَا خَلَصْتُهُ مِنْ بَهَائِمِ
فَلَمَّا بَلَغَ الْأَمِيرَ هَذَانِ الْبَيْتَانِ أُعْجِبَ بِهِمَا ، وَعَلِمَ أَنَّ الْقَصِيدَةَ مِنْ
نَظْمِهِ ، فَأَمَرَ لَهُ بِمَاجِرَةٍ سَنِّيَّةٍ .

وَقِيلَ كَانَ أَحْمَدُ بْنُ طُولُونَ يَأْكُلُ يَوْمًا فِي إِحْدَى خِدَائِقِهِ ،
فَرَأَى سَائِلًا فِي ثِيَابِ رَثَّةٍ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ غَلَامًا بِرَغِيفٍ وَدِجَاجَةٍ وَشَرِيحَةٍ
لَحْمٍ ، وَقِطْعَةٍ مِنَ الْحُلْوَى . فَرَجَعَ الْغَلَامُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَأْخُذَ السَّائِلُ مِنْهُ
شَيْئًا ، فَأَمَرَ ابْنُ طُولُونَ بِهِ فَأَحْضَرَ ، وَأَخَذَ يَسْأَلُهُ ، فَأَجَابَ مِنْ غَيْرِ
أَنْ يَتَلَجَّحَ أَوْ يَضْطَرِبَ مِنْ هَيْئَتِهِ ، فَاتَّهَمَهُ بِأَنَّهُ جَاسُوسٌ مِنْ بَعْضِ الْأَعْدَاءِ ،
فَاعْتَرَفَ الرَّجُلُ بِذَلِكَ .

فَقَالَ بَعْضُ الْحَاضِرِينَ : هَذَا وَاللَّهِ السَّحَرُ ، فَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ طُولُونَ ،
مَا هُوَ بِسَحَرٍ ، وَلَكِنِّي رَأَيْتُ سُوءَ هَيْئَةِ الرَّجُلِ ، وَإِلَابَهُ عَنْ طَعَامٍ
يَتَمَنَّى الشَّعْبَانُ أَنْ يَأْكُلَهُ ، وَكَذَلِكَ رَأَيْتُ جُرْأَتَهُ وَثَبَاتَهُ ، فَخَكَمْتُ
عَلَيْهِ بِمَا خَكَمْتُ .

وَمِنْ كَانُوا مَدِينِينَ لَدَى كَاتِبِهِمْ بِنَجَاحِهِمْ فِي حَيَاتِهِمْ مِنَ الْإِفْرِجِجِ
«أَبْرَاهَامُ لِنُكُولُنْ» : أَحَدُ رُؤَسَاءِ الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ الَّذِينَ تَدِينُ لَهُمْ

تلك الولايات اليوم بما فيها من تقدم ورقي وإصلاح . « وُلد في ١٢ من فبراير سنة ١٨٠٩ » . وكان أبوه نجاراً عادياً ، وقد تُوِّفيت والدته ولماً يبلغ من العمر عشر سنين . تعلم مبادئ القراءة والكتابة وهو طفل . وكانت أمه قبل وفاتها تُعنى به العناية كلها ؛ فاخترت له من الكتب الكتاب المقدس ، وكتاباً عن حياة « جورج واشنطن » فقرأهما وأعاد قراءتهما مراراً حتى كاد يحفظهما . وكان في بعض الأحيان يسير أحياناً ليستعير كتاباً يقرأه . كان في حياته الأولى عاملاً ، ثم تَعَفَّ نفسه بالقراءة في أوقات الفراغ . وكان في الليل يُوقِد قطعاً من الخشب ، يتدفأ بنارها ، ويقرأ على نورها . ولولا ضيق المقام والخوف من الخروج عن الموضوع لكتبنا عنه الكثير ، فارجع إلى تاريخ حياته إن شئت . وكل ما نريد أن نذكره هو أنه درس القانون أخيراً ، ثم كان محامياً مدرّهاً يُشار إليه بالبنان ، حاضرَ الذهن ، مُتَقَدِّمُ الفكر ، قوى الشخصية ، ثم كان عضواً بمجلس النواب ، سياسياً ، فرئيساً للولايات المتحدة بأمريكا . فضلتُه زوجة — وكان فقيراً — على مُنافس آخر من الأغنياء . وقد اختارته زوجاً لذكائه وإخلاصه ، وشخصيته . تنبأت أنه سيكون عظيماً ، وقد كان مثلاً للمظية . وإذا كان « واشنطن » قد حرّر الولايات المتحدة ، فقد قَصِي « لينكولن »

على ما فيها من الاضطرابات ، وقام بكثير من الإصلاحات ، وقد ترك
« لنكونن » أمما خالداً محبوباً ، لا من الأمر بكتين خَسْبُ ، بل من
أبناء الإنسانية في جميع الشعوب . وقد كان يعملُ للإنسانية ، ويُفكرُ
كثيراً في الإنسانية . ونُسبُ إليه كثيرٌ من الحكايات التي تقرُّبُ
من الخيالات والروايات .

ومن كان لِحِدَّةِ ذهنهم وشخصيتهم أثرٌ كبيرٌ في نجاحهم أيضاً
« اللورد ما كولي » الأمسكتلندي ؛ فقد كان كاتباً وشاعراً ، وكان
مؤرخاً وقانونياً ، وكان خطيباً وسياسياً . وُلد في ٢٥ من أكتوبر
سنة ١٨٠٠ م ، وتوفي في ٢٨ من ديسمبر سنة ١٨٥٩ م . أظهر حُبَّ القراءة ،
وتمطشاً للعلم منذ نعومة أظفاره . توسَّع^(١) فيه أبواه كثيراً من
علامات الذكاء والمقدرة العقلية منذ طفولته ؛ فقد قلَّد « السير
وولتر سنكوت » في كتابه وعمره لم يزد على سبع سنين ، فكتب
ثلاث قصائد ، ومختصراً تاريخياً علمياً وهو طفل . كان قويَّ الذاكرة ،
محباً للعمل ، مؤلفاً بالأدب ، وبخاصة الروايات . وكثيراً ما لأمه أبوه
على قراءتها . انتسب في أكتوبر سنة ١٨١٨ إلى جامعة « كبريدج » ،
وحصل على أربع جوائز منها . وفي حياته العملية اشتغل بالقضاء ،

(١) تهرَّس فيه أبواه .

ثم اتخذ الأدب مهنة له ، ثم أنتسب إلى أحد الأحزاب السياسية ، ونجح في حياته النيابية نجاحاً باهراً ؛ لنشاطه العقلي ، وتأثيره الخطابي ، وإخلاصه في قوله . وكان ينضم لأرائه كثيرون ، حتى من المعارضين لحزبه . وله خطبة هي آيت بينات يدافع فيها عن تميم التعليم المجاني ، تدل على غيرته ، وحضور بديته . ولم يفخر الشعبان : الإنكليزي والأسكتلندي إلى اليوم بأحد من رجال السياسة والأدب فخرهما بما كُولى . ومن كتابته تكاد تلمس قوة حجته ، وروح خطبته ، ووضوح لغته ، وصفاء ذهنه ، وسلامة ذوقه في كتابته ، وجمال تعبيره ، وحسن أسلوبه ، ووفائه لبلاده وأقاربه وأصدقائه . تكاد تلمس نقده المر البريء الذي يُنبئ عن الإخلاص والإيمان .

ومن كان لحضور بديتهم أثر في فوزهم « المستر لويذ جورج » رئيس حزب الأحرار بالجلترة ؛ وقد حدث أنه كان يخطب في مجتمع في أثناء الانتخابات ، فسأله أحد الحاضرين مقاطعاً إياه :

أيد كُر (المستر لويذ جورج) أباه بجزبته وحماره ؟ فأجابه (المستر لويذ جورج) بلباقته الماثورة : « نعم ، أذكر ذلك ؛ أما المركبة فلا أدري عنها شيئاً ، وأما الحمار فما هو ذا يُذكرني بنفسه » ، « شيراً إلى من قاطمه ، فكان جواباً مضحكاً مسكتاً .

فَالنَّشَاطُ الْعَقْلِيُّ يُسَاعِدُ عَلَى النِّجَاحِ ، كَمَا يُسَاعِدُ عَلَى النِّجَاحِ فِي
الْحَيَاةِ . وَيُنْقِذُ الْإِنْسَانَ مِنْ أَدَقِّ الْمُرَاكِزِ ، وَيَحْفَظُ شَخْصِيَّتَهُ فِي أَشَدِّ
الْمَوَاقِفِ ، وَيُسَهِّلُ الصِّعْبَ ، وَيُقَرِّبُ الْبَعِيدَ . وَلَهُ أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي
حُسْنِ الْخُلُقِ وَالسُّلُوكِ . وَبِالْإِحْصَاءِ وَجَدَ أَنَّ أَكْرَمَ حُكَّامِ
«أَوْرُوبَةِ» خُلُقًا فِي الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ الْآخِرَةِ الْمَاضِيَةِ كَانُوا عَلَى قِسْطِ
كَبِيرٍ مِنَ الذِّكَاةِ .

الفصل الرابع

٣ - المشاركة الوجدانية

العنصر الثالث من العناصر التي تتكوّن منها الشخصية ، يدعى المشاركة الوجدانية ؛ فإذا لم نشعر بشعور الناس ، ولم نشاركهم في مسراتهم وأحزانهم ، ولم نتأثر بأرائهم وأفكارهم ، فهذا دليل على أننا في حاجة إلى أن نضع أنفسنا موضعهم ، منها كانت علاقتهم بنا ، على شرط أن يكون لدينا استعداد للفهم والتفكير والشعور ، منها كانت مراكننا بالنسبة إليهم ، من غير نظر إلى رئيس أو مرءوس ، غني أو فقير ، عظيم أو حقير ، رفيع أو ضئيل ، وألا تكون مناصبتنا العالية حجرة عثرة في سبيل فهمنا لغيرنا ، وتقدير ظروفه المحيطة به ، بل تكون معيناً لنا على أن نشاركه في حالاته ؛ ففسر لسرويه ، وتألم لآلامه . وبذلك نملك قلبه .

أما صاحب المزاج البارد الذي يتمثل فيه الجود والقسوة والغلظة ، فلا يتأثر لما ينتاب غيره من نكبات ، ولا يحب أن يفهم مع أحد ؛ فهو ينفرد من الناس ، والناس ينفرون منه ، وهو يؤثر في

غيره بالإيذاء ، كما يؤثر الهواء البارد في النبات الغض الشديداً الإحساس ،
فيتجمد قبل أن ينمو أو يترعرع .

ومن أكبر عيوب (نابليون) التي كان يتخلق بها ، شدة قسوته
على النوع الإنساني ، وعدم مشاركته له في شعوره ، ومن ثم كانت
شخصيته غير كاملة . وإنا في الوقت الذي نطالب فيه بالعدالة
نطالب أيضاً بالرحمة .

ومن الحكمة — إذا كنت رئيساً — أن تصل بالمشاركة
الوجدانية إلى تنفيذ جميع رغباتك ، من غير التجاء لإظهار سلطتك ؛
وأن تفوز بطاعة مرؤوسيك ، من غير أحكام بالقانون . ومن المهارة
أن تبين لمرؤوسيك غلطاتهم ، ومواضع ضعفهم ، وتسيرهم كيف
تشاء بدون أن تحط من كرامتهم ، وبدون أن تظهر لهم أنك أعلى
وأرق منهم ، ومن غير اضطراب إلى اتخاذ شدة أو عنف . إذا أمكنك
الوصول إلى كل هذا ، كانت شخصيتك قوية ، وكان تأثيرك كبيراً .
وإن قوة التأثير لا تستدعي قسوة أو غلظة ، ولكنها تستدعي
أن تشارك الناس في شعورهم ووجدانهم ، وتألم لما يذمهم ^(١) من
حوادث الدهر ، وتواسيتهم فيما يلم بهم من نوائب ، وتنظر إلى

(١) ذمهم الأمر : غشيم ، وباه فهم .

حسناتهم قبل سيئاتهم ، وفي صوابهم قبل خطيئهم ، وتقدر حسناتهم إذا أحسنوا ، وتفكر في البواعث التي أضطرتهم إلى الخطأ إذا أخطأوا ، وتعديل في أحكامك إذا حكمت ؛ لا تنزع^(١) إلى جانب الظلم ، ولا تميل إلى ناحية التهاون . وبهذه الوسيلة تكون قويا ، لئلا في غير ضعف ، متواضعا في غير ذلة ، موقفا في عملك ، محبوبا عند غيرك .

أما هؤلاء الذين يلجئون إلى الشدة والقسوة دائما فهم ضعفاء ، يشعرون بالضعف فيلجئون إلى الغلظة ؛ ظانين أنهم بتلك الطريقة ، يسترون ذلك الضعف ، ويكملون ذلك النقص ، مثلهم مثل الكلاب تنبح في الطرق ، لا في ضوء النهار ، بل في ظلام الليل ؛ كنى تبحث عن فريسة تفرسها ، أو خيانة تخونها ، أو طعام تسرقه . ثم كالكلاب تسرق عيوب غيرهم ، وفرحون لهفوات سواهم . وأمثال هؤلاء لا شخصية لهم ؛ فأشخاصهم مكروهة ، وأماؤهم منبوذة ، وأفعالهم مذمومة مشنومة .

فالشاركة الوجدانية من أهم عناصر الشخصية ، تجعل القلب متقدما ، يشعر بشعور غيره ، ويقس نفسه بمقياس سواه من الناس ،

(١) تميل وتذهب .

يقول « السير وولتر سكوت^(١) » الكاتب الأسكتلندي الكبير :
« إن المشاركة الوجدانية هي الحلقة الفضيّة ، أو الرباط الحريري ،
الذي يصل القلب بالقلب ، ويربط العقل بالعقل والجسم بالروح .
فإذا كانت الشخصية هي القوة التي يُتحدّب بها غيرنا ، فالمشاركة
الوجدانية من أهم الأشياء التي بها تتصلُّ بقلوب غيرنا وأرواحهم .

قيل لأعرابي : ما بال المرأى أجود أشعاركم ؟ فقال : « لأننا
نقول وأكبادنا تحترق » . وفي المرأى تبدو المشاركة الوجدانية .

وإذا قدرنا غيرنا ، وفكرنا فيه ، وسررنا لسروره ، وتألمنا لألمه ،
فإننا ننظر منه أن يقابل المثل بالمثل ، فيقدرنا ويُفكر فينا ،
ويشاركنا في سعادتنا وشقائنا بوجدانه وقلبه . أما إذا لم نُقدّر أحداً ،
ولم نُفكر في أحد ، فإننا لا نترقب أن يقدرنا أو يفكر فينا أحد .

قال أفلاطون^(٢) : إن إشراكنا غيرنا في مَسَرَّاتنا يزيّدنا إحساساً
بتلك المَسَرَّات . وقال أرسطو^(٣) : إننا في حبنا الخير لغيرنا وفي بحثنا

(١) Sir Walter Scott (١٧٧١ — ١٨٣٢ م) من أكبر الكتاب الأسكتلنديين
التصنيفيين المعروفين بالإخلاص ، وصدق الزمعة ، وقوة الإرادة ، له روايات كثيرة مثل
الحياة الاجتماعية في أسكتلندا وغيرها ، وشعره أقل منزلة من نثره .

(٢) أفلاطون : ولد في أثينا سنة ٤٢٨ ق . م ، وتوفي سنة ٣٥٧ ق . م . فيلسوف
يوناني من تلاميذ سقراط . ومن مؤلفاته الخالصة كتابا « الجمهورية » و « القوانين » .

(٣) أرسطو : ولد سنة ٣٨٤ ق . م . وتوفي وعمره ٦٢ سنة بهربيا ، كان مربيًا
للإسكندر المقدوني .

عنه نجد لأنفسنا خيراً . وقال سينيكا^(١) : لو أُعْطِيتُ الْحِكْمَةَ كُلَّهَا
لنفسى على أن أَسْتَأْثَرَ بها وأمنعها عن إخوتي بنى الإنسانية
لَكَرِهْتُ الْحِكْمَةَ .

ومن المشاركة الوجدانية أن يُخْلِصَ الأستاذُ في نُصيح طلبته
وإرشادهم ، والتفكير في عملهم وظروفهم ، ومُستقبلهم ؛ فيقابل الطلبة
ذلك بالوفاء والطاعة والتقدير .

فالشخصيةُ القويةُ تَطْلُبُ أن تَتَأَثَّرَ لغيرنا ، وتَتَأَثَّرَ غيرنا لنا ،
وتَشْعُرَ بشعورهم ، وَيَشْعُرُوا بشعورنا . ولا أثرٌ للتربية والتعليم إذا
لم يُصْجَبَا بِمَحَبَّةٍ غَيْرِنَا ، والتفكير فيهم بقلوبنا . فالمشاركة الوجدانية
يَجِبُ أن تَحَقِّقَ في القادة : قادة الفكر ، وقادة العمل ؛ حتى تكون لهم
شخصيةٌ جذابةٌ قويةٌ .

غير أنه ينبغي ألا يتدخل الوجدانُ والمَاطِفَةُ في أقوالنا وأفعالنا ،
وحرَكَاتِنَا وسكَّانَاتِنَا تسخُّلاً كبيراً ؛ كي نستطيع أن نزنَ الشئ بميزانِ
العدالة ، لا بميزانِ المَاطِفَةِ . ويجب ألا ننظرَ إلى الأمور من ناحيةٍ
واحدة ، وهى الناحيةُ الوجدانيةُ ؛ لئلا يَحْتَلَّ التوازنُ ، ويَصْبَحَ العقلُ

(١) سينيكا : (٣ ق م — ٦٥ م) : فيلسوف روماني ، عرف بالخطابة وقوة المحبة .

عبداً خاضعاً للتأثيراتِ الوجدانيةِ العاطفيةِ التي تُعَمِّينَا عن حقائقِ الأشياءِ وعلاقاتِها بغيرها .

ومن تتمثلُ فيهم المشاركةُ الوجدانيةُ سيدنا عمرُ بنُ الخطابِ رضى اللهُ عنه ؛ أنظرُ إلى ما رواه أسلمُ . قال : خرجتُ مع عمرَ بنِ الخطابِ إلى حَرَّةٍ وَاثِمٍ^(١) ، حتى إذا كُنَّا بِبَصْرَارٍ^(٢) إذا نارٌ تُورِثُ^(٣) ، فقال : يَا أَسْلَمُ ، إِنِّي أَرَى هَؤُلَاءِ رَكَبًا^(٤) قَصَّرَ بِهِمُ اللَّيْلُ وَالْبَرْدُ . انْطَلِقْ بِنَا . نَفْرَجُنَا نَهْرُولُ حَتَّى دُونََنَا مِنْهُمْ ؛ فَإِذَا امْرَأَةٌ مَعَهَا صَبِيَانُ لَهَا ، وَقَدَرُ مَنْصُوبَةٌ عَلَى النَّارِ ، وَصَبِيَانُهَا يَتَضَاغَوْنَ^(٥) .

فقال عمرُ : السَّلامُ عَلَيْكُمْ يَا أَصْحَابَ الضُّوءِ . قَالَتِ الْمَرْأَةُ : وَعَلَيْكَ السَّلامُ . فَقَالَ : أَأَدُو ؟ قَالَتْ : أَدُنُ بِخَيْرٍ أَوْ دَعُ . فَقَالَ : مَا بَالُكُمْ ؟ قَالَتْ : قَصَّرَ بَنَا اللَّيْلُ وَالْبَرْدُ . قَالَ : مَا بَالُ هَؤُلَاءِ الصَّبِيَةِ يَتَضَاغَوْنَ ؟ قَالَتْ : الْجُوعُ . قَالَ : وَأَيُّ شَيْءٍ فِي هَذِهِ الْقَدْرِ ؟ قَالَتْ ، مَا أَسْكَنَهُمْ بِهِ حَتَّى يَنَامُوا . اللَّهُ يَبْنَانَا وَبَيْنَ عُمَرَ . فَقَالَ : أَيُّ رَحِمَكِ اللَّهُ ، مَا يُدْرِى عُمَرَ بِكُمْ ؟ قَالَتْ : يَتَوَلَّى أُمُورَنَا وَيَفْعَلُ عَنَّا ؟

-
- (١) قرية لبني حرة ، قرب خيبر بظاهر المدينة .
 (٢) بلد قرب المدينة . (٣) أَرَتْ النار : أوقدها .
 (٤) جمع راكب . (٥) يصيحون .

فَأَقْبَلَ عَلَى^(١)، فَقَالَ : انْطَلِقْ بِنَا . فَخَرَجْنَا نَهْرُولُ حَتَّى أَتَيْنَا دَارَ الدَّقِيقِ . فَأَخْرَجَ عِدْلًا^(٢) فِيهِ كُبَّةٌ^(٣) شَحْمٌ . فَقَالَ : أَجِلهُ عَلَى^(٤) . قُلْتُ : أَنَا أَجِلهُ عَنْكَ . قَالَ أَجِلهُ عَلَى^(٥) (مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا) . كُلُّ ذَلِكَ وَأَنَا أَقُولُ أَنَا أَجِلهُ عَنْكَ . فَقَالَ فِي آخِرِ ذَلِكَ : أَأَنْتَ تَحْمِلُ عَنِي وَزْرِي^(٦) يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ لَا أَمَّ لَكَ !

فَحَمَلْتُهُ عَلَيْهِ . فَأَنْطَلَقَ وَأَنْطَلَقْتُ مَعَهُ نَهْرُولُ حَتَّى أَتَيْنَا إِلَيْهَا ، فَأَتَيْتُ ذَلِكَ عِنْدَهَا ، وَأَخْرَجَ مِنَ الدَّقِيقِ شَيْئًا ، وَجَمَلَ يَقُولُ : ذُرِّي عَلَى^(٧) وَأَنَا أَحْرُكُكَ لَكَ . وَجَمَلَ يَنْفُخُ تَحْتَ الْقَدْرِ ، وَكَانَ ذَا لَحْيَةٍ عَظِيمَةٍ ، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَى الدُّخَانِ مِنْ خِلَالِ لَحْيَتِهِ ، حَتَّى أَنْضَجَ الطَّعَامَ ، وَقَالَ : أَحْضِرِي شَيْئًا ، فَأَتَتْهُ بِصَحْفَةٍ^(٨) فَأَفْرَغَ الطَّعَامَ فِيهَا ، ثُمَّ جَمَلَ يَقُولُ أَطْعِمِيهِمْ وَأَنَا أَسَاعِدُكَ . فَلَمْ يَزَلْ حَتَّى شَبِعُوا ، ثُمَّ خَلَّى عِنْدَهَا فَضْلًا^(٩) ذَلِكَ ، وَقَامَ وَقْتُ مَعَهُ . فَجَعَلْتُ تَقُولُ : جِزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا ، أَنْتَ أَوْلَى بِهَذَا الْأَمْرِ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ . فَيَقُولُ : قَوْلِي خَيْرًا ؛ إِنَّكَ إِذَا جِئْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَجَدْتَنِي هُنَاكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . ثُمَّ تَنَحَّى نَاحِيَةً ثُمَّ اسْتَقْبَلَهَا ، وَرَبَضَ^(١٠) مَرِيضَ الْأَسَدِ ، فَجَعَلْتُ أَقُولُ : إِنَّ لَكَ لَشَأْنًا غَيْرَ هَذَا ، وَهُوَ

(١) كَيْلًا . (٢) قِطْعَةً . (٣) الْوِزْرُ : الْإِثْمُ .

(٤) الْمِصْفَاةُ : كَالْفَصْمَةِ تُشَبِّعُ خَمْسَةَ مِنَ الرِّجَالِ .

(٥) بَيْتَةً . (٦) جُلَسَ .

لَا يُكَلِّمُنِي، حَتَّى رَأَيْتُ الصَّبِيَّةَ يَلْعُبُونَ وَيَضْحَكُونَ، ثُمَّ نَامُوا وَهَدَّوْا؛
فَقَامَ وَهُوَ يَمْحَدُ اللَّهَ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ، فَقَالَ: يَا أَسْلَمُ، إِنَّ الْجُوعَ أَشْرَرَهُمْ
وَأَبْكَأَهُمْ، فَأَحْبَبْتُ أَلَّا أَنْصَرِفَ حَتَّى أَرَى مَا رَأَيْتُ فِيهِمْ.

وهذه الحادثة تُدَلُّ على أَنَّ سَيِّدَنَا عَمَرَ كَانَ مِثَالًا لِمُشَارَكَةِ الْعَامَّةِ
فِي مَسْرَاتِهَا وَأَحْزَانِهَا، يُفَكِّرُ فِي الرِّعْيَةِ وَيَقُومُ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ نَحْوَهَا.
ثُمَّ أَنْظَرَ إِلَى الْمَهْدِيِّ وَقَدْ خَرَجَ بَعْدَ هَذِهِ^(١) مِنَ اللَّيْلِ يَطُوفُ
بِالْبَيْتِ، فَسَمِعَ أَعْرَابِيَّةً مِنْ جَانِبِ الْمَسْجِدِ تَقُولُ: قَوْمٌ مَتَظَلِّمُونَ،
نَبَتْ^(٢) عَنْهُمْ الْعُيُونُ^(٣) وَعَظَّتْهُمُ السُّنُونُ، بَادَ^(٤) رِجَالُهُمْ، وَذَهَبَ
مَالُهُمْ، وَكَثُرَ عِيَالُهُمْ، أَبْنَاءُ سَبِيلٍ، وَأَنْصَاءُ^(٥) طَرِيقٍ، رَاعَوْا وَصِيَّةَ
اللَّهِ، وَوَصِيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ. فَهَلْ أَمِيرٌ يُخَيِّرُ؟ كَلَاهُ^(٦) اللَّهُ فِي سَفَرِهِ،
وَخَلَفَهُ فِي أَهْلِهِ. فَأَمَرَ نَصْرًا الْخَادِمَ فَدَفَعَ لَهَا خَمْسَمِائَةَ دِرْهَمًا.

ثُمَّ أَعَدَّ النَّظَرَ إِلَى رَفِيقِ الْخُلَفَاءِ. قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ:
كُنَّا فِي مَجْلِسِ الْمَأْمُونِ وَخَمْرُو بْنُ مَسْعَدَةَ يَقْرَأُ عَلَيْهِ الرِّقَاقَ. فَنَاجَدَتْهُ
عَطْسَةٌ. فَلَوَّى عُنُقَهُ، فَرَدَّهَا، فَرَأَاهُ الْمَأْمُونُ، فَقَالَ: يَا عَمْرُو لَا تَفْعَلْ؛
فَإِنَّ رَدَّ الْعَطْسَةِ، وَتَحْوِيلَ الْوَجْهِ بِهَا يُوَرِّثَانِ انْقِطَاعًا فِي الْمُتَّقِينَ.

(١) جزء . (٢) تركتهم . (٣) كبار البلد .
(٤) جمع نضو : للهزول . (٥) حفظه . (٦) ملك .

فقال بعضُ ولدِ المهديّ: ما أحسنها من مَوْلَى^(١) لعبديه، وإمامٍ لرعيته. فقال المأمون: وما في ذلك؟ هذا هشامٌ أضطربتْ عِمَامَتُهُ فأهوى الأبرشُ الكلبيُّ إلى إصلاحِها. فقال هشامٌ: إنا لا نتخذُ الإخوانَ خَوَلاً^(٢). فالذى قال هشامٌ أحسنُ مما قلته. فقال عمرو: يا أمير المؤمنين، إنَّ هشامًا يتكلفُ ما طُبعتَ عليه فما تُمدِّل فيه، ليس له قرابتُك من رسولِ الله (صلى الله عليه وسلم)، ولا قيامُك بحقِّ الله، وإنَّك والملكُ لكما قال النابغةُ الذبيانيُّ:

ألم تر أن الله أعطاك سورةً * ترى كلَّ ملكٍ دونها يتذبذبُ
كأنك شمسٌ والملكُ كواكبُ * إذا طلعت لم يبدُ منهم كوكبُ
ثم أنظر إلى الشعورِ نحو الفقراء:

دخلتُ أعرابيةً على عبدِ الله بنِ أبي بكرةٍ بالبصرة، فوفقتَ بين السَّاطِئِينَ^(٣). فقالت: أصلحَ اللهُ الأميرَ، وأمتع^(٤) به. حدرتُنا إليك سَنَةً أَشَدَّ بَلَاؤُهَا، وأُنكشِفَ غَطَاؤُهَا، أقودُ صبيةً صِغاراً، وآخرينَ كباراً، في بَلَدَةٍ شاسعةٍ^(٥)، تحفِضُنَا خافضةً، وترفِئُنَا رافعةً، لَمَلاتِ^(٦) من الدهرِ برينٌ عظيمي، وأذهبنَ لحمي، وتركتني

(١) المولى هنا: السيد. (٢) الخول جمع خائل: السيد، الرعاة.

(٣) السَّاطِئان من النخل والناس: الجلبان: يقال مضي بين السَّاطِئِينَ.

(٤) شبع. (٥) بيعة.

(٦) اللَّمَّة: النازلة من نوازل الدنيا.

وَالِهَةً^(١) أَدُورُ بِالْحُضِيضِ ، وَقَدْ ضَاقَ بَنَى الْبَلَدُ الْمَرِيضُ ، فَسَأَلْتُ فِي
أَحْيَاءِ الْعَرَبِ : مَنْ الْكَامِلَةُ فُضَائِلُهُ ، الْمُعْطَى سَائِلُهُ ، الْمَكْنَى نَائِلُهُ ؟
فَدَلَّلْتُ عَلَيْكَ - أَصْلَحَكَ اللَّهُ تَعَالَى - وَأَنَا أَمْرَأَةٌ مِنْ هَوَازَنَ ، وَقَدْ
مَاتَ الْوَالِدُ ، وَغَابَ الرَّافِدُ^(٢) ، وَأَنْتَ بَعْدَ اللَّهِ غِيَاثِي^(٣) ، وَمُنْتَهَى أَمَلِي ،
فَافْعَلْ بَنَى إِحْدَى ثَلَاثَ :

إِمَّا أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى بَلَدِي ، أَوْ تَحْسِنَ صَفْدِي^(٤) ، أَوْ تُقِيمَ أَوْدِي^(٥) ،
فَقَالَ : بَلْ أَجْمَعُهَا لَكَ . فَلَمْ يَزَلْ يُجِرِّي عَلَيْهَا كَمَا يُجِرِّي عَلَى عِيَالِهِ
حَتَّى مَاتَتْ .

وَقِيلَ : أُخْضِرَ إِلَى الْمَأْمُونِ رَجُلٌ قَدْ أَذْنَبَ ، فَقَالَ لَهُ الْمَأْمُونُ .
أَأَنْتَ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا ؟ قَالَ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنَا الَّذِي أَسْرَفَ
عَلَى نَفْسِهِ ، وَأَتَكَلَّلَ عَلَى عَفْوِكَ ؛ فَمَعَا عَنهُ .

وَحِكِي : أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ غَضِبَ عَلَى رَجُلٍ فَهَرَبَ مِنْهُ ،
فَلَمَّا ظَفِرَ بِهِ أَمَرَ بِقَتْلِهِ . فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ : إِنَّ اللَّهَ قَدْ فَعَلَ مَا أَحْبَبْتَ مِنَ
الظَّفَرِ ، فَأَفْعَلْ مَا يُجِبُّهُ مِنَ الْعَفْوِ ؛ فَإِنَّ الْإِتْقَامَ عَدْلٌ ، وَالتَّجَاوُزَ فَضْلٌ ،
وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ؛ فَمَعَا عَنهُ .

(١) متحيرة من شدة الحزن . (٢) الرافد : المطى والمبين .

(٣) متغنى ، وفيك نجدتي . (٤) الصغد : الطاء .

(٥) اعرجلي .

وقيلَ إِنَّ دِمَاءَ وَقَعَتْ بَيْنَ حَيَيْنٍ^(١) مِنْ قُرَيْشٍ ، فَأَقْبَلَ أَبُو سُفْيَانَ ،
فَنَظَرَ الْجَمِيعَ إِلَيْهِ ، فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، هَلْ لَكُمْ فِي الْحَقِّ أَوْفِيًا هُوَ
أَفْضَلُ مِنَ الْحَقِّ ؟ فَقَالُوا : وَهَلْ شَيْءٌ أَفْضَلُ مِنَ الْحَقِّ ؟ قَالَ : نَعَمْ ،
الْعَفْوُ . فَبَادَرَ الْقَوْمُ قَاصِطِلْحُوا .

وَذَكَرَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدٍ الطُّوسِيِّ أَنَّهُ كَانَ يَوْمًا عَلَى غَدَائِهِ مَعَ
جُلَسَائِهِ ، وَإِذَا صَبِيحَةٌ عَظِيمَةٌ عَلَى بَابِ دَارِهِ ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ ، وَقَالَ لِبَعْضِ
غِلْمَانِهِ : مَا هَذِهِ الضَّجَّةُ ؟ مَنْ كَانَ عَلَى الْبَابِ فَلْيَدْخُلْ ؛ فَنَفَرَ جَ الْغُلَامُ ثُمَّ
حَادَ إِلَيْهِ وَقَالَ : إِنْ فَلَانًا أُخِذَ وَقَدْ أُوثِقَ بِالْحَدِيدِ ، وَالْغُلَامَانُ يَنْظُرُونَ
أَمْرَكَ فِيهِ ؛ فَرَفَعَ يَدَهُ مِنَ الطَّعَامِ ؛ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَمَكَّنَكَ مِنْ عَدُوِّكَ ، فَسَبِّلْهُ أَنْ تَسْقِيَ الْأَرْضَ مِنْ
دَمِهِ ، وَأَشَارَ كُلُّ مَنْ جُلَسَائِهِ عَلَيْهِ بِقَتْلِهِ عَلَى صِفَةٍ اخْتَارَهَا ، وَهُوَ
سَاكِتٌ ، ثُمَّ قَالَ :

يَا غُلَامُ ، فُكِّ عَنْهُ وَثَاقُهُ^(٢) ، وَلْيَدْخُلْ إِلَيْنَا مُكْرَّمًا ، فَادْخُلْ عَلَيْهِ
رَجُلٌ لَا دَمَ فِيهِ ، فَلَمَّا رَأَى هَشْشَ^(٣) إِلَيْهِ ، وَرَفَعَ عَجَلِسَهُ ، وَأَمَرَ بِتَجْدِيدِ
الطَّعَامِ ، وَبَسَطَهُ بِالْكَلَامِ ، وَلَقَمَهُ حَتَّى أَتَمَّهِ الطَّعَامُ ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِحُلَّةٍ

(١) الحَيْنُ : وَاحِدُ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ .

(٢) الْوَثَاقُ وَيَكْسَرُ : مَا يَشُدُّ بِهِ .

(٣) تَبَسَّمَ وَخَفَّ إِلَيْهِ وَارْتَحَلَ لَهُ .

حسنةٍ وصلية^(١) ، وأمرَ برَدِّهِ إلى أهله مُكرِّمًا ، ولم يعاتبه على جُرم ولا جناية . ثم أُلْتُفِت إلى جُلُساته وقال لهم : إن أفضلَ الأصحابِ من حضَّ الصاحبِ على المكارمِ ، ونهاه عن ارتكابِ المآثمِ . وحسَّن لصاحبه أن يُجَازِيَ الإحسانَ بضعفه ، والإساءةَ بصفحه ؛ إننا إذا جازينا من أساء إلينا بِمثلِ ما أساء فأينَ موقعُ الشكرِ على النعمةِ فيما أُتِيحَ من الظَّفَرِ ؟

وقيلَ ، غضِبَ هارونُ الرشيدُ على مُحمَّدِ الطوسيِّ ، فدعاه بالسيفِ ، فبكى ، فقال له : ما يُكيِّك ؟ فقال : واللهِ يا أميرَ المؤمنين ما أفرَّغُ من الموتِ ؛ لأنَّه لا بدَّ منه ، وإنما بكيتُ أسفًا على خروجي من الدنيا وأميرُ المؤمنينَ ساخِطُ على . فضحك الرشيدُ ، وعفا عنه .

وقال خالدُ بنُ عبدِ الله لسلیمان بنِ عبدِ الملك حينَ وَجَدَ^(٢) عليه : يا أميرَ المؤمنين ، إن القدرةَ تُذهِبُ الحفيظةَ^(٣) ، وأنتَ تجلُّ عن العقوبةِ ، ونحنُ مُقرِّون بالذنبِ ، فإن تمفُّ عنى فأهلُ ذلكَ أنتَ ، وإن تُعاقبنى فأهلُ ذلكَ أنا ؛ فعفا عنه^(٤) .

وتتمثلُ المشاركةُ الوجدانيةُ في «أبراهامَ لنسكونن»^(٥) أحدِ

(١) عطية . (٢) غضب . (٣) النضب .

(٤) انتهى من نهاية الأرب ج ٦ ص ٦٤ . طبعة دار الكتب سنة ١٩٢٦ .

(٥) ولد في ١٢ من فبراير سنة ١٨٠٩ ، وقُتل في ١٥ من أبريل سنة ١٨٦٦ م .

الرؤساء السابقين للولايات المتحدة بأمريكا ، ومُصلِحها الأكبر ؛ فقد روى أحدُ قوادِ الجيشِ قال : في الأسبوعِ الأولِ الذي تسلمتُ فيه العملَ صدرَ حُكْمُ المحكمةِ العسكريةِ بإعدامِ أربعةٍ وعشرينَ جنديًا من الفارينَ من الجيشِ . ثم أُرسلَ الحُكْمُ أو (القرار) إلى الرئيسِ (لِنُكُولِن) للموافقةِ عليه ؛ فرفضَ ، فذهبَ القائدُ إلى مدينةِ واشنطنَ ، وقابلَ الرئيسَ ، وقالَ له :

« سيدى الرئيس ، إننا إذا لم نُمثلَ هؤلاء الفارينَ شرًّا تمثيلًا فإنَّ الجيشَ يكونُ فى خطرٍ عظيمٍ ، والشفقة على الأقليةِ ظلمٌ للأكثريةِ . » فأجابَ (لِنُكُولِن) :

« أيُّها القائدُ ! إن الولاياتِ المتحدةَ قد مُلِئتْ بالشكالي^(١) من الأراملِ^(٢) ، وأرجو ألا تسألنى أن أزيدَ الطينَ بِلَّةً ؛ فإننى لن أجيبَكَ إلى رغبَتِكَ . » وعفا عنهم جميعًا .

وفى يومٍ من الأيامِ أصدرَ أمرًا بالعفوِ عن جنديِّ حُكْمٍ عليه بالقتلِ ؛ لأنه وُجدَ نائمًا فى مركزِ حراسَتِهِ ، ثم قالَ : « إني لا أستطيعُ أن ألقى اللهَ ودمُ هذا الشابِّ المسكينِ على ملابِسى . إني لا أقبلُ أنْ

(١) الشكلى : من فقدت ولعًا . (٢) الأرملة : المرأة التى لا زوجَ لها .

يُضْرَبَ بِالرِّصَاصِ وَقَدْ غَلَبَهُ النَّوْمُ لِشِدَّةِ تَعَبِهِ . وَبَعْدَ أَشْهُرٍ قُتِلَ ذَلِكَ الشَّابُّ فِي أَثْنَاءِ الْحَرْبِ ، وَقَدْ وُجِدَ مَعْلُوقًا صَوْرَةً (لِنُكُولِنَ) عَلَى قَلْبِهِ ، كَاتِبًا عَلَيْهَا : « حَفِظَ اللَّهُ الرَّيْسَ لِنُكُولِنَ » .

وَيَدْمًا كَانَ (لِنُكُولِنُ) يَزُورُ جَرْحَى الْحَرْبِ إِذْ يَمِيعُ جَرِيحًا يَبْنُ^(١) وَهُوَ فِي التَّزَعِ^(٢) الْأَخِيرِ وَيَرْدُدُ : « أُمِّي ، أُمِّي » ؛ فَبَكَى « لِنُكُولِنُ » وَذَهَبَ إِلَيْهِ ، وَأَتَحَنَّى عَلَيْهِ ، وَسَأَلَهُ : مَاذَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَفْعَلَ لَكَ يَا بُنَيَّ الْعَزِيزُ ؟ فَأَجَابَ الْجَرِيحُ : « أَرْجُو إِرْسَالَ هَذِهِ الرِّسَالَةِ إِلَى أُمِّي » . فَازْدَادَ بَكَاءَ (لِنُكُولِنَ) ، وَأَقْنَعَهُ بِصَوْتِ يَمْلُؤُهُ الْحُزْنَ وَالْمُطَفِّ بِتَنْفِيدِ رَغْبَتِهِ . وَأَمَرَ بِإِرْسَالِ رِسَالَتِهِ فِي الْحَالِ إِلَى أُمِّهِ مَعَ رَايَةٍ خَاصَةٍ .

وَحَدَّثَ أَنْ رَأَى الرَّيْسُ (لِنُكُولِنُ) غُلَامًا صَغِيرًا مَتَمِّعًا^(٣) اللَّوْنِ ، نَحِيفَ الْجَسَمِ ، ضَعِيفَ الْقُوَّةِ ، وَاقْفًا بِجَانِبِ الْقَصْرِ الْأَيْضِ ، فَدَمَاهُ الرَّيْسُ ، وَقَالَ لَهُ : أَقْبِلْ يَا بُنَيَّ وَأَخْبِرْنِي بِمَا تَرُغِبُ ، فَتَقْدِمَ الْفَلَاحَ نَحْوَهُ ، وَأَتَحَنَّى رَأْسَهُ أَحْتَرَامًا لَهُ ، وَقَالَ وَالْخَوْفُ يَبْدُو مِنْ نَبَرَاتِ صَوْتِهِ : « مَوْلَايَ ؛ كُنْتُ أَشْتَغِلُ فِي مَصْنَعٍ ، فَطَرَدَنِي صَاحِبُهُ ،

(٢) النفس الأخير من الحياة .

(١) يتوجع .

(٣) أصفر .

فرضتُ ، فذهبتُ إلى المستشفى ، فكثرتُ به مدة ليست بالقصيرة ،
والآن لا مأوى لي ؛ فقد قُتلَ أبي في الجيش ، وماتت أمي وأنا صغير ،
وليس لي إخوة ولا أخوات ، ولا أصدقاء ، وليس هناك من
يَعُولُنِي^(١) . ثم أخذ يبكى . فامتلات عينا (لنكولن) دُموعا ، وسرَّحان
ما فرَّحه ، وأدخل السرور في قلبه . وأمر أحد الموظفين بالعناية به ،
والقيام بشئونه وتربيته ؛ ولا يجب فقد كان (لنكولن) يُحبُّ
الفقراء ، ويمطِّعُ على المساكين ، ويُشفِّقُ على الإنسانية ، وهو خير
مثَلٍ للمشاركة الوجدانية .

ويمكنُ كان يُشاركُ الفقراء في آلامهم الأديبُ الإنكليزيُّ
« صامويل جونسون » (١٧٠٩ — ١٧٨٤ م) ؛ فقد كان دائما مستعدا
للإحسان إلى المساكين ، والعطف على البائسين ، وكان إذا مرَّ في
طريقه بالفقراء وهم نائمون في الشارع ، وضع في يد كلِّ منهم قطعة
من النقود ؛ حتى يشعروا بشيء من السرور بعد يقظتهم ؛ ولا غرابة
فقد كان جونسون فقيرا ، جربَ آلامَ الجوع ، ولا يشعُرُ بالشيء
شعورا قويا إلا من يُجرَّبُه .

وقد دُعِيَ الطبيبُ « أوليفر جولدsmith » لزيارة حاملٍ مريضٍ في

(١) ينفق على .

يَلْتَمِسُهُ ، فَوَجَدَ أَنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ فِي حَاجَةٍ إِلَى الدَّوَاءِ ، وَلَكِنَّهُ فِي حَاجَةٍ
إِلَى النَّضَاءِ . فَطَلَبَ الطَّيِّبُ إِلَى زَوْجِ الْعَامِلِ أَنْ تَأْتِيَ مَعَهُ لِأَخْذِ
الدَّوَاءِ . وَأَعْطَاهَا صُنْدُوقًا . وَأَمَرَهَا أَلَّا تَقْتَحَهُ إِلَّا فِي مَنْزِلِهَا . فَلَمَّا
فَتَحَتْهُ فِي مَنْزِلِهَا وَجَدَتْهُ مَمْلُوءًا بِالنَّقُودِ ، وَوَجَدَتْ وَرْقَةً كُتِبَ عَلَيْهَا :
« يُؤْخَذُ مِنْهُ كَمَا دَعَتِ الْحَاجَةُ » . وَكَانَتْ هَذِهِ النَّقُودُ هِيَ كُلُّ مَا مَعَ
(جَوْلْدَنِيْمِث) فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ . وَلِئَلَّ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ .

الفصل الخامس

٤ — الشجاعة

رُبما كانت الشجاعة أَمَّ غُنْصيرٍ من عناصر الشخصية القوية ، في أوقات الرِّخاء والشدة على السواء . ولكن ما الشجاعة ؟ الشجاعة قوة بها يتمكن الإنسان من السيطرة على قواه مع ضبط نفسه وقت الخطر الذي يهدده ، سواء أكان ذلك الخطر حقيقياً أم وهمياً .

وكما أنَّ الشجاعة فضيلةٌ في الجُنْدَى والملاح ، كذلك هي فضيلةٌ في غيرهما من بني الإنسان ، وهي خير مقياسٍ يقاسُ به الإنسان في أوقات الشدة ، حيث يُتَطَلَّبُ الثباتُ أو الإقدامُ . وبهذا المقياس يُمكنُ وضعُ الشخص في مرتبته الخاصة بين الشُجَمانِ أو الجُبَناةِ ، وبينَ العظماءِ أو الماديِّينَ .

وقد قيلَ ، وقيلَ حقاً : إن الشجاعةَ تتوقفُ على القوةَ الجسميةَ والعصبيةَ والعقليةَ والخلقيةَ التي لدى الإنسانِ . وإنَّ المدينةَ الحاضرةَ قد قلَّتْ من الشجاعةِ بينَ الأفرادِ ؛ فقد صرَّحَ أحدُ النظَّارِ السابقينَ لمدرسة «إيتون» الإنكليزية المشهورة بأنه رأى غلاماً دخلت في

عنه ذبابة ، فحاولت أمه وأخواته الثلاث إخراجها بغير جدوى ، ولم يكن الأمر في حاجة إلى أكثر من أن يتحمل الولد الألم دقيقة واحدة ، ولكنه لم يتحمل آلام دقيقة - إن كانت هناك آلام - فأخذ في سيارته إلى طيب في مدينة تبعد خمسة أميال عن القرية . كل هذا من أجل شيء يسير كان في استطاعة أي فرد من الأسرة أن يقوم به بسهولة .

هذه حكاية عن شبان الأمس وأمهات الأمس بانجلترا . أما اليوم فتجد الأمهات والآباء يفرسون الشجاعة ، ويخلقون الرجولة في نفوس أبنائهم من الصغر ، ويعودونهم الصبر وضبط النفس ، وكمثال الشعور ، وتحمل الألم من الطفولة الأولى .

وبهذه الوسيلة يثبون الشجاعة فيهم . ولا يظهر الخلق المتين ، ولا تبدو الشخصية القوية ، إلا بهذا النوع من الشجاعة ، وهو القدرة على احتمال الآلام . وإن من يستطيع أن يتحمل دقائق أكثر من غيره يمكنه أن يفوز بالنجاح والنصر ، سواء أكان جندياً أم قائداً ، معلماً أم معلماً ، غنياً أم فقيراً .

وبالشجاعة يظهر الفرق الكبير بين الشخصية القوية ، والشخصية الضعيفة .

والآن يُريدُ أن يبيِّنَ مظاهرَ الشجاعةِ وأثرَها في النجاحِ في العملِ ،
وفي الحياةِ الاجتماعيةِ فنقولُ :

مظاهر الشجاعة :

أولاً : الشجاعةُ في ضبطِ النفسِ ؛ وذلك بأن تقفَ موقفاً طبعياً
بكلِّ شجاعةٍ عندَ مقابلةِ الرؤساءِ ، أو عندَ الظهورِ أمامَ مجتمعٍ لإلقاءِ
محاضرةٍ ، أو الاشتراكِ في مناظرةٍ ، أو التعبيرِ عن رأيٍ ، أو الدفاعِ
عن مبدأٍ أو عقيدةٍ ، بحيث لا ترتعدُّ ولا تضطربُ ، ونظهرُ بأحسنِ
مظهرٍ في حديثنا وإلقائنا ، ونبرهنُ بأعمالنا وآرائنا على مقدرتنا بكلِّ
لطفٍ وأدبٍ . وإذا لم يكنْ لدى الإنسانِ قدرةٌ على إظهارِ مقدرتهِ
بالعملِ وضبطِ النفسِ ، فقد تضيُّعُ الفرصةُ الذهبيةُ التي قد لا تصادفُه
مرةً أخرى . وكثيراً ما تضيُّعُ الفرصةُ من الشخصِ ، ثم يندبُ سوءَ
حظِّه ، ويشكو الظروفَ والمقاديرَ ، مع أنه لم يكنْ في حاجةٍ إلى أكثرَ
من الشجاعةِ في أتمّاز الفرصةِ حينَ سُئِنَها .

ومَن كانَ يتمثِّلُ فيهم ضبطُ النفسِ جعفرُ الصادقُ (رضي الله عنه) ؛
فقد حُكي أن غلاماً له وقفَ يصبُّ الماءَ على يديه ، فوقعَ الإبريقُ من
يدِ الغلامِ في الإناءِ ، فطار الرَّشاشُ في وجههِ ، فنظرَ جعفرُ إليه نظراً

مُعْضِبٍ، فَقَالَ : يَا مَوْلَايَ ، « وَالكَاطِمِينَ ^(١) الْغِيْظَ » قَالَ : قَدْ كَظَمْتُ غِيْظِي . قَالَ : « وَالْعَاقِبِينَ عَنِ النَّاسِ » . قَالَ : قَدْ عَفَوْتُ عَنْكَ . قَالَ : وَاللّٰهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . « قَالَ : أَذْهَبُ فَأَنْتَ حَرُّ لَوْجِهِ اللّٰهُ الْكَرِيمُ . وَلَا سَبَبَ يَدْعُو الْإِنْسَانَ إِلَى الْخَوْفِ مِنْ أَبْنَاءِ جَنْسِهِ ؛ فَقَدْ يَكُونُ الْخَوْفُ مَبْنِيًّا عَلَى وَهْمٍ لَا أَسَاسَ لَهُ . وَإِذَا وَثِقَ الْمُتَكَلِّمُ بِنَفْسِهِ ، وَعَرَفَ مَا يُرِيدُ أَنْ يَقُولَهُ ، وَعَرَفَ كَيْفَ يُعَبِّرُ عَنْ خَوَاطِرِهِ ، وَكَيْفَ يُبْرِهنُ عَلَى نَظَرِيَّتِهِ بِالْعَقْلِ وَالنَّطْقِ ، فَإِنَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَطْمَئِنَّ إِلَى نَفْسِهِ ، وَيُحْسِنَ بَرَمَائِمَهَا ، وَيُقَابِلَ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُخَاطَبَ مَنْ يَرِيدُ ، مَا دَامَ مُتَحَلِّيًا بِالْأَدَبِ ، وَاتِّقًا بِنَفْسِهِ ، وَكَانَ عَقْلُهُ مُرْتَبًا ، وَكَانَتْ أَفْكَارُهُ مَنْطِقِيَّةً ؛ بِحَيْثُ لَا يَتَسَرَّعُ فِي ذِكْرِ شَيْءٍ يَدُلُّ عَلَى عَقْلٍ مُضْطَرَبٍ ، أَوْ رُوحٍ قَلِقَةٍ ، وَلَا يَتَظَاهَرُ بِمَا لَيْسَ فِيهِ . وَإِذَا وَثَقَتْ بِمَا تَرِيدُ أَنْ تَقُولَهُ ، فَهَذَا وَحْدَهُ كَافٍ لِأَنْ تَوْثُرَ فِي نَفُوسِ سَامِعِيكَ ، وَتَجْعَلَ قَلْبَكَ وَرُوحَكَ فِي إِثْبَاتِ مَا تَرِيدُ إِثْبَاتَهُ ، أَوْ نَقْيِ مَا تَرِيدُ نَقْيَهُ ، فَتَكَلِّمْ بِقَلْبِكَ لَا بِلِسَانِكَ .

قِيلَ مَرَّةً مَرَّةً بِنِ الْحَطَّابِ (رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ) بِصَبِيَّانٍ يَلْعَبُونَ ، وَفِيهِمْ عَبْدُ اللّٰهِ بْنُ الزُّبَيْرِ ^(٢) ، فَقَرَأُوا حِينَ رَأَوْهُ ، وَثَبَتَ عَبْدُ اللّٰهِ ، فَقَالَ عُمَرُ :

(١) كَظَمَ غِيْظَهُ بِكَظَمِهِ : رَدَّهُ وَحَبَسَهُ .

(٢) هُوَ عَبْدُ اللّٰهِ بْنُ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ دُمَا لِنَفْسِهِ بِالْخِلَافَةِ أَيَّامَ زَيْدٍ ، وَبِإِيَّاهِ أَمَلِ الْأَقْطَارِ

إِلَّا الشَّامَ ، وَتَقَلَ سَنَةُ ٧٣ هـ .

مالك لا تَقَرُّ مع أصحابك ؟ قال : لم أَجْرِمَ فَأَخَافُكَ ، ولم يكن في الطريق ضيقٌ فَأَوْسَعَ لَكَ .

ولا شيء يَقْضِي على الشجاعة وَيَخْضِدُ^(١) شوكتها أَكْثَرُ من الهَلَعِ^(٢) ؛ فحينما وَجَدَ وَجَدَ الأَلَمِ ، والقلقُ النفسَ ، وتعبُ الضميرِ ، واضطرابُ العقلِ ؛ فتضطربُ شخصيةُ الإنسانِ . وإذا كان الخوفُ غمًّا ندفعه في سبيلِ المحافظةِ على الحياةِ فالإفراطُ فيه عيبٌ من العيوبِ الإنسانيةِ التي يجبُ تهذيبُها ، والتي تقضى بأن يُفكَّرَ الإنسانُ في الشيءِ وفي نتائجهِ .

ويُضاف إلى المخاوفِ التي تلحقُ الشخصَ في حاضره وتحيطُ به من وقتٍ لآخر ، غوافٌ وهميةٌ يتوهمها ، وتخيّلُ حدوثها في المستقبلِ ، فيقلقُ باله ، ويضطربُ فكرُهُ وتضعفُ شخصيتهُ . وكثيراً ما تكونُ هذه الأوهامُ الخيفةُ مبنيةً على غيرِ أساسٍ ، ويندرُ أن تقعَ . وكما أَعْتَمَنَّا^(٣) لتوقعِ مصائبٍ لم تحدثْ ، ولن تحدثْ . وتكثرُ هذه المخاوفُ عادةً لدى ذوى الشخصياتِ الضعيفةِ ؛ أما ذوى الشخصياتِ القويةِ فلا يُكثِرُونَ الهمومَ ، من غيرِ ما سببٍ ، ولأقلِّ سببٍ ،

(١) يخال خضد الشجر : أى قطع شوكه ، وبابه ضرب .

(٢) الهَلَعُ : أشدُّ الجزع . (٣) اغم : أصابه الغم والكرب .

بل يستقبلون الحياة كما هي ، ويواجهونها بما فيها من مسراتٍ وأحزانٍ ،
وسعادةٍ وشقاء ، يبتسمون بهدوءٍ حتى في مواطن البكاء ، ويصبرون
في مواقف الأساء ، وهؤلاء جديرون بالنجاح في الحياة ؛ لشدة
تقّتهم بالله .

والحياة مملوءة بالحوادث والمصائب ، ولا يقدر الإنسان أن
يعرف ما ينتظره في الغد من المقادير . وبالصبر على الشدائد تُختبر
رجولتنا ، ويُعرف مَعْدِنُ الرجولة فينا . وبالروح التي تُقابلُ بها هذه
الحوادث تظهر شخصيتنا أو تستترُ . ولا يظهر الرجالُ إلا عند
الشدائدِ والمصاعب .

ومن حيثُ إن النجاح في الحياة ليس من السهل ، فيجبُ أن
يتعلم الإنسان كيف يبتسمُ في الأيام المظلمة ، كما يبتسمُ عند المسراتِ
في أيام السعادة والهناء . وينبغي أن يعود الشجاعة والاحتفاظ بقواه
عند المللّات ؛ حتى يكتسب إعجاب رفقاءه واحترامهم ، ويثبت ثبوت
الطود^(١) في مهبّ الرياح .

وليس من الشجاعة أن تُكثّر شكوى الحياة والظروف
والأيام ؛ فشكوى سوء الحال لن تُغيّر ما حدث بل تذهب بنصرة^(٢)

(١) الطود : الجبل العظيم . (٢) النصرة : الحسن والرواق .

العقل وقوة القلب . وإن الخوفَ من الخذلان والهزيمة يُؤدِّي إلى الهزيمة . وقوة الأمل في النجاح مع التشجيع والمثابرة تحفظُ روحَ الإنسان وحمَّته ، وتبعثُ فيه كثيراً من الرجاء في الفوز ، وبخاصة إذا عملَ بمقله وقلبه ويده . وإن الاعترافَ بالنقص فضيلةٌ ، والعملَ على علاجه شجاعةٌ .

فنحنُ في حاجةٍ إلى الشجاعة التي بها نستطيعُ مواجهةَ المخاوفِ ، ومقاومتها بكل ثبات وصبرٍ وتفكيرٍ حتى تغلبَ على مصاعبِ الحياة ، ونقللَ من الخوف الذي يهدمُ الرجولةَ من أساسها ، ويقتلُ الشخصيةَ في مهدها .

وإن أعظمَ انتصارٍ في الحياة هو الانتصارُ على النفس بضبطها ، وكبح^(١) جماحها ، والتغلبِ عليها . وليست الشجاعةُ في أن تنتصرَ على سبعٍ مُفترسٍ فَحَسْبُ ، ولكن الشجاعةُ في أن تُسيطرَ على نفسك التي بين جنبيك . وأرق مظاهر الشجاعةِ الصبرُ والتحملُ عند المقدرة . قيل : « مرَّ المسيحُ بنُ مريمَ عليه السلام بقومٍ من اليهود ، فقالوا له : شرًّا ، فقال خيراً . فليل له . إنهم يقولون شرًّا وتقول لهم خيراً ؟ فقال : كلُّ واحدٍ يُنفقُ مما عنده » .

(١) كبح الهابة : جنبها إليه بالجماء لكي تنف ولا تجرى .

وَذَكَرَ عَنِ الْمَأْمُونِ أَنَّهُ قَالَ لِيُخِي بِنِ أَكْتَمَ يَوْمًا : سِرَ بِنَا
تَنْفَرَجُ ، فَسَارَا . فِينِمَا هُمَا فِي الطَّرِيقِ وَإِذَا مَقْصَبَةٌ ^(١) خَرَجَ مِنْهَا
رَجُلٌ بِقَصْبَةٍ لِّلْمَأْمُونِ يَتَنَظَّمُ لَهُ . فَفَرَّتْ دَابَّتُهُ مِنْهُ ، فَأَلْقَتْهُ عَلَى الْأَرْضِ
صَرِيحًا . فَأَمَرَ بِضَرْبِ ذَلِكَ الرَّجُلِ . فَقَالَ الرَّجُلُ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ،
إِنِ الْمَضْطَرَّ يَرْكَبُ الصَّعْبَ مِنَ الْأُمُورِ وَهُوَ عَالِمٌ بِرُكُوبِهِ ، وَتَجَاوَزُ
الْأَدَبَ وَهُوَ كَارِهِ لِّتَجَاوُزِهِ . وَلَوْ أَحْسَنْتَ الْيَوْمَ مُطَالَبَتِي لِأَحْسَنْتُ
مُطَالَبَتَكَ ، وَلَأَنْتَ عَلَى رَدِّ مَا لَمْ تَفْعَلْ أَقْدَرُ مِنِّي عَلَى رَدِّ مَا قَدْ فَعَلْتُ » .
فَبَكَى الْمَأْمُونُ وَقَالَ : « بِاللَّهِ أُعِدُّ عَلَى مَا قُلْتَ » . فَأَعَادَهُ ، فَالْتَفَتَ
الْمَأْمُونُ إِلَى يُحْيَى بْنِ أَكْتَمَ وَقَالَ : « أَمَا تَنْظُرُ إِلَى غَاطِبَةِ هَذَا الرَّجُلِ
بِأَصْغَرِيَّةٍ ^(٢) ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « الْمَرْءُ بِأَصْغَرِيَّةٍ : قَلْبُهُ
وَلِسَانُهُ » . وَاللَّهِ لَا وَقَفْتُ لَكَ إِلَّا وَأَنَا قَائِمٌ عَلَى قَدَمِي » . فَوَقَفَ ، وَأَمَرَ
لَهُ بِصِلَةٍ جَزِيلَةٍ ، وَأَعْتَذَرَ إِلَيْهِ .

وَحُكِيَ أَنَّ جَارِيَةً جَاءَتْ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ بِقَصْعَةٍ مِنْ
ثَرِيدٍ تُقَدِّمُهَا إِلَيْهِ وَعِنْدَهُ قَوْمٌ . فَاسْرَعَتْ بِهَا ، فَسَقَطَتْ مِنْ يَدِهَا ،
فَانْكَسَرَتْ ، فَأَصَابَهُ وَأَصْحَابُهُ مِمَّا كَانَ فِيهَا . فَارْتَاعَتْ ^(٣) الْجَارِيَةُ عِنْدَ

(١) أرض زرعت قصباً .

(٢) عقله ولسانه .

(٣) فزعته .

ذلك . فقال لها : « أنت حرة لوجه الله تعالى ، لعله أن يكون كفارة
للزَّوْع^(١) الذي أصابك » .

وقيل للأحنف بن قيس : تَمَنَّيْتِ الحِلْمَ ؟ قال من قيس بن
حاصم المُنْقَرِي ؛ رأيتُه قاعداً ببناء داره محتبياً^(٢) بمجامل^(٣) سيفه يُحدثُ
قومه ، حتى أتى رجل مكتوف ، ورجل مقتول ، فقيل له : هذا ابنُ
أخيك قتلَ أبتك . فوالله ما حلَّ حَبْوَتَه ، ولا قطعَ كلامه . ثم التفتَ
إلى ابن أخيه وقال له : يا ابنَ أخِي أَتَمِتَ بِرَبِّكَ ، ورميتَ نَفْسَكَ
بسهمِكَ . وقتلتَ ابنَ عمِّكَ . ثم قال لابن له آخر : قُمْ يا بُنِي فَوَارِ
أخاك ، وحُلِّ كِتَاف^(٤) ابنِ عمِّكَ ، وسُقْ إلى أمِّه مائةَ ناقةٍ ديةً أبنِها ؛
فإنها غريبة^(٥) .

وقيل لقيس بن حاصم ما الحِلْمُ ؟ قال : أنَ تصلَ من قطعك ،
وتُعْطِيَ من حرَمِكَ ، وتعفوَ عَمَّنْ ظلمَكَ . وقال لقمانُ الحكيمُ :
ثلاثةٌ لا تعرفُهم إلا عند ثلاثةٍ : لا يُعرفُ الحليمُ إلا عند الغضبِ ،

(١) الزَّوْع : الفزع .

(٢) احتبى بالثوب : اشتعل أو جمع يجمع ظهره وساقه بجملته ونحوها ، والام
الحبوة ، وضم .

(٣) مجامل السيف لا واحد لها من لفظها ، وإنما واحداً مجمل ، وقيل رجالة .

(٤) الكتاف : الحبل الذي تشد به اليد إلى الخلف .

(٥) انتهى من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنويزي ج ٦ ص ٥١ ، طبعة
دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٦ .

ولا الشجاع إلا عند الحرب ، ولا تعرف أذاك إلا إذا احتجت إليه :
وقال مؤرق العجلي : ما تكلمت في الغضب بكلمة ندمت عليها في
الرضا . وقال حكيم : لا يظهر الحلم إلا مع الانتصار ، كما لا يظهر
العفو إلا مع الاقتدار .

وقال أحد الفلاسفة : الحرية الحقّة أن يضبط المرء نفسه . وقال
آخر : إن جُل فضائل الإنسان تظهر في الصبر وضبط النفس والحلم .
وقال سقراط : من كثر احتماله ، وظهر حلمه ، قل ظلمه ، وكثرت
أعوانه . وقال ابن المعتز : عقوبة الغضب تبدأ بالغضب ؛ تُقبح صورته ،
وتُثلم^(١) دينه ، وتُجبل ندمه .

والحلم دفع السيئة بالحسنة ، وهو دِعامَةُ^(٢) العقل ، وعِقالُ الشر ؛
قال الله تعالى : « ولا تستوي الحسنة ولا السيئة أدفع بالتي هي
أحسن ؛ فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم . وما يُلقاها
إلا الذين صَبَرُوا وما يُلقاها إلا ذو حظٍ عظيم . » وقد روى عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأشجع عبد القيس : « يا أبا المنذر ، إن
فيكَ خصلتين^(٣) يرضاها الله ورسوله : « الحلم والأناة » . وقيل :

(١) الثلمة : الخلل . (٢) الدِّعامَة : عماد البيت وما يستند به الحائط .

(٣) في الإحياء للقرطبي « خصلتين مجعولتا ... » ج ٣ ص ١٢٣ طبع بالطبعة الميمنية .

الحلم والآنأة توءمانِ يَنْتَجِهُمَا علوُ الهِمَّةِ . ومن كلام النبوة : « كادَ الحليمُ أن يكونَ نبياً » .

وقيل : الحلمُ بالتحلم كما أنَّ العلمَ بالتعلم . وَيَدُلُّ على ذلك ما حُكِيَ عن جعفرٍ الصادقِ أنه كان عنده رجلٌ سَيِّئُ الخُلُقِ ، فقيل له : أما تَأْنَفُ من مثلِ هذا عندك وأنت قادرٌ على الاستبدالِ به ؟ فقال : إنما أَتْرُكُهُ لِأَتَعَلَّمَ عليه الحلمَ . قال الشاعرُ :

وليس يتمُّ الحلمُ للمرءِ راضياً * إذا هو عند السُّخْطِ لم يتَحَلَّمْ^(١)
كما لا يتمُّ الجودُ للمرءِ موسراً * إذا هو عند القَتْرِ^(٢) لم يتَحَنَّمْ^(٣)
ورَوَى عن سَرِيٍّ السَّقَطِيِّ أنه قال : الحلمُ على خمسةِ أوجهٍ :
حلمٌ غَرَزِيٌّ^(٤) ؛ وهو هِبَةٌ من الله للعبد ، يَفُوقُ عَنْ ظِلْمَةٍ ، وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ ، وَيُسْطَى مَنْ حَرَمَهُ ، وَيُحْسِنُ لِمَنْ أَسَاءَ إِلَيْهِ ؛ وَحِلْمٌ تَحَالُمٌ ؛ يَكْظُمُ غَيْظَهُ رَجَاءَ الثَّوَابِ وَفِي الْقَلْبِ كَرَاهِيَةٌ ؛ وَحِلْمٌ كِبَرٌ لَا يَرَى الْمَسِيءَ أَهْلاً أَنْ يَجَازِيَهُ ؛ وَحِلْمٌ مَذْمُومٌ ، رِياءٌ وَسُمْعةٌ وهو حَاقِدٌ مَا كَتَّ يُرَآئِي بِهِ جُلَسَاءَهُ ؛ وَحِلْمٌ مَهَانَةٌ وَذِلَّةٌ وَعِجْزٌ وَضَعْفٌ نَفْسٍ وَصِغَرٌ هَمَّةٍ .

وقال أبو هلالٍ العسكريُّ : ومن أشرفِ نُعُوتِ الْإِنْسَانِ أَنْ

(١) يتظاهر بالحلم . (٢) الضيق .

(٣) يحتمل : جنم ويستحي . (٤) يلبي .

يُدْعَى حليماً ؛ لأنه لا يُدْفَعُ حتى يكونَ عاقلاً وعلماً ومُصْطَبِراً ومُحْتَسِباً
وعُفُوّاً وصالحاً ومُحْتَمِلاً وكَافِلاً . وهذه شرائفُ الأخلاقِ ، وكرائمُ
السَّجَايا والخِصَالِ .

وقال معاويةُ لابنه يزيدَ :

« عليكَ بالحلمِ والاحتمالِ حتى تَمُكِّنَكَ الفرصةُ ، فإذا أَمَكَّنَكَ
فعلَيْكَ بالصَّفْحِ ؛ فإنه يدفعُ عنكَ مُعْضِلَاتِ الأمورِ ، ويَكْفِيكَ
مِصَارِعَ المَحْذُورِ .

حُكِيَ أَنَّهُ لما أفضَّت الخِلافةَ إلى بني العباسِ^(١) أَخْتَفَتْ منهم
جَمِيعُ رجالِ بني أُمَيَّةَ ، وكان منهم إبراهيمُ بنُ سُلَيْمَانَ بنِ عَبْدِ المَلِكِ .
وكان إبراهيمُ هذا رجلاً عالماً كاملاً أديباً ، وهو مع ذلك في سِنِّ
الشَّيْبَةِ ، فَأَخَذُوا له أماناً من السَّفَاحِ ، فَأَعْطَاهُ أَبُو العباسِ السَّفَاحُ
أماناً وأَكْرَمَهُ ، وقال له : إزَمْ مَجْلِسِي . فذاتَ يومٍ قال له أَبُو العباسِ
السَّفَاحُ : يا إبراهيمُ حَدِّثْنِي عما مرَّ بك في أَسْتَحْضَائِكَ من العَدُوِّ .
فقال سمعاً وطاعةً يا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ .

« كُنْتُ مُخْتَفِئاً في الحَيْرَةِ^(٢) بِمَنْزِلٍ في شَارِعِ الصَّحراءِ ،

(١) من بجاني الأدب ج ٣ ص ٢٩٩ .

(٢) مدينة بالقرب من الكوفة .

فبينما كنتُ يوماً على ظهرِ ذلك البيتِ ، إذ بصُرتُ بأعلامِ سُودٍ قد خرجت من الكوفة تُريدُ الحيرةَ - فتخيلتُ أنها تُريدُنِي . فخرجتُ مُسرِعاً من الدار متنكراً ، حتى أتيتُ الكوفةَ وأنا لا أعرفُ أحداً أخفى عنده . فبقيتُ في حيرةٍ . فنظرتُ وإذا أنا ببابٍ كبيرٍ واسعٍ الرَّحبةِ ^(١) ، فدخلتُ فيه . فرأيت رجلاً وسياً ^(٢) حسنَ الهيئةِ ، مُقبِلاً على الرَّحبةِ ومعه أتباعه ، فنزلَ عن فرسه وألقت ، فرأني ، فقال لي : من أنت ؟ وما حاجتك ؟

فقلتُ : رجلٌ حائفٌ على دمي ، وجاء يستجيرُ في منزلك . فأدخلني منزله ، وصيرني في حُجرةٍ تلي حرمته . وكنت عنده في كلِّ ما أُحِبُّه من طعامٍ وشرابٍ ولباسٍ . وهو لا يسألني عن شيءٍ من حالي ، إلا أنه كان يركب في كلِّ يومٍ من الفجرِ وَيَمْضِي ولا يرجعُ إلا قريباَ الظهرِ .

فقلتُ له يوماً : أراك تُدمنُ ^(٣) الركوبَ كلِّ يومٍ ، فقيمَ ذلك ؟ فقال لي : « إنَّ إبراهيمَ بنَ سُلَيْمانَ بنِ عبدِ الملكِ كان قد قَتَلَ أبِي ظُلماً ، وقد بلغني أنه مُخْتَفٍ بِالْحِيرَةِ ، فأنا أطلبُه يوماً لئلي أجده وأدرك منه ثأري » .

(١) الساحة والفناء . (٢) حسن الوجه .

(٣) تديم وتداوم ، وتواظب وتلازم .

فلما سمعتُ ذلكَ يا أميرَ المؤمنين كُثِرَ تعجُّبي وقلتُ في نفسي :
 إِنَّ القَدَرَ ساقنى إلى حَتْفِي^(١) في منزلٍ مَنْ يَطْلُبُ دُمِي . فواللهِ
 يا أميرَ المؤمنين إني كرهتُ الحَيَاةَ . ثم إني سألتُ الرجلَ عن أسمه
 وأسمِ أبيه ، فأخبرني . فعلمتُ أن كلامه حقٌّ ، وأنى أنا الذى قَتَلَ أباه ؛
 فقلتُ له : يا هذا إنه قد وجبَ عَلَى حَقِّكَ ، ولمرُوفِكَ لى يَلْزَمُنِي أن
 أدَّلكَ على خَصَمِكَ الذى قَتَلَ أبَاكَ ، وأقربَ عليكِ الخُطْوَةَ . فقال :
 وما ذاك ؟ فقلتُ له : أنا إبراهيمُ بنُ عبدِ الملكِ ، وأنا قاتلُ أبيك ،
 فخذُ بشارك .

فتبسَّم منى وقال : هل أضجركِ الاختفاءُ والبعدُ عن منزلكِ
 وأهلكِ فأحييتِ الموتَ ؟

فقلتُ : لا واللهِ ، ولكننى أقولُ لكِ الحقَّ ، وإني قتلتهُ في يومٍ
 كذا ، من أجلِ كذا . فلما سمعَ الرجلُ كلامى هذا وعلمَ صِدْقِي تغيَّرَ لونه ،
 وأحمرَّتْ عيناه ، ثم فُكِّرَ طويلاً ، والتفتَ إلىَّ وقال : أما أنتِ فسوفَ
 تلقى أبى عندَ حاكمٍ عادلٍ فيأخذُ بشاره منك ، وأما أنا فلا أخفِرُ^(٢) ذِمَّتِي ،
 ولكننى أريدُ أن تخرجَ عَنِّي ، فإنى لَسْتُ آمِنُ عليكِ من نفسى . ثم إنه
 أعطانى ألفَ دينار : فأبيتُ أخذَها وأنصرفتُ عنه . فهذا يا أميرَ
 المؤمنين أكرمُ رجلٍ رأيتهُ وسمعتُ عنه في عُمرى بعد أميرِ المؤمنين .

(١) هلاكى .

(٢) أعتز عهدى وأغدرك .

وقيل : قُتِلَ لِلْأَخْفِ بْنِ قَيْسٍ وَلَدٌ ، وَكَانَ الَّذِي قَتَلَهُ أَخًا لِلْأَخْفِ ،
فجئ به مكتوفاً لِيَقْيِدَهُ ؛ فَلَمَّا رَأَاهُ الْأَخْفُ بَكَى ، وَأَنْشَدَ :
أَقُولُ لِلنَّفْسِ تَأْسَاءً ^(١) وَتَمَزِيَةً * إِحْدَى يَدَيَّ أَصَابَتْنِي وَلَمْ تُرِدْ
كِلَاهِمَا خَلْفٌ مِنْ فَقْدِ صَاحِبِهِ * هَذَا أَخِي حِينَ أَدْعُوهُ وَذَا وَلَدِي
وِيرَى الْفِيلَسُوفُ الْإِنْكَلِيزِيُّ « هِرْبِرْت سِينْسِر » ^(٢) أَنَّ ضَبْطَ
النَّفْسِ أَسَاسُ الْكِبَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَأَنَّهُ الْفَرْضُ مِنَ التَّرِيَةِ .
وَقَدْ ذَكَرَ الْمُؤَرِّخُونَ أَنَّ « جُورْجَ وَاشِنْغْطُونَ » ^(٣) مُحَرَّرَ أَمْرِيكَا
كَانَ مِثْلًا فِي الْقُدْرَةِ عَلَى كِتْمَانِ الشُّعُورِ ؛ إِذْ لَمْ يَنْغَضِبْ فِي حَيَاتِهِ إِلَّا
مَرَّةً وَاحِدَةً .

ثَانِيًا : هُنَاكَ مَظْهَرٌ لِلشَّجَاعَةِ يَتَبَيَّنُ فِي التَّغَلُّبِ عَلَى الصَّعَابِ الَّتِي تَعْتَرِضُ
الْإِنْسَانَ فِي الْحَيَاةِ ، وَإِصْلَاحِ الْأَخْطَاءِ الَّتِي تَعْرِثُ بِنَا ، سِوَاهَا أَمَّا كَانَتْ هَذِهِ
الْأَخْطَاءُ مَنْسُوبَةً إِلَيْنَا أَمْ مَنْسُوبَةً إِلَى غَيْرِنَا . وَهُنَاكَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَصَابِ
الَّتِي يُمْكِنُ التَّخَلُّصُ مِنْهَا بِقَلِيلٍ مِنَ الشَّجَاعَةِ وَالْحِزْمِ وَالثَّبَاتِ .
وَكَثِيرًا مَا يَكُونُ الْعَبَثُ سَبَبًا فِي الْفَشَلِ ، وَعَدَمِ النِّجَاحِ فِي الْعَمَلِ .
وَكَمَا تَكُونُ الشَّجَاعَةُ فِي الْإِقْدَامِ عَلَى الشَّيْءِ تَكُونُ فِي الْإِحْجَامِ عَنْهُ

(١) تَمَزِيَةٌ وَسَلَوَى .

(٢) كَانَ مِنْ كِبَارِ الْمُرِيَيْنِ مِنَ الْإِنْكَلِيزِ (١٨٣٠ — ١٩٠٣ م) .

(٣) وَلَدَ فِي ٢٢ مِنْ فَبْرَايِرِ سَنَةِ ١٧٢٢ م . وَتَوَفَّى فِي ١٤ مِنْ دَيْسَمْبَرِ سَنَةِ ١٧٩٩ .

عند تحققِ التَّهْلُكَةِ . ولا تقلُّ الشَّجَاعَةُ في الإِجَامِ والتَّريثِ^(١)
حيثُئذٍ عن الشَّجَاعَةِ في الإِفْدَامِ .

ومن كانوا مثلاً للشَّجَاعَةِ وأقتحامِ المخاطرِ بين العربِ سيدُنا
عمرُ بنُ الخطَّابِ (رضي الله عنه) ؛ فقد تَرَبَّى على الشَّهَامَةِ والنَّجْدَةِ^(٢)
والجُرْأَةِ ، وقولِ الحقِّ لا يَرى فيه هَوَادَةً ؛ فعند الهَجْرَةِ إلى المدينةِ
كان الناسُ يَخْرُجُونَ يتَسَلَّلُونَ^(٣) ؛ خِيفَةً أَنْ يَحْجَزَهم أَهْلُومُ . أما هو
فأعلنَ أَنه مُهاجِرٌ ، وقال : من أَرَادَ أَنْ تَشْكَلهُ^(٤) أمه فليلقني وراءَ هذا
الوادي اثم خُرج مُهاجراً فلم يَتَّبِعْهُ أَحَدٌ .

وكذلك خالدُ بنُ الوليدِ ؛ ومن أقواله : لقد لَقِيتُ كذا وكذا
زحفاً ، وما في جَسَدِي موضعُ شبرٍ إلا وفيه طعنةٌ أو رَمِيَةٌ ، ثم هانداً
أُموْتُ على فراشي حَتَفَ أنفِي . فلا نامتُ أَعْيُنُ الجبناءِ .

قال جريرٌ :

قلْ للجِبانِ إذا تَأَخَّرَ سِرْجُهُ * هل أنتَ من شَرَكِ المِنيَّةِ^(٥) ناجٍ
وتقول العربُ : الشَّجَاعَةُ وقَايَةُ ، والجبنُ مَقْتَلَةٌ . وقال أبو بكرٍ
(رضي الله عنه) لخالدِ بنِ الوليدِ : اِحْرِصْ على الموتِ تُوَهِّبْ لك الحياةُ .

(١) الإبطاء والإمهال . (٢) القتال والشجاعة . (٣) يخرجون .

(٤) تقطعه . (٥) الموت .

وفي الحكاية الآتية تبدو الجرأة والإقدام :

قال ابن الجوزي^(١) : كان بالكوفة رجل حسن يعرف بالأدرع شديد القلب جداً . وكان في خرائب الكوفة شيء يظهر للمُجتازين ليلاً ، فيه نارٌ ، يطول تارة ويقصر أخرى ، يقولون : هو غول يفزع منها الناس .

فخرج الأدرع ليلة راكباً في بعض شأنه ، قال لي الأدرع : فاعترض لي السواد والنار ؛ فطال الشخص في وجهي ، فأنكرته ، ثم رجعت إلى نفسي . فقلت أما شيطانٌ وغولٌ فهو^(٢) ، وليس إلا إنساناً . فذكرت الله تعالى ، وصليت على نبيه صلى الله عليه وسلم . وجمعت عنان الفرس ، وفرعته بالمقرعة ، وطرحته على الشخص ، فازداد طوله ، وعظم الضوء فيه ، فنفر الفرس ، فقرعته ، فطرح نفسه عليه ، فقصر الشخص حتى عاد على قدر قامته . فلما كاد الفرس يخالطه ولّى هارباً . فحركت الفرس خلفه ، فأتته إلى خربة فدخلها . فدخلت خلفه ، فإذا هو قد نزل مرداباً فيها . فنزلت عن فرسي وشددته ونزلت ، وسيفي مجرّد .

(١) هو صاحب كتاب « الأذكياء » ، وهو الزاهد المحدث للمؤرخ الشاعر أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي عين أعيان بغداد في القرن السادس الهجري ، توفي سنة ٥٩٧ هـ .
(٢) الهوس : طرف من الجنون .

فحينَ حصلتُ في السُّردابِ أحسستُ حَرَكَةَ الشخصِ يُريدُ
الفرارَ مِنِّي ، فطرحْتُ نفسي عليه . فوقعتُ يدي على بَدَنِ إنسانٍ ،
فقبضتُ عليه فأخرجتهُ ؛ فإذا هي جاريةٌ سوداءُ .
فقلتُ : أيُّ شيءٍ أنتِ ؟ وإلا قتلُكَ الساعةُ .
قالت : قبلَ كلِّ شيءٍ أنتِ إنسيُّ أمِ جنيُّ ؟ فما رأيتُ أقوى
قلبا منك قطُّ .

فقلتُ : أيُّ شيءٍ أنتِ ؟
قالت : أمةٌ لقومٍ بالكوفةِ أبقتُ^(١) مِنْهُمْ مُنْذُ سَنِينَ ، فتفرَّبتُ
في هذه الخربة ، فولدتُ لي الفِكْرُ أن أحتالَ بهذه الحيلة ، وأوهمَ النَّاسَ
أنِّي غولٌ حتى لا يَقْرُبَ الموضعَ أحدٌ ، وأتعرَّضَ ليلًا للأحداثِ ،
وربما رمى أحدهم مِندِيلًا أو زادًا فأخذه ، فأيممه نهارًا ، وأقتاتُ
به أيامًا .

قلتُ : فما هذا الشخصُ الذي يطولُ ويقصرُ ؟ والنارُ التي تظهرُ ؟
قالت : كِسَاءٌ مِثْلُ طَوِيلٍ أَسْوَدُ (وأخرجته من السُّردابِ) ،
وقصباتُ هنديةٌ أدخلُ بِمَضَاهَا في بعضِ الكِسَاءِ وأرفعه فيطولُ ؛
فإذا أردتِ تقصيره دفعتُ من الأنايبِ واحدةً في واحدةٍ فيقصُرُ .

والنارُ فتيلةٌ شمعٌ معي في يدي ، لا أُخْرِجُ إِلَّا رَأْسَهَا مَقْدَارَ مَا يَضِيءُ
 الْكِسَاءَ (وَأَرْتَنِي الشَّمْعَةَ وَالْكِسَاءَ وَالْأَنَابِيْبَ) ، ثم قالت : قد جاوزت
 هذه الحيلة نَيْفًا وَعَشْرِينَ سَنَةً ، واعترضتُ فُرْسَانَ الْكَوْفَةِ وَشُجْعَانَهَا
 وَكُلَّ أَحَدٍ ، فَمَا أَقْدَمَ أَحَدٌ عَلَيَّ غَيْرُكَ ، وَلَا رَأَيْتُ أَشَدَّ قَلْبًا مِنْكَ .
 فَعَمَلَهَا الْأَدْرَعُ إِلَى الْكَوْفَةِ ، فَرَدَّهَا إِلَى مَوَالِيهَا . فَكَانَ يُحَدِّثُ
 بِهَذَا الْحَدِيثِ ، وَلَمْ يَرَّ بَعْدَ ذَلِكَ أَرُغُولَ ، فَعَلِمَ أَنَّ الْحَدِيثَ حَقٌّ .
 وَمِنْ أَشْهَرِ الْإِقْدَامِ مِنَ الْأَوْرَبِيِّينَ (نَابَلْيُونُ بُونَابَرْت) إِمْبَرَاطُورُ
 فَرَنْسَا ؛ فَقَدْ كَانَ قَائِدًا فَرِيدًا ، وَسِيَاسِيًّا مُحْتَكَاً ، وَكَانَ فِي حَرْبٍ مَعَ
 مَعْظَمِ الْمَمَالِكِ الْمُحِيطَةِ بِفَرَنْسَا . لَمْ يَرْضَ (نَابَلْيُونُ) لِنَفْسِهِ أَنْ يَخْضَعَ حَتَّى
 لِلْمَوَارِضِ الطَّبِيعِيَّةِ الَّتِي لَا قِبَلَ لِلْإِنْسَانِ بِمُقَاوَمَتِهَا وَمُتَغَالِبَتِهَا ؛ فَقَدْ قِيلَ
 لَهُ لِمَا أَرَادَ أَنْ يَكْتَسِحَ إِيطَالِيَا بِجَبْشِهِ الْجَرَّارِ : « إِنْ جِبَالَ الْأَلْبِ
 الشَّاهِقَةِ تَمَوَّقَتْكَ عَنِ الْمَسِيرِ ، وَتَحُولُ دُونَ أَمَانِكَ » . فَأَرْسَلَتْ فِئَةٌ مِنْ
 الْكَشَافَةِ لِرُؤْيَةِ طُرُقِ فِي الْجِبَالِ . فَلَمَّا مَادُّوا سَأَلَهُمْ قَائِلًا : هَلْ يُمْكِنُ
 اجْتِيَازُهَا ؟ فَهَزُّوْا رُءُوسَهُمْ ، فَأَجَابَ أَحَدُهُمْ : يُمْكِنُ وَلَسْكَنَ . . . فَقَالَ
 نَابَلْيُونُ : لَا أَرِيدُ أَنْ أَسْمَعَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ . إِلَى الْأَمَامِ ! إِلَى إِيطَالِيَا !
 يَجِبُ أَنْ تُنْحَى هَذِهِ الْجِبَالُ مِنَ الْأَرْضِ . فَضَحِكَ النَّاسُ وَاسْتَعْرَبُوا
 كَيْفَ يَمْتَرُ جَيْشٌ مُؤَلَّفٌ مِنْ سِتِينَ أَلْفَ نَفْسٍ جِبَالًا لَا طَرِيقَ فِيهَا .

ولكن نابلونَ أَتَظَرُ حَتَّى رَتَبُوا كُلَّ شَيْءٍ فَضَرَبَتِ الْأَبْوَاقُ ، وَأَمَرَهُمْ
بِالْمَسِيرِ . وَحِينَئِذٍ تَحْرُكُ الْجِيَشُ ، وَبِذَلِكَ غَايَةُ جُحُودِهِ ، وَسَرَّانٍ
مَا صَعِدُوا بِأَمَانٍ فَوْقَ هَذِهِ الْجِبَالِ الشَّامَةِ . وَبَعْدَ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ كَانُوا فِي
سَهْلِ إِيطَالِيَا . فَقَالَ نَابِلُونُ : « إِنِّ الرَّجُلَ الَّذِي صَمَّمْ عَلَى النِّجَاحِ
لَا يَمْتَقِدُ أَنْ فِي الدُّنْيَا مُحَالًا » ؛ وَلَا غَرَابَةً ؛ فَكُلُّ غَايَةٍ قَرِيبَةٍ فِي نَظَرِ
الْمِقْدَامِ ، وَبِمِידَةٍ فِي نَظَرِ الْمُخْجِمِ ، كَمَا قَالَ الْمُسْتَرُ لُوِيْدُ جُورْجِ .

ثالثاً : تَظْهَرُ الشَّجَاعَةُ فِي الْإِجَابَةِ وَفِي إِبْرَارِ الرَّأْيِ :

مِنَ الشَّجَاعَةِ أَنْ يُجِيبَ الْإِنْسَانُ بِكُلِّ أَمَانَةٍ وَإِخْلَاصٍ عَمَّا يُسْأَلُ ،
وَأَنْ يُبْدِيَ رَأْيَهُ بِكُلِّ صِرَاحَةٍ ، وَيُدَافِعَ عَنْهُ مِنْ غَيْرِ تَغْيِيرٍ لِلْحَقَائِقِ ،
وَمِنْ غَيْرِ اضْطِرَارٍ إِلَى الْإِنْكَارِ ، أَوْ ذِكْرِ نَصْفِ الْحَقِيقَةِ خَوْفًا مِنْ أَنْ
يَظْهَرَ بِنَفْسِهِ الْحَقِيقَةُ كَمَا هِيَ . وَإِذَا اعْتَرَفْنَا بِكُلِّ إِخْلَاصٍ بِأَنَّنَا فَعَلْنَا
كَذَا ، وَلَمْ نَسْمَعْ رَوَايَةَ كَذَا ، أَوْ لَمْ نَقْرَأْ كِتَابَ كَذَا ، أَوْ أَنَّنَا لَا نَحِبُّ
فُلَانًا ، فَقَدْ يَنْجَبُ الْمَسْتَمِعُ الْعَادِي ، وَلَكِنَّا لَوْ ذَكَرْنَا السَّبَبَ بِطَلِّ
الْمَجْبُ . وَهَذَا أَفْضَلُ مِنْ تَشْوِيهِ الْحَقَائِقِ بِالتَّغْيِيرِ وَالزُّخْرَفِ ، وَتَضْلِيلِ
النَّاسِ . وَهَنَّاكَ أَمَثَلَةُ شَخْصِيَّةٌ تَدُلُّ عَلَى تَطَفُّلِ السَّائِلِ ، وَتَدْخُلُهُ فِي
شَتَّى غَيْرِهِ ، فَيَقُولُ هَذِهِ الْأَمَثَلَةُ يَجِبُ أَنْ تُحَارَبَ بِرَفْضِ الْإِجَابَةِ عَنْهَا
بِكُلِّ أَدَبٍ ؛ عِقَابًا لِّلَّذَلِكَ الْمُتَطَفِّلِ .

وتبدؤ الشجاعة في ضرار الصدائي^(١)؛ إذ قال له معاوية (رضي الله عنه) : يا ضرارُ صِفْ لي عليًّا .
فقال : أعفني يا أمير المؤمنين .
قال : لتصفه .

فقال : أما إذ أذنت فلا بُدَّ من صفته . كان والله بميد المدى^(٢) شديد القوى ، يقول فضلاً^(٣) ، ويحكمُ عدلاً ، يتفجرُ العلمُ من جوانبه ، وتنطقُ الحكمةُ من نواحيه ، يستوحش^(٤) من الدنيا وزهرتها^(٥) ، ويستأنسُ بالليل وظلمته . كان والله غزير الدِّمعة ، طويل الفكرة ، يُقلبُ كفةً^(٦) ويُخاطبُ نفسه ، يُعجبه من اللباس ما قصر^(٧) ، ومن الطعام ما خشن . وكان فينا كأحدنا ؛ يُحيينا إذا سألناه ، ويُنبئنا إذا استنبأناه . ونحن مع تقريبه إيانا ، وقربه منا لا نكاد نكلمه لهيئته ، ولا نبتدئه لمظمتِه . يُعظمُ أهل الدين ، ويُحبُّ المساكين . لا يطمعُ القوى في باطله^(٨) ، ولا يبتسُّ الضعيف من عدله . وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سُدوله^(٩) ، وغارت^(١٠) نجومه ، وقد مثل^(١١) في حِرا به قابضا على لحيته يتملح^(١٢) تملحُ السليم^(١٣) ،

(١) نسبة إلى صداء سحر من مدحج من الجن . (٢) الغاية . بميد النظر .

(٣) حقاً . (٤) يتعمد . (٥) حشنها .

(٦) يحاسب نفسه ويندم . (٧) لما في ذلك من طهارة الثياب والقصد في المال .

(٨) أي في باطل يجامل به القوى . (٩) جمع سدل كقفل وحمل : الستر .

(١٠) غربت في وقت السحر . (١١) وقف منتصب القلعة .

(١٢) أي لا يكاد يشتر كان به وجماً . (١٣) للهوغ كأنهم تهادوا له بالسلمة .

ويبكي بكاء الحزين ، ويقول : يا دنيا غُرِّى غَيْرِى ! ألى تعرَّضتِ ؟ أم
إلى تشوّفتِ ، هيهاتَ هيهاتَ ، قد باينتُك^(١) ، فلا نالَ رَجعةَ فيها ؛ فعمركِ
قصير ، وخطركِ^(٢) حقير . آه من قلة الزاد^(٣) ، وبُعدِ السفر ، ووحشة
الطريق .

فبكى معاويةُ حتى أخضَلَت^(٤) دموعُه لحيتَه . وقال : رحمَ الله
أبا الحسن ؛ فلقد كان كذلك . فكيف حُزنُك عليه يا ضِرارُ ؟ قال :
حُزنُ من دُبحَ واحدُها في حجرها ؟

وفي القِصةِ التاريخيةِ الآتيةِ يبدو حلمُ معاويةَ ، وشجاعةُ الزرقاء .
قيل : إنه لما ولى معاويةُ الخلافةَ وأنظمتْ إليه الأمورُ ، وأمتلأتْ
منه الصدورُ ، وأذعنَ لأمره الجمهورُ ، وساعده الله في مُرادِه ، استحضَرَ
ليلةَ خواصِّ أصحابِه وذا كرمِ وقائعِ أيامِ صِغَرِه . ومن كان يتولَّى
كِبَرَ الكَرِيهَةِ من المروفين . فأنهمكوا في القولِ الصحيحِ والمريضِ ،
وآل حديثهم إلى من كان يجتهدُ في إيقادِ نارِ الحربِ عليهم بزيادةِ
التحريضِ . فقالوا : امرأةٌ من أهلِ الكوفةِ تُسَمَّى الزرقاءُ بنتُ عَدِيٍّ ،
كانت تتعمدُ الوقوفَ بين الصفوفِ ، وترفعُ صوتَها صارخةً : يا أصحابَ
عليٍّ ، تُسمِعهم كلامًا كالصَّوَارِمِ ؛ مُسْتَحِثَّةٌ لهم بقولِ لو سمِعَ الجبانُ

(١) قلقتك .

(٢) طلقك .

(٣) بلد .

(٤) أى الزاد للآخرة .

لِقَاتِلَ، وَالْمَذْبِرُ لِأَقْبَلَ، وَالْمَسَالِمُ لِحَارِبَ، وَالْفَارُّ لَكُرٍّ، وَالْمَنْزُولُ لِمَسْتَقَرٍّ.

فَقَالَ لَهُمْ مَعَاوِيَةُ : أَيُّكُمْ يَحْفَظُ كَلَامَهَا ؟
فَقَالُوا : كُلُّنَا نَحْفَظُهُ .

قَالَ : فَمَا تَشِيرُونَ عَلَيَّ فِيهَا ؟
قَالُوا : نُشِيرُ بِقَتْلِهَا ؛ فَإِنَّهَا أَهْلٌ لِنَدَاكَ .

فَقَالَ لَهُمْ مَعَاوِيَةُ : بَشَسَ مَا أَشَرْتُمْ بِهِ . وَقُبِحَ مَا قُلْتُمْ . أَيْحَسُنُ
أَنْ يَشْتَهَرَ عَنِّي أَنِّي بَعْدَ مَا ظَفِرْتُ وَقَدَرْتُ قَتْلُ امْرَأَةٍ قَدْ وَفَّتْ
لصاحبها ؟ إِنْ إِيذًا لَلْتِمِّمْ . لَا وَاللَّهِ لَا فَعَلْتُ ذَلِكَ أَبَدًا ..

ثُمَّ دَعَا بِكَاتِبِهِ فَكَتَبَ كِتَابًا إِلَى وَالِيهِ بِالْكُوفَةِ أَنْ : أَنْفِذْ إِلَى الزَّرَقَاءِ
بِنْتِ عَدِيٍّ مَعَ ثَقَرٍ مِنْ عَشِيرَتِهَا ، وَفُرْسَانٍ مِنْ قَوْمِهَا ، وَمَهْذِلُهَا
وَمَطَّاءٍ^(١) لَيْتًا ، وَمَرْكَبًا ذُلُولًا^(٢) .

فَلَمَّا وَرَدَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ رَكِبَ إِلَيْهَا وَقَرَأَهَا عَلَيْهَا . فَقَالَتْ بَعْدَ
قِرَاءَةِ الْكِتَابِ : مَا أَنَا بِزَائِنَةٍ^(٣) عَنْ الطَّاعَةِ . فَعَمَلُهَا فِي هَوْدَجٍ^(٤) ،
وَجَمَلُ غِشَاءِهِ خَزًّا^(٥) مُبَطَّنًا . ثُمَّ أَحْسَنَ صُحْبَتَهَا .

(١) الوطاء : ضد النطاء . (٢) لَيْتًا سَهْلًا . (٣) مَائِلَةٌ .

(٤) مَرْكَبٌ لِنِسَاءٍ . (٥) نَسِيجٌ مِنْ وَرْدٍ .

فلما قَدِمَتْ على معاويةَ قال لها : مرحباً وأهلاً خَيْرَ مُقَدِّمٍ قَدِمَهُ
وافدٌ . كيف حالُك يا خالَةٌ ؟ وكيف رأيتِ مَيرَكَ ؟
قالت : خَيْرَ مَسِيرٍ .

فقال : هلْ تعلمينِ لِمَ بعثتُ إليك ؟
قالت : لا يعلمُ الغيبَ إلا اللهُ سبحانه وتعالى .
قال : ألسْتُ راكبةَ الجَلِ الأَحرَ يومَ صِفِّينَ ، وأنتِ بينَ
الصفوفِ تُوقِدينِ نارَ الحربِ ، وتُحرِّصينِ على القتالِ ؟
قالت : بَلَى !

قال : فما حَمَلَكَ على ذلك ؟
قالت : يا أَميرَ المؤمنينَ ، إنه قد ماتَ الرأسُ ، ومُتِرَ^(١) الذَّنْبُ .
والدهرُ ذو غَيرٍ^(٢) ، ومن تَفَكَّرَ أَبْصَرَ ، والأمرُ يَحدثُ بعدهُ الأمرُ .
فقال : صَدَقْتَ ، فهلْ تعرفينِ كلاميَ ، وتحفظينِ ما قُلْتُ ؟
قالت : لا واللهِ . قال : لِلَّهِ أَبُوكَ ، فلقد سَمِعْتُكَ تَقُولينِ :

« أَيُّهَا النَّاسُ ، إنَّ المِصْبَاحَ لا يُضِيءُ في الشمسِ ، وإنَّ الكواكبَ
لا تُضِيءُ مع القمرِ . وإنَّ البَعلَ لا يَسْبِقُ الفَرَسَ . ولا يُقَطِّعُ الحَديدُ
إلا بالحدِيدِ . ألا من استرشدنا^(٣) أرشدناه . ومن سألنا أخبرناه . إنَّ
الحَقَّ كانَ يَطْلُبُ ضالَّةً فأصابها . فصبراً يامعشرَ المهاجرينَ والأنصارِ .

(٢) قطع . (٣) تنزيهات ونوايب . (٤) طلب منا العناية .

فَكَانَكُمْ وَقَدْ أَنْتُمْ شَمِلُ الشَّتَاتِ^(١) ، وَظَهَرَتْ كَلِمَةُ الْمَدْلِ ، وَغَلَبَ الْحَقُّ بِاطْلَاهُ ، فَإِنَّهُ لَا يَسْتَوِي الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ . أَفَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا ؟ لَا يَسْتَوُونَ . فَالْتَّزَالُ^(٢) ، وَالتَّزَالُ ، وَالصَّبْرُ الصَّبْرُ ! إِلَّا وَإِنْ خِضَابَ النِّسَاءِ الْخِضَابُ ، وَخِضَابَ الرِّجَالِ الدِّمَاءُ . وَالصَّبْرُ خَيْرُ الْأُمُورِ حَاقِبَةً . ائْتُوا الْحَرْبَ غَيْرَ نَاكِبِينَ^(٣) ، فَهَذَا يَوْمٌ لَهُ مَا بَعْدَهُ . .

يَا زُرْقَاءَ أَلَيْسَ هَذَا قَوْلَكَ وَتَحْرِضُكَ ؟

قَالَتْ : لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ .

قَالَ : لَقَدْ شَارَكْتَ عَلِيًّا فِي كُلِّ دَمٍ سَقَّكَ .

فَقَالَتْ : أَحْسَنَ اللَّهُ بِشَارَتِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَدَامَ سَلَامَتَكَ ،

مِثْلَكَ مِنْ يُبَشِّرُ بِخَيْرٍ ، وَيُسَرُّ جَلِيسَهُ .

قَالَ مَعَاوِيَةُ : أَوَقَدْ سَرَّكَ ذَلِكَ ؟

قَالَتْ : نَعَمْ ، وَاللَّهِ لَقَدْ سَرَّنِي قَوْلَكَ ، وَأَنْتَ^(٤) لِي بِتَصَدِيقِهِ ؟

فَقَالَ لَهَا مَعَاوِيَةُ : وَاللَّهِ لَوْ فَاوَأْكُمْ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ أَعْجَبُ إِلَيَّ مِنْ حُبِّكُمْ

لَهُ فِي حَيَاتِهِ . فَاذْ كُرِّي حَوَائِجَكَ تُقْضَ .

فَقَالَتْ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنِّي آلَيْتُ^(٥) عَلَى نَفْسِي أَلَّا أَسْأَلَ أَحَدًا

بَعْدَ عَلِيٍّ حَاجَةً .

(١) رَاجِعِينَ وَمُحِبِّينَ .

(٢) الْحَارِيَّةُ وَالْمُتَارِيَّةُ .

(٣) الْفُرْق .

(٤) أَقْسَمْتُ .

(٥) مِنْ أَيْنَ .

فقال : قد أشارَ عليٌّ بعضُ من عرفك بِقتلكِ .

فقالت : لو لمْ من المَشِير . ولو أطلعته لشاركتَه .

قال كلاً ، بل نفقوا عنك ، ونُحِصنُ إليكِ ونزعاكِ .

فقالت . يا أميرَ المؤمنين ، كرمُ منك . ومثلك من قدرَ فقفا ،
وتجاوزَ^(١) من أساءه ، وأعطى من غيرِ مسألة . فأعطاهَا كُسوةً
ودرامَ ، وأقطعها ضيعةً^(٢) تُغْلُ لها في كل سنةٍ عشرةَ آلافِ
درهم . وأعادها إلى وطنها سالمةً ، وكتب إلى والي الكوفةِ بالوصيةِ
بها وبمشيرتها .

وقد خطبَ الحجاجُ يوماً فأطال . فقال رجلٌ من الحاضرينَ :
« الصلاة » ؛ فإن الوقتَ لا ينتظركُ ، والربُّ لا يعذرُك . فأمرَ بحبسِهِ .
فأتاه قومُهُ وزعموا أَنَّهُ مجنونٌ .

فقال الحجاجُ . إن أقرَّ بالجنونِ خلصتُهُ . فقال الرجلُ :
لا يسوغُ لي أنْ أجحدَ^(٣) نعمةَ الله التي أنعمَ بها عليّ ، وأثبتَ لنفسي
صفةَ الجنونِ التي نزعني الله عنها . فلما رأى صدقه خلَّى سبيلَهُ .

(١) صفح . (٢) أرضاً . (٣) أنكر .

الفصل السادس

هـ - الحكمة

إن شخصية الإنسان لا تكون متينة إلا إذا زانتها الحكمة والعلم والحزم ، ووضع الأشياء في مواضعها ، وقدرها حق قدرها . والرجل الحكيم هو السديد الرأي ، البعيد النظر ، الحسن التقدير ، الذي يعرف الحق فيتمسك به ، ويفعل ما يجب أن يفعل ، ويترك ما ينبغي أن يترك ، ويقول ما يجب أن يقال . يرى الفرصة فيتنهزها ، ويشعر بالطريق المستقيم فيسلكه ، يحسن نتيجة الشيء حتى قبل حدوثها ، ويعامل غيره بما يحب أن يعامل به ، ويحكم على غيره بما يود أن يحكم به عليه ، يحب لأخيه ما يحب لنفسه . وإذا حكم على غيره كان حكمه بعيداً عن الأهواء والأغراض ، تمثل فيه النزاهة والعدالة . كل هذه الصفات نتيجة الحكمة وحسن التقدير . قال جل شأنه : « وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا . » وقال صلى الله عليه وسلم : « الحكمة ضالة المؤمن » .

والحكمة صفة أساسية في تكوين الشخصية السامية تحمِلُ

الإنسان على العمل وفقَّ العقل . وهى خلاصة الأخلاق ، وأساس كل فضيلة ؛ بها يتدبَّر الإنسان عواقب الأمور ، ويميز بين الخير والشر ، والحق والباطل .

قال ابن مسكويه الفيلسوف الإسلامى فى كتابه : « تهذيب الأخلاق » : « الحكمة وسط بين السَّفه والبله » . ويعنى بالسَّفه هنا أستمال القوة الفكرية فيما لا ينبى وكما لا ينبى . ويعنى بالبله تعطيل هذه القوة الفكرية وإهمالها قصداً . أما إذا أُنْتُفَت الحكمة فإن الإنسان يكون وإمن^(١) الرأى ، مضطرب البصيرة ، سيِّ الحظ ، حائر^(٢) الجد ، ضعيف الشخصية ، يعجز عن تقدير الأشياء ، ويفعل ما يجب أن يُترك ، ويُهمل أموراً تجب العناية بها ، ويهتم بأشياء لا قيمة لها . يُحب ما ينبى أن يُكره ، ويكره ما ينبى أن يُحب ، فيُصبح ضحية لوجدانه وأقواله وأفعاله . ويصير مكروهاً لدى من يعرفونه . قيل لرجل من بني عبس : ما أكثر صوابكم . قال : نحن ألف رجلٍ وفينا حازم ، ونحن نطيعه ، فكأننا ألف حازم .

ومن الحكمة أن تجتهد فى إرضاء الناس — وإن كان إرضائهم جميعاً غاية لا تدرك — من غير أن تُضحى ببداً من مبادئك ، أو مظهر

(١) ضعيف . (٢) سيِّ الحظ .

من مظاهر وجولتك ؛ حتى تمتلك قلوبهم . وهذا دليل على وجود الشخصية القوية الجذابة . ومنها أن تكون ذا أناة ^(١) عند القدرة ، وبذا حلم عند الغضب ، وذا سيطرة ^(٢) عند المغالبة . وكثيراً ما تقسّد الحكمة وتُشوّهُ بالفخر ، أو التكبر ، أو الحقد ، أو الغيرة ، أو الفس . فينبغي أن يهذب الإنسان نفسه ، ويترك الفخر جانباً ولا يتكبر ، ولا يحقد على غيره ، ولا يفسّ أحداً أو يضلّه ؛ حتى تكون علاقته بغيره حسنة ، وتكون شخصيته محبوبة لدى من يتصلون به أو يعرفونه .

وليس من الحكمة الغضب في غير غضب ، والكلام في غير تقع ، والمطية في غير موضع ، والثقة بكل أحد ، وعدم معرفة الصديق من العدو . وفي كيلة ودمنة : « ليس من الحكمة أن تصدّق ما ينبغي أن يكذب ، وتكذب ما ينبغي أن يصدق ، وتلتبس تقويم من لا يستقيم ، وتعالج تأذي من لا يئادب ، وتدخل فيما لا ينيك ، وتعمل غير عملك ؛ فإن الذين يعملون غير أعمالهم ليسوا على شيء ؛ كالذي يضع الرماد موضعاً ينبغي أن يضع فيه الرمل ، والرجل الذي يلبس لباس المرأة ، والمرأة التي تلبس لباس الرجل ، والضيف الذي يقول : أنا رب البيت ، والذي يتطرق بين الجماعة بما لا يسأل عنه » .

(١) أناة : صفة من صفت الحكمة . (٢) قوة ومطابقة .

قيل لمتنرة العيسى: أأنت أشجع العرب وأشدّهم بطشا؟ فقال:
لا. ف قيل له: كيف شاع لك هذا الاسم بين الناس؟
فقال إنني أقدم إذا رأيت الإقدام عزمًا، وأحجم إذا رأيت
الإحجام حزمًا، ولا أدخل مدخلا إلا إذا رأيتُ لى منه مخرجا،
وأعمد إلى الضعيف الساقط فأضربه ضربة يطير بها قلب الشجاع،
فأثني عليه فأخذه، والحرب خدعة^(١).

وقد ذكر أعرابي قوما فقال: أدبهم الحكمة، وأحكمهم
التجارب، ولم تفرزم السلامة المنطوية على الهلكة، فأحسنوا
المقال، وشغموه بالفعل^(٢).

قيل لعربي: من أحزم الناس؟ فقال: من أخذ^(٣) رقاب الأمور
بيديه، وجعل العواقب نصب عينيه، ونبذ التهيّب^(٤) دبر^(٥) أذنيه.
وقيل له: ومن أخرج الناس؟ فقال: من ركب الخطار^(٦)، وأعسف^(٧)
المثار، وأسرع في البدار قبل الاقتدار.

(١) يقال خدعه: خلاه وأراد به المكروه من حيث لا يعلم. والحرب خدعة وخدعة
بالضم، والفتح أصح.

(٢) انتهى من الأمالي لأبي علي الفاي ص ٢٣ ج ٢

(٣) الأمالي ج ٢ ص ٢٨١ طبعة بولاق سنة ١٣٢٤ هـ.

(٤) التخوف. (٥) خلف. (٦) الأمور التي لا تؤمن ماقبتها.

(٧) اعتسف: ركب الطريق على غير هداية، والمثار: ما يقع في السقوط،

والحكيم : الحليم طبعته ، والرأي الحسن مسجته ، إن سئل
أجاب ، وإن نطق أصاب ، وإن سمع العلم وعى ^(١) . وأما الأحمق فإن
تكلم بحجل ^(٢) ، وإن حدث أخطأ ، وإن استنزل عن رأيه نزل .

وتتطلب الحكمة قبل الشروع في الفعل :

(١) التروى في الأمور ؛ لأن المجلة كثيراً ما تؤدي إلى الخطأ .
وإذا قلنا بالتروى فإننا لا نقول بالإغراق فيه ؛ لأنه يحول دون النجاح
في كثير من الأعمال ، ويفوت الفرصة .

(٢) وفرة العلم والتجربة فإنها سبيل الحكمة .

(٣) توافر الفطنة ؛ إذ لا سبيل لصحة الفكر بغيرها .

(٤) توافر الثبات وكبح النفس .

ومما يحول دونه الحكم :

(١) المجلة في الفعل .

(٢) الإغراق في التروى .

(٣) قلة التجربة والرفق .

(٤) سقم الفكر أو خطؤه .

(٥) التشبث والجمود .

(١) حفظ . (٢) أسرع .

وتتضمن الحكمة حسن التدبير ، وجودة الذهن ، ومقابلة^(١) الرأي ، وصواب الظن . قال معاوية بن أبي سفيان^(٢) : « إني لا أضع سفي حيث يكفيني سوطي ، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو أن بيني وبين العامة شجرة ما أنقطعت أبداً ، قيل له : وكيف ذلك ؟ قال : كنت إذا جذبوها أرخيتها ، وإذا أرخوها جذبتها . »

وفي هذا القول تتمثل الحكمة والحلم . وقد سأل الإسكندر الأكبر يوماً جماعة من حكمائه ، وكان قد عزم على سفر ، فقال : « أروضوا لي سيلاً من الحكمة أحكم فيه أعمالي ، وأتقن به أشغالي . » فقال كبير الحكماء :

أيها الملك : أعمل الفكر واتخذ وزيراً ، واجعل العقل صاحباً ومُشيراً ، واجتهد أن تكون في ليلك مُنقِظاً ، ولا تشرع^(٣) في أمرٍ يغير مشورة ، وتجنب الميل والمحابة في وقت العدل والإنصاف ؛ فإذا فعلت ذلك جرت الأمور على إشارتك^(٤) ، وتصرفت باختيارك .

(١) اتحاد واشتمال .

(٢) انتهى من نهاية الأربع ج ٦ ، ص ٤٤ طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٦ م .

(٣) تبدأ . (٤) ما أحب ونختار .

الفصل السابع

٦- التفاؤل

من العناصر التي لا تقل أهمية في تكوين الشخصية المدوحة :
التفاؤل والتيسر^(١) والنظر إلى الأشياء بمنظار الفأل الحسن ، ويُعْنِ
الطالع ، لا بمنظار التشاؤم والتطير^(٢) ؛ ذلك المنظار الأسود ، منظار
الشؤم والطيرة ؛ فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ، يحب الفأل ،
ويكره الطيرة . وفي الحديث : « ليس مِنَّا من تطير » . قيل :
لما قدم رسول الله المدينة نزل على رجل من الأنصار ، فصاح
الرجل بعلاميه : يا سالم ويا يسار ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :
« بئس لنا الدار في يسر » . وفي هذا تتمثل روح التفاؤل لدى
الرسول الكامل .

ولا نقصد بالتفاؤل أن نُعْمِضَ أعيننا عن الحقائق ، ونتأجج الأمور ،
بل نقصد أن نمتدّد في تفكيرنا النظر إلى الأشياء بعين الأمل والرحمة ،
لا بعين اليأس والقنوط ، وننظر إليها في نور الأمل ، لا في ظلام اليأس ،
من الناحية المضئنة من الطريق ، لا من الناحية المظلمة الحالكة .

(١) رجاء الخير ، والتبرك .

(٢) يقال تطير من العي وبالعق ، والاسم الطيرة وهو ما يتشاهم به من الفأل الردي .

والتفاضلُ يَرَضَى بِالْمَاضِي خَيْرِهِ وَشَرِّهِ ، وَيُثَقُّ بِالسَّيِّئِ ثُمَّ يُوَدَّى
الْوَاجِبَ وَيَتْرُكُ النَتِيجَةَ لِّلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . وَتُتَبَرَّكُ هَذِهِ الْمَادَّةُ الْعَقْلِيَّةُ
— وَهِيَ عَادَةُ التَّفَاوُلِ — مِنْ الْأُمُورِ الْجَوْهَرِيَّةِ فِي تَقْوِيَةِ الشَّخْصِيَّةِ .
وَكَثِيرًا مَا يَنْشَأُ التَّفَاوُلُ مِنْ نَشَاطِ الشَّخْصِ ، وَقُوَّةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْمُصْبِيَّةِ ،
وَعَنْ نَوْعِ الْأَفْكَارِ الَّتِي يَسْمَحُ لَهَا بِالدُّخُولِ إِلَى الْعَقْلِ . وَإِذَا تَعَوَّدَ
الْإِنْسَانُ أَنْ يُزَوِّدَ نَفْسَهُ بِالْأَفْكَارِ الصَّحِيحَةِ السَّارَةِ فَإِنَّهُ لَا يَتَجَنَّبُ
النَّشَاوَمَ وَالْحَزْنَ فَخَسْبُ ، بَلْ قَدْ يُطِلُّ مِنْ نَوَافِدِ الْعَقْلِ عَلَى النَّاحِيَةِ
السَّارَةِ الْمُضِيئَةِ مِنَ الْحَيَاةِ .

وَيَنْشَأُ النَّشَاوَمُ عَنْ ضَعْفِ النِّشَاطِ وَضَعْفِ الْقُوَّةِ الْمُصْبِيَّةِ ،
وَوَهْنِ^(١) الرِّقَابَةِ الْعَقْلِيَّةِ (Mental Control) فِي الْإِنْسَانِ ؛ فَيَسْمَحُ
لِنَفْسِهِ أَنْ تَسْبَحَ فِي جَوْءٍ مُظْلَمٍ مِنَ الْأَوْهَامِ ، حَتَّى يُصْبِحَ عَقْلُهُ مُتَلَبِّدًا
بِنُيُومٍ لَا حَقِيقَةَ لَهَا ، وَدُخَانٍ لَا أَصْلَ لَهُ ؛ هِيَ غَيُومُ التَّطْيِيرِ ، وَدُخَانُ
النَّشَاوَمِ .

وَلِإِنْ ضَبُطَ النَّفْسَ وَالنَّظَرَ إِلَى النَّاحِيَةِ السَّامِيَّةِ دَائِمًا ، مِمَّا يُزِيلُ
عَنْ أَوَّلِكَ الْمَتَشَاعِينَ ، وَهُؤُلَاءِ الْمُتَطَيِّرِينَ هَذِهِ الْهَمُومَ وَالْأَحْزَانَ الَّتِي
تَسِيطِرُ عَلَى نَفُوسِهِمْ .

وإذا كان التفاؤل مُوقظاً للعقل ، ومَدعاةً للنشاط ، وباعثاً على الإقدام ، ومحزّراً للإنسان ، ومنشّطاً لجميع قواه العقلية ، فالتشاؤم سببٌ في الحمولِ والكسلِ وكثرة الترددِ والفشل ، والشقاء والضعف ، لا في التفكيرِ فحسبُ ، بل في الشخصية كذلك .

فالشخصية الحية القوية ، ينبغي أن تتمسكَ بالتفاؤل ، وتلتزم الناحية السارة ، يقودها الأمل ، ويُحييها الرجاء ، تُفكر في النجاح أكثرَ من الخيبة ، وفي التقدم أكثرَ من التأخير ، وتميل إلى جانب الثقة أكثرَ من الميل إلى جانب التردد ، وتثقُ بما تقول وما تفعل ، ولديها كلُّ علاج ، وهي منبعُ النشاط والقوة .

ومن الحكمة أن ترجِّحَ جانبَ الخيرِ على جانب الشر ، واللينَ على الشدة ، والتعقلَ على الطيش ، والأملَ على اليأس ، والنورَ على الظلام . قال صلى الله عليه وسلم : « إذا رأى أحدُكم الطيرَ ، فقال : اللهم لا طيرَ إلا طيرُك ، ولا خيرَ إلا خيرُك ، ولا إلهَ غيرُك ، لم تضره » . وكان الرسول الكريم يتفاءل ولا يتطير ، ويحب الاسمَ الحسنَ . وقال ^(١) : « ثلاثة لا يَسلَمُ منهم أحد : الطَّيْرَةُ والظنُّ والحسدُ . قيل له : فما المخرجُ منهم يا رسول الله ؟ قال : إذا تطَّيرتَ فلا تَرجِعْ ، وإذا

(١) انتهى من السدة لابن رشيقي ، ج ١ ص ٣٩ ، طبعة سنة ١٩٠٧ للمنجي .

ظَنَنْتَ فَلَا تُحَقِّقْ ، وَإِذَا حَسَدْتَ فَلَا تَبِغْ .

قال الشيباني : لما قَدِمَ قَتِيبَةُ بْنُ مُسْلَمٍ واليًّا على خراسان قام خطيبًا ، فسقطت المنصورة^(١) من يده ، فتطير به أهلُ خراسان ، فقال : « أيها الناسُ ليس كما ظننتم ، ولكنه كما قال الشاعر :

فَأَلْقَتْ عَصَاهَا وَأَسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى * كَمَا قَرَّ عَيْنًا بِالْإِيَابِ الْمَسَافِرُ

وهنا يبدو حضورُ الدهنِ ، وروحُ التفاؤلِ لدى قَتِيبَةَ .

وفي الأدب العربي كثير من النوادر عن التطير والتشاؤم ؛ ولا عجبَ فقد كانت العربُ تتطيرُ من بعض الأقوال والأفعال ، وأصواتِ البُومِ والنربان . قال أبو الشَّيْص :
 وفي نَمَاتٍ^(٢) الغرابِ أغترابٌ * وفي ألبانٍ^(٣) يَنْ^(٤) بَمِيدُ التَّدَانِي

وقال آخر في السَّفرِ جَل :

أَهْدَى إِلَيْهِ سَفَرٌ جَلًّا فَطَيَّرَا * مِنْهُ فَظْلٌ مُفَكِّرًا مُسْتَعْبِرَا
 خَوْفُ الْفِرَاقِ لِأَنْ شَطَرَ^(٥) هِجَاثَهُ * سَفَرٌ وَحَقٌّ لَهُ بَأْسٌ يَطَيِّرَا

ويتنافى التشاؤمُ مع العقل السليم ، ويدل على قِصَرِ النظر ، والوسوسة ، وضعفِ العقيدة ؛ ففي التطير ظنٌّ بمعرفة النيب ، « وما

(١) كالسوط ، أو كالعصا مما يمكن الإنسان بيده فيتوكأ عليه أو يشير به .

(٢) أصوات النربان ، يقال نَب الغراب أي صوت وصاح .

(٣) غصن البان الذي يتوح عليه الغراب . (٤) البين : الفراق .

(٥) شَطَرَ الشيء : تصفه .

يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ . « وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » .
 وكان ابنُ الرومي^(١) كثيرَ الطيرة ، ربما أقام المدة الطويلة
 لا يتصرف ؛ تطيراً بسوء ما يراه ويسمعه ، حتى إن بعض إخوانه من
 الأمراء افتقده^(٢) ، فأعلم بحاله في الطيرة ، فبعث إليه خادماً اسمه إقبال ،
 ليتفاهل به . فلما أخذ أهبطه^(٣) للركوب ، قال للخادم : انصرف إلى
 مولاك ؛ فأنت ناقص ، ومنكوس^(٤) أسمك « لا بقا^(٥) » . وابن الرومي
 هو القائل : القائل لسان الزمان ، والطيرة عنوان الحدّثان^(٦) ، وله فيه
 احتجاجات وشعر كثير .

وعجيبٌ أن آثارَ تلك الروح ، روح التطير والتشاؤم لا تزال
 سائدةً في خرافاتِ الأمم المتدينةِ والتوحشةِ ؛ فالشيءُ تحت السلم ،
 ورقم ١٣ ، والحلّة الخضراء للعروس ، وكسر الآنية ، ورمي القلل القديمة
 وراء المبعضين ؛ كلها تؤدي إلى السوء والشر في نظر المخرفين .
 المتشائمين . وما أبعدَ هذه الترهات^(٧) عن الحقيقة والواقع .

(١) ابن الرومي هو أبو الحسن علي بن العباس المعروف بابن الرومي ، وهو من
 الشعراء الباسيين ، عرف بالهجاء والعتاب في شعره ، وهو مولد بولاني ولد بغداد سنة ٢٢١
 ومات مسوياً سنة ٢٨٣ هـ . (٢) افتقده وتلقاه : طلبه عند رغبته .
 (٣) عدته . (٤) منكوس حروفه .
 (٥) يزيد « لا بقاء » . (٦) حدّثان الدهر : نوبه .
 (٧) الترهات : الطرق الصنار غير الجادة تشبّع عنها الواحدة (ترمة) فارسي مرّب
 ثم استعير في الباطل .

الفصل الثامن

٧ — التواضع وعدم التصنع

العنصر السابع من عناصر الشخصية التواضع وعدم التصنع ؛ وذلك بأن يكون لدى الإنسان استعدادٌ به يقدر نفسه ومركزه تقديرًا يدل على التفكير والحكمة من غير تصنع ، أو تظاهرٍ بما ليس فيه .

فإذا تصنع المرء وادّعى صراحةً أو ضمناً ما ليس فيه ؛ كأن يقدر نفسه فوق قدرها ، ويُعطِيها أكثرَ من حقها ، ويتعظم وما هو بالمعظم ، ويدّعى العلم وما هو بالعالم ، والثروة وما هو بالثرى ، والقوة وما هو بالقوى — إذا ادّعى شيئاً من هذه الأشياء فقد يتضح أمره لدى الناس . ويتبين جهله أو فقره أو ضعفه على عكس ما ادّعى ، فيعلمون كذبه ، فيحتقرونه ويزدرونه ، وينفرون منه ، ويتباعدون عنه ، ويصبح ممقوتاً عند جميعا .

وإن مدح الإنسان نفسه ثقيلٌ لا يُقبل ، وإذا قُبل فإنه يجب أن يؤسّس على حقائق . والأولى أن يترك الإنسان عمله ليدلّ عليه ، ويتحدث عنه ، بدلاً من أن يتحدث هو عن نفسه . وإذا كان المرء

جديراً بالمدح فسرعان ما تظهر حقيقته ، ويقدر الناس كفايته ،
ويَرِنون أعماله ، ويعترفون بشخصيته ومقدرته .

فالتواضع في غير ذلِّه سبيلُ النجاح والرفعة ، والتصنعُ سبيلُ
الفشل والمهانة .

وإننا وإن كنا ضدَّ التصنع والتظاهر ، لا نغنى أن نُنزل أنفسنا
منزلتها ، ونُعدها وحدةً من المجموع ، لها ما له ، وعليها ما عليه ،
ونستحسن أن نترك لغيرنا الحكم لنا أو علينا ، وأن نتحلَّى بالتواضع في
غير ضَعْفٍ أو ضَعَة . فالتواضع أساسٌ للشخصية المحبوبة الجذابة .
وإننا نجتذب غيرنا ، بقدر حبِّ غيرنا لنا .

وإذا كانت الشخصية مظهرًا لقوة النفس ، فهي عدوة الكذب
والتضليل . فليس المهمُّ أن يدعى الإنسانُ كذابًا ، ولكن المهمُّ أن يعملَ
حتى يُثبِتَ لنفسه العظمة إن كان عظيمًا ، والزمانة إن كان زعيمًا .

عن أبي أمامة قال : خرج علينا رسول الله (صلى الله عليه وسلم)
متوكئًا على عصا ، فقمنا له ، فقال : « لا تقوموا كما يقوم الأُحاجمُ
يُعظمُ بعضهم بعضًا » . ودخل عليه رجل فأصابته من هيئته رعدةٌ .
فقال له : « هَوْنٌ عليك فإني لستُ بملك ، إنما أنا ابنُ امرأةٍ من قريش

كانت تأكلُ القديد^(١) . وكان يَمُودُ المساكين ، ويجالسُ الفقراء ،
ويُجيبُ دعوةَ العبدِ ، ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم حينما انتهى
به المجلسُ جلس . وكان يُدْعَى إلى خبز الشعير والإِهالة السِّنْخَة فيجيب .
وأصبح النجاشي يوماً جالساً على الأرض والتأجُّ عليه ، فأعظمت
بَطَارِقَتُهُ ذلك ، وسألوه عن السبب الذي أوجبه . فقال : « وجدت فيما
أنزل الله على المسيح : إذا أنعمتُ على عبدى نعمة فتواضع أتممتها عليه ،
ولم يولد لي هذه الليلة غلامٌ ، فتواضعتُ شكرًا لله » .

وقد كان التواضعُ يمثلُ في سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ؛
فقد قال : أريدُ رجلاً إذا كان في القوم وهو أميرُهم كان كبعضهم ،
وإذا لم يكن أميرهم فكأنه أميرهم . وفي ذات مرة خاطبه رجل بقوله :
« اتقِ الله يا أمير المؤمنين » ، فقال ذلك رجلاً كان حاضراً ، وقال :
أقولُ لأُمير المؤمنين اتقِ الله ؟

فقال له عمر : « دَعَه فليقلها لي . نِعَمَ ما قال . لا خيرَ فيكم إذا لم
تقولوها . ولا خيرَ فينا إذا لم نتقبلها » . وإلى مثل هذا ينتهي الأدبُ
والتواضعُ ، ورقة الجانبِ ، ولطفُ المعاملة .

(١) القديد : اللحم للقديد . (٢) اللحم : الزيت والشحم :

(٣) يقال سنخ الدمن : زخ .

قال أبو تمام :

مُبْدَلٌ فِي الْقَوْمِ وَهُوَ مُبْجَلٌ ^(١) * متواضعٌ فِي الْحَيِّ وَهُوَ مُعْظَمٌ ^(٢)
وقال آخر :

متواضعٌ وَالتُّبْلُ يُحْرَسُ قَدْرَهُ * وَأَخُو التَّوَاضِعِ بِالنَّبَاهَةِ يُنْبَلُ
وكان الرشيدُ يتواضعُ للعلماء ؛ قال أبو معاويةَ الضَّرِيرُ ، وكان
من العلماء :

أَكَلْتُ مَعَ الرَّشِيدِ يَوْمًا ، فَصَبَّ عَلَى يَدَيَّ الْمَاءَ رَجُلٌ ، فَقَالَ لِي :
يَا أَبَا مُعَاوِيَةَ ، أَتَدْرِي مِنْ صَبَّ الْمَاءَ عَلَى يَدِكَ ؟ فَقُلْتُ : لَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .
قَالَ : أَنَا . فَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنْتَ تَقْعَلُ هَذَا إِجْلَالًا لِلْعَلَمِ .
قَالَ : نَعَمْ ^(٣) .

ومما يحكى عن تواضع « لُويس باستور » ^(٤) « العالم الفرنسي » وهو
من أعظم العلماء نفعا للبشرية — فهو من الذين خدّموا العلم ورفقته ،
وعالج الكلبَ والجذرةَ وآفات الكروم والخنزير . مما يحكى عنه أنه
دخل مرة في مؤتمر طبيٍّ دوليٍّ عُقد في سنة ١٨٨١ م . فقام الأطباء ، وحيّوه
بهتاف عال ، فنظر إلى جاريه قائلاً : « أظن هذا الهتاف لأن وليَّ المهدِ

(١) من لا يصبون منه عن الصبغ . (٢) مخترم .

(٣) انتهى من الفخرى .

(٤) Louis Pasteur (ولد سنة ١٨٢٢ ، وتوفى سنة ١٨٩٥ م) .

قد حضر . كان يجب على أن أبكر .

ومن يعدون مثلاً علياً للتواضع ، «المهاتما غاندى الزعيم الهندى» ؛
فقد سئل مرة : لماذا تركب فى الدرجة الثالثة من قطار السكة الحديدية ؟
فقال : « لأننى لا أجد فيها درجة رابعة » .

والتصنع والتظاهر والجمجمة من علامات الضعف ؛ فالرجل
الذى يشعر بنقص فى ناحية يعمل على أن يسد ذلك الفراغ ، ويكمل
ذلك النقص بالأدواء حيناً ، والإعلان أحياناً .

قال المأمون : ما تكبر أحد إلا لنقص وجدّه فى نفسه ، ولا
تطاول إلا لو هن أحسن من نفسه . وأظنك قرأت فى كيلة ودمنة
أن ثعلباً أتى أجمة^(١) فيها طبل معلق على شجرة . وكلما هبّت الريح
على قضبان تلك الشجرة حرّكتها . فضربت الطبل ، فسمع له صوت
عظيم ، فتوجّه الثعلب نحوه لأجل ما سمع من عظيم صوته . فلما أتاه
وجدّه ضحكاً ، فأيقن فى نفسه بكثرة الشحم واللحم . فماله حتى شقه .
فلما رآه أجوف لا شئ فيه قال : لا أدري الملأ أفضل الأشياء أجهرها
صوتاً ، وأعظمها جثّة .

فليس من الحكمة أن يترّ الإنسان بالمظاهر ؛ فقد دخل كثير

(١) الشجر الكبير اللث .

عَزَّةَ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : أَأَنْتِ كَثِيرُ عَزَّةٍ ؟
 قَالَ . نَعَمْ . قَالَ أَنْ تَسْمَعَ بِالْمَعِيدِيِّ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ . قَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ :
 كُلُّهُ عِنْدَ عَمَلِهِ رَحْبٌ ^(١) الْفَنَاءُ ، شَامِخٌ ^(٢) الْبِنَاءُ ، عَالِي السَّنَاءِ ^(٣) . ثُمَّ
 أَنْشَأَ يَقُولُ قَصِيدَةً ، مِنْ أَيْبَاتِهَا :

تَرَى الرَّجُلَ النَّحِيفَ فَتَزْدَرِيهِ ^(٤) * وَفِي أَثْوَابِهِ أَسَدٌ هَصُورٌ ^(٥)
 بُكَاتٌ ^(٦) الطَّيْرِ أَطْوَلُهَا رِقَابًا * وَلَمْ تَطُلِ الْبُزَاةُ وَلَا الصَّقُورُ
 ضِعَافُ الْأَسَدِ كَثْرُهُ أَزْيَرُ ^(٧) * وَأَصْرُهُا ^(٨) اللَّوَاتِي لَا تَزِيرُ ^(٩)
 فَا عِظَمُ الرِّجَالِ لَهُمْ بَزِينٌ * وَلَكِنْ زَيْتُهُمْ كَرَمٌ وَخَيْرٌ
 فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : اللَّهُ دَرَّهُ . مَا أَفْصَحَ لِسَانَهُ ، وَأَضْبَطَ جَنَانَهُ ^(١٠) ،
 وَأَطْوَلَ عِنَانَهُ . وَاللَّهُ إِنِّي لِأَعْلَنُهُ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ .

وَقَدْ اجْتَمَعَ حَامِرٌ ^(١١) بْنُ الظَّرْبِ الْمَدَوَانِيُّ وَمُحَمَّةُ بْنُ رَافِعِ الدَّوْسِيِّ
 عِنْدَ مَلِكٍ مِنْ مَلُوكِ حِمْيَرَ . فَقَالَ : تَسَاءُ لَا حَتَّى أَسْمَعَ مَا تَقُولَانِ . فَقَالَ
 حَامِرٌ لِحَمَّةٍ : مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِالْمَقْتِ ؟

قَالَ : الْفَقِيرُ الْمُخْتَالُ ، وَالضَّعِيفُ الْمُصَوَّلُ ^(١٢) ، وَالْعَبِيءُ الْقَوَالُ ^(١٣) .

- | | | |
|-----------------------------------|-----------------------------------|----------------------|
| (١) واسع . | (٢) عال . | (٣) من الرفعة . |
| (٤) تحقره . | (٥) كاسر . | (٦) طائر أغبر ضئيف . |
| (٧) صوتاً وصياحاً . | (٨) أثوابها . | (٩) تصيح . |
| (١٠) قلبه وعقله . | (١١) وفي رواية عمرو . | |
| (١٢) المصوال : المتدنى على غيره . | (١٣) العبيء : الذي من عنده لكفة . | |
| (١٤) الكثير القول . | | |

ووقف عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ بِيَابِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)
فَقَالَ : أَسْتَأْذِنُ لِي عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَقُولُوا : « هَذَا ابْنُ الْأَخْيَارِ
بِالْبَابِ . » فَأَذِنَ لَهُ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ لَهُ : أَأَنْتَ ابْنُ الْأَخْيَارِ ؟ قَالَ :
نَعَمْ . قَالَ لَهُ : بَلْ أَنْتَ ابْنُ الْأَشْرَارِ ، وَأَمَّا ابْنُ الْأَخْيَارِ فَهُوَ يُوسُفُ بْنُ
يَعْقُوبَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ .

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ حَيَّانَ : الشَّرِيفُ إِذَا تَقَوَّى تَوَاضَعَ ، وَالْوَضِيعُ إِذَا
تَقَوَّى تَكَبَّرَ .

وَقَالَ كَسْرَى : احْذَرُوا صَوْلَةَ الْكَرِيمِ إِذَا جَاعَ ، وَاللَّيْمِ
إِذَا شَبِعَ .

وَقِيلَ مَنْ وَضَعَ نَفْسَهُ دُونَ قَدْرِهِ رَفَعَهُ النَّاسُ فَوْقَ قَدْرِهِ . وَمَنْ
رَفَعَهَا عَنْ حَدِّهِ وَضَعَهُ النَّاسُ دُونَ حَدِّهِ .

وَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : أَفْضَلُ الرِّجَالِ مَنْ تَوَاضَعَ عَنْ رِفْعَةٍ ، وَعَفَا
عَنْ قُدْرَةٍ ، وَأَنْصَبَ عَنْ قُوَّةٍ .

الفصل التاسع

٨ - حسن مظهر الإنسان وقوامه

لمظهر الإنسان أثرٌ في شخصيته ؛ فالرجل الصحيح الجسم ، الحسنُ القامة ، قد لا يحتاج في إظهار شخصيته والتأثير في غيره إلى ما يحتاج إليه الشخص النحيف الجسم ، المشوه الخلقة ؛ فينبغي تجمد الأول طبعياً في معاملته ؛ لأنه لا يشعر بنقص خارجي يريد أن يكمله إذ تجمد الثاني محباً للتظاهر ، متكلفاً في أقواله وأفعاله ، منتهزاً كل وسيلة يستطيع أن يُظهر بها نفوذه ، فيتظاهر بالعلم تارة ، ويفخر بحسبه ونسبه تارة أخرى . وقد يتخذ أحياناً وسائل ثعبانية أو ثعلبية ، ليظهر بها نفسه أمام من يبغى الظهور بينهم ، فيلجأ إلى الوشاية حيناً ، وإلى اللق حيناً آخر . وقد يضطر إلى التجميل في جسمه ولبسه ، أو المداعية في حديثه ؛ كل ذلك ليكمل ما فيه من نقص جسمي .

فإن الإنسان حينما يحس نقصاً من الناحية الجسمية مثلاً ، يراو بعمل على أن يملأ هذا الفراغ ، ويكمل ذلك النقص من الناحية العقلية

أو الخلقية ؛ حتى يُظهرَ شخصيته للملأ .

فسقراط^(١) مثلاً شيخُ الفلاسفةِ من اليونان ، كان أفضسَ الأنفِ ، غليظَ الشفتينِ ، جاحظَ^(٢) العينينِ ، قبيحَ المنظرِ ، ولكنه قد وصلَ بمواهبه العقلية والخلقية الأخرى إلى ذروةِ المجد . ويكفيه فخراً أنه أستاذُ أفلاطون ، وأنه أكبرُ فلاسفةِ اليونان .

والجاحظُ^(٣) كان أديبَ العلماء ، وعالمَ الأدباء ، وما لُقِبَ بهذا اللقب الذي كان مُبَغِّضاً إليه إلا لأنه كان جاحظَ العينين (بارزهما) دميمَ^(٤) الخلقية ، حتى قيل : إن الخليفةَ المتوكلَ سمِعَ بمنزليته من العلم والفهم ، فاستقدمه إليه (بُسرَّ من رأى) ليؤدبَ ولده . فلما رآه استبشعَ منظره ، وصرفه بمشرةِ آلفِ درهم . ولكنه بجانب ذلك كان خفيفَ الروح ، ذكيَّ الفؤاد ، واسعَ الاطلاع . وكان يُمدُّ دائرةَ معارف في الآداب والعلوم واللغة والتاريخ ؛ حتى أصبح لقبه — الذي كان يكرهه — دليلاً على التبخُّر في العلم والأدب ، والفوق في فنون البلاغة والبيان . سئل كيف حالُك يا أبا عثمان ؟ فقال : « حالي أن

(١) ولد بأثينا سنة ٤٦٩ ق . م . وحُكِمَ عليه بالقتل ظمأً سنة ٩٣٧ ق . م .

(٢) جنطت عينه : عظمت مقلمها ونمت .

(٣) ولد بالبصرة سنة ١٦٠ هـ ، وتوفي سنة ٢٥٥ هـ ، وعاش نحو ٩٥ سنة .

(٤) قبيح .

الوزير يتكلم برأى ، وينفذُ أمرى ، ويؤثر^(١) الصَّلاتِ إلى ... »
والتاريخ حافل بكثير من العظماء المشوهة أجسامهم ، السامية
أرواحهم وعقولهم . فلا تَسْتَهِنْ برجل قبيح المنظر ، ولا تنفتر بشخص
حسن المظهر ؛ فقد تجدد في الأول عظمة وبُطُولَة ، وقد تجدد في الثانى
نقصاً أو ضعفًا في أية ناحية من النواحي ، ولا حاجة بنا إلى التطويل .
وكل ما نريد أن نقوله : هو أنه إذا نقصَ الإنسان من جهة حاولَ أن
يكملَ نفسه من جهة أخرى . وإذا حُرِمَ الإنسانُ صفةً من الصفات
وُهِبَ صفةً أخرى تحلُّ محلَّها .

الفصل العاشر

٩ - قوة البيان

إن قوة البيان، وفصاحة اللسان، وحسن المنطق، والقدرة على التأثير في السامع مع راحة العقل، تُكسب الإنسان شخصية قوية، وتجعل له منزلة بين سامعيه؛ ولذلك لما أمر الله تعالى سيدنا موسى (عليه السلام) أن يذهب إلى فرعون، شكاً موسى إلى في القول، وطلب من الله أن يرسل معه أخاه هرون لفصاحته، قائلاً: «وأخي هرون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً»^(١) يُصدّقني يريد فرعون. وإننا لا نريد بالفصاحة الثروة والتشويق، والتوغل في الكلام، كما لا نريد بها أن يزيد كلام الإنسان على عقله، بل نريد حسن التعبير عما في النفس، وقوة التأثير في المستمع، والتكلم من غير تهيب أو تخوف بحيث يكون الكلام حلواً رشيقاً، سهلاً عذباً مؤثراً. أما العي^(٢) والحصر^(٣) واللجاجة^(٤) والتّمتمة^(٥) والفاأاة^(٦) وكثرة

(١) عوناً ومساعداً
(٢) العي وضيق النفس
(٣) التردد في الكلام
(٤) التردد في الكلام
(٥) رد الكلام إلى التاء وللم
(٦) ترديد الكلام كثيراً

التردد في القول ، والجلل في أثناء التكلم فتقلل من تأثير الشخص في سامعيه .

وإن حسن التعبير عما في النفس شرط أساسي لقوة الشخصية ، وهو يتطلب العلم بالشئ الذي نريد التكلم عنه ؛ لأن أفكارنا إذا عرفت كان من السهل التعبير عنها .

وكما يجب أن نعرف ما نريد أن نقول ، وما نريد أن نفعل ، كذلك يجب أن نحسن القول ، ونحسن العمل . وما أجل الكلمة الصائبة في اللحظة المناسبة . وكما ينبغي حسن التكلم والخطاب ، كذلك ينبغي حسن الإصغاء والاستماع للمتكلم . وقد تكون لدينا الأفكار السامية ، ولكننا نحتاج إلى شجاعة في إظهارها حتى ينتفع بها غيرنا . ولقوة البيان أثر كبير في نفس المستمع ؛ فقد تنجى من القتل ؛ قيل :

أَتَى مُصْعَبُ بْنُ الزَّيْرِ^(١) بِأَسْرَى مِنْ أَصْحَابِ الْخِتَارِ ، فَأَمَرَ بِقَتْلِهِمْ
بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَامَ إِلَيْهِ أَسِيرٌ مِنْهُمْ ، فَقَالَ : « أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، مَا أَقْبَحَ بِكَ أَنْ
أَقُومَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى صَوْرَتِكَ هَذِهِ الْحَسَنَةِ ، وَوَجْهِكَ الْمُلِيحَ الَّذِي
يَسْتَضَاءُ بِهِ . فَأَتَعْلَقَ بِكَ وَأَقُولَ : يَا رَبِّ ، سَلْ مُصْعَبًا فِيمَ قَتَلَنِي ؟ »

(١) انتهى من السبعة لابن رشيق ج ١ ، ص ٤٢ طبعة الخانجي سنة ١٩٠٨ .

فاستحيا مُصْعَبٌ ، وأمرَ بإطلاقه .

فقال الأمير : أيها الأمير ، أجمل ما وهبت من حياتي في خَفْضِ
ودعةٍ من العيش .

قال : قد أمرتُ لك ثلاثين ألفَ درهم .

قال : إنني أشهدك أيها الأمير أن شَطَرَ هذا المالِ لعبدِ الله بنِ
قيس الرُّقِيَّاتِ . قال : ولم ذلك ؟
قال : لقوله :

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شَهَابٌ مِنَ اللَّهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ
فَضَحَكَ مُصْعَبٌ . وقال : أقبض ما أمرنا لك به . ولابن قيسٍ
عندنا مثله . فإشعر عبدُ الله بنُ قيسٍ إلا وقد وافاه المال .

وإن الرجلَ الفَصِيحَ تكون الأعناقُ إليه أُمَيْلَ ، والقولُ عنه
أفهم ، والنفوسُ إليه أسرع . وقد ذكر اللهُ لنبيه (صلى الله عليه وسلم)
حالَ قريشٍ في طلاوةِ عباراتهم ، وخلاصةِ ألسنتهم ، وأستمالتهم الأسماعَ
بحسنِ منطقتهم ، فقال : « وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمِعْ لِقَوْلِهِمْ » . وكلما كان
اللسانُ أَيْنَ كَانَ أَحْمَدَ .

قال الجاحظُ في كتابه « البيان والتبيين ^(١) » :

(١) ج ١ ص ٤٢ طبعة « محب الدين الخطيب »

والبيانُ أَسْمٌ لكل شيءٍ كشفَ لك عن قِنَاعٍ^(١) المعنى، وهتك^(٢)
 الحُجُبَ دونَ الضميرِ ، حتى يُفْضِيَ السامعَ إلى حقيقته ، ويهْجُمُ على
 بحصوله^(٣) ، كائنًا ما كان ذلك البيان ، ومن أيِّ جنسٍ كان ذلك الدليل ؛
 لأن مدارَ الأمرِ ، القصد الذي إليه يجري القائلُ والسامعُ : إنما هو
 الفهمُ والإفهامُ ، فبأيِّ شيءٍ بلغتَ الإفهامَ ، وأوضحتَ عن المعنى ، فذلك
 هو البيان في ذلك الموضع .

قيل لـجَمْفَرِ بْنِ يَحْيَى البرمكيِّ : ما البيان ؟
 قال : أن يُحِيطَ لفظُك بِمعناك ، ويكشفَ عن مغزاك ، ويُخرِجَه
 من الشَّرْكَ ، ولا يستعان عليه بالفكرة ، ويكون سليماً من التكلُّفِ ،
 بعيداً من الصنعة ، بريئاً من التعميد ، غنياً عن التأويل .

وذكر سهل بنُ هرون^(٤) جَمْفَرَ بْنَ يَحْيَى فقال :
 قد جَمَعَ في كلامه وبلاغته الهدى^(٥) والتمهل ، والجزالة والحلاوة .
 وكان يُفهمُ إفهاماً يُغنيه عن الإعادة للكلام . . . فإنه لا يتعجَّس ولا
 يتوقف في منطِقته ، ولا يتلجَّجُ ، ولا يتسَلَّلُ ، ولا يترقبُ لفظاً قد
 استدماه من بُعد ، ولا يلتَمِسُ معنى قد عصاه بعد طلبه له .

(١) حجاب ، والمراد خفي . (٢) كشف . (٣) بقبته .
 (٤) كان خطيباً شاعراً توفي سنة ١٧٣ هـ . (٥) الهدى : السرعة .

فمثلُ جعفر بن يحيى يُقالُ إن لديه قوةً بيانٍ .

وقيل : البيانُ بَصَرٌ ، والمعنى عَمَى ، كما أن العلمَ بَصَرٌ ، والجهلَ عَمَى ،
والبيان من نتاج العلم ، والمعنى من نتاج الجهل . قال سهل بن هرون :
العقلُ رائدُ الروح ، والعلمُ رائدُ العقل ، والبيانُ تَرْجُمَانُ العلم . وقيل :
حياةُ المروءة الصدقُ ، وحياةُ الروح المغافُ ، وحياةُ الحلم العلمُ ، وحياةُ
العلم البيانُ .

وقال يونسُ بنُ حبيبٍ : ليس لعمي مروءةٌ ، ولا لمنقوصِ
البيانِ بهاءٌ ، ولو حك يافوخه عنان السماء . وقال ابن التوام : الروح
عمادُ البدن ، والعلمُ عمادُ الروح ، والبيانُ عمادُ العلم .

وقال الجاحظ : وأحسنُ الكلام ما كان قليلاً يُشْنِك عن كثيره ،
ومعناه في ظاهر لفظه ، فإذا كان المعنى شريفاً ، واللفظُ بليغاً ، وكان
صحيحَ الطبع ، بعيداً عن الاستكراه ، ومُنزَّهاً عن الاختلال ، مَصُوناً
عن التكلف — صَنَعَ في القَبِّ صَنِيعَ النَيْثِ في التربةِ الكريمةِ ، ومتى
فصلت الكلمة على هذه الشريطة ، ونفذت من قائلها على هذه الصفة ،
أصبحها الله من التوفيقِ ، ومنحها من التأييد ، ما لا يمنعُ من تعظيمها
به صدور الجبابة ، ولا يذهل عن فهمها عقولُ الجملة .

وقد قال عامرُ بنُ عبد القيس : الكلمة إذا خرجت من القلب
وَقَعَتْ في القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم تُجَاوِزِ الآذان .
وقال الحسنُ (رضى الله عنه) وسمع متكلمًا يعِظُ فلم تقع موعظته
بموضع من قلبه ، ولم يَرِقْ عندها ، فقال له : يا هذا إنَّ بقلبك لشرًّا
أو بقلبي .

وقيل ^(١) : إن أولَ ما عُرِف من تقدم الأحنفِ بنِ قيس أنه وفَدَ
على عمرَ بنِ الخطاب (رضى الله عنه) وكان أحدث القوم سنًا ، وأقبحهم
منظرًا . فتكلم كلُّ رجلٍ من الوفدِ بِمَاجِدِهِ في خاصته ، والأحنفُ
ساكتٌ ، فقال له عمرُ : قلْ يا فتى ؟ فقال :

يا أميرَ المؤمنين ، إن العربَ نزلت بمساكنَ طَيِّبَةٍ ، ذاتِ ثَمَارٍ
وأنهارٍ عذبةٍ ، وأَكِنَّةٍ ظَلِيلَةٍ ، ومواطنٍ فسيحةٍ ، وإنا نزلنا بِسَبِيحَةٍ ^(٢)
نَشَاشَةٍ ^(٣) ، ماؤها ملحٌ ، وأفنيئُها ضيقةٌ . وإنما يأتينا الماءَ العذبُ في
مثلِ حَلْقٍ النعامةِ بالأنزار ، كنا يا أميرَ المؤمنين نحفرُ نهرًا يقدرُ ماؤه ،
حتى تأتِيَ الأُمَّةُ فتُغْرِفَ بِمِجْرَتِهَا وإنائها ، ونوشك أن نهلك .

قال : ثم ماذا ؟

(١) من زهر الآداب ج ٣ ص ٦٠ طبعة مصطفى محمد . (٢) أرض سبخة أى
ذات ملح وثر . (٣) سبخة نشاشة : لا يحف ثراها ، ولا ينبت حرهاها .

قال : تريد في صاعنا^(١) ومُدنا . وتثبت من تلاحق في العطاء من ذريتنا .

قال : ثم ماذا ؟

قال : تخفف عن ضعيفنا ، وتنصف قويَّنا ، وتتعاهد ثغورنا ، وبجهر بمثنا .

قال : ثم ماذا ؟

قال : إلى هنا أتته المطالب ، ووقف الكلام .

قال : أنت رئيسُ وفدِكَ ، وخطيبُ مِصرِكَ ، قُمَ عن موضعِكَ الذي أنت فيه ، فأدناه حتى أقعده إلى جانبِهِ ، ثم سأله عن نَسَبِهِ ، فانتسب له ، فقال أنت سيدُ تميمٍ ، فبقيت له السيادةُ حتى مات . فبحسَنِ البيانِ كان للأحنفِ بنِ قيسٍ منزلةُ ساميةٌ بين الخلفاء والأمراء ، مع أنه كان دميمَ الخَلقة ، أصلع الرأسِ ، متراكمَ الأسنانِ ، مائلَ الذقنِ ، ناتئَ الوجنتين ، ماحقٌ^(٢) العينين . وكانت العيونُ تقضمه^(٣) لدمايته^(٤) ، وقلةِ روائه^(٥) ، ولكنه كان إذا وقف ليتكلم أضحت القبائلُ إليه ، وأثالثت^(٦) عليه ، وخشعت الأبصارُ لكلامه .

(١) الصاع الذي يكال به . (٢) غائر . (٣) تخفزه .
(٤) لقيح منظره ، وصغر جسمه . (٥) حسن شكله .
(٦) اجتمعت . إثالث الناس عليه من كل وجه : اجتمعوا .

وقال الناس : هذا أبو بجر ، هذا خطيبُ بني تميم .

وقيل أمرَ الصَّجَّاجُ صاحبَ حَرَسِهِ أَنْ يطوفَ بالليل ، فن رآه بعد
العشاء سكرانَ ضربَ عُنُقَهُ . فطاف ليلةً من الليالي ، فوجد ثلاثةَ فِتْيَانٍ
يتمايلون وعليهم أماراتُ الشُّكر . فأحاطت بهم الغلمانُ . وقال لهم
صاحبُ الحرسِ : مَنْ أَنْتُمْ حتى خالفتُم أمرَ أميرِ المؤمنين ، وخرجتُم
في مثلِ هذا الوقتِ ؟ فقال أحدهم :

أنا ابنُ من دانتِ الرقابُ له * ما بينَ مخزومها وهاشمِها
تأتيه بالرغمِ ^(١) وهي صاغرةٌ * يأخذُ من مالِها ومن دميها
فأمسكَ عنه وقال : لعلَّه من أقاربِ أميرِ المؤمنين .

ثم قال للآخر : وأنتَ مَنْ تكون ؟ فقال :

أنا ابنُ مَنْ لَا تَنْزِلُ الدَّهْرَ قِدْرُهُ * وإنْ نزلَتْ يوماً فسوف تعودُ
تَرى الناسَ أفواجاً إلى ضوءِ نارِهِ * فمنهم قيامٌ حولَها وقعودُ
فأمسكَ عنه ، وقال : لعلَّه ابنُ أشرفِ العربِ .

ثم قال للآخر : وأنتَ مَنْ تكون ؟ فأُشْدِ على البديهة :

أنا ابنُ مَنْ خاضَ الصُّفوفَ بَعَزِمِهِ * وَقَوَّها بالسَّيْفِ حتى استقامتِ
وَرَكَبَها لَا يَنْفِكُ رِجْلَاهُ مِنْهَا * إذا الخيلُ في يومِ الكَرِيهِ ^(٢) وَلَّتْ

(١) بكره وذلةً واعتياد . . (٢) القعدة في الحرب .

فَأَمْسَكَ عَنْهُ ، وَقَالَ : لَعَلَّهُ ابْنُ أَشْجَعِ الرَّبِّ . وَحَافِظُ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا .
فَلَمَّا كَانَ الصَّبَاحُ رَفَعَ أَمْرَهُمْ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَأَحْضَرَهُمْ ،
وَكشَفَ عَنْ حُلُمِهِمْ ، فَإِذَا الْأَوَّلُ ابْنُ حَجَّامٍ ، وَالثَّانِي ابْنُ فَوَّالٍ ،
وَالثَّلَاثُ ابْنُ حَائِكٍ . فَتَجَبَّبَ مِنْ فَصَاحَتِهِمْ ، وَقَالَ لَجُلَسَائِهِ : « عَلِّمُوا
أَوْلَادَكُمْ الْأَدَبَ ، فَوَاللَّهِ لَوْ لَا فَصَاحَتُهُمْ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَهُمْ » .

وَذَكَرَ أَنَّ الْبَادِيَةَ قَطِطَتْ أَيَّامَ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَوَفَدَ عَلَيْهِ
رُءُوسُ الْقَبَائِلِ . فَجَلَسَ لَهُمْ وَفِيهِمْ صَبِيٌّ ابْنُ أَرْبَعِ عَشْرَةَ سَنَةً يُسَمَّى
دِرْوَاسَ بْنَ حَيِّبٍ ، فِي رَأْسِهِ ذُوَابَةٌ ^(١) ، وَعَلَيْهِ بُرْدَةٌ يَمْنِيَّةٌ ، فَاسْتَبْرَهَ
هِشَامٌ وَقَالَ لِحَاجِبِهِ : « مَا يَشَاءُ أَحَدٌ أَنْ يَصِلَ إِلَيْنَا إِلَّا وَاصِلٌ حَتَّى
الصَّبِيَّانُ » .

فَقَالَ دِرْوَاسٌ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنْ دَخُولِي لَمْ يُحِلَّ بِكَ ، وَلَا
أُتَقَبَّلُكَ ، وَلَكِنَّهُ شَرَفِي . وَإِنْ هُوَ لَا قَدِمُوا الْأَمْرَ فَهَابُوكَ دُونَهُ .
فَأَعْجَبَهُ كَلَامُهُ ، وَقَالَ : « أَذْكَرُ مَا تَشَاءُ ، لَا أُمُّ لَكَ » ^(٢) .

فَقَالَ : « إِنَّا أَصَابْنَا سِنُونَ ثَلَاثَ : فَسَنَةٌ أَكَلَتِ اللَّحْمَ ، وَسَنَةٌ
أَذَابَتِ الشَّحْمَ ، وَسَنَةٌ أَنْقَتِ ^(٣) الْعَظْمَ . وَفِي يَدَيْكُمْ فَضُولُ أَمْوَالٍ ، فَإِنْ

(١) شعر في منبت الناصية من الرأس .

(٢) يوضع هنا موضع للدح . (٣) أخذت .

كانت لله عزَّ وجلَّ فقروها على عباده ، وإن كانت لهم فلا تحبسوها
عنهم ، وإن كانت لكم فتصدقوا بها عليهم ، فإن الله يجزي المتصدقين ،
ولا يُضِيع أجرَ المحسنين . وإن الوالى من الرعية كالروح من الجسد
لا حياة له إلا به . » .

فقال هشام : « ما ترك النلامُ فى واحدةٍ من الثلاثِ عذراً » .
وأمرَ بمائةِ ألفِ دينارٍ فقُرِّقَتْ فى أهلِ الباديةِ . وأمرَ له بمائةِ
ألفِ درهمٍ .

فقال درواسٌ : « أُرْزُدْهَا فى جائزةِ العربِ ، فإلى حاجةٍ فى خاصةِ
نفسى دُونَ عامةِ الناسِ » .

الفصل الحادى عشر

١٠ - الثقة بالنفس والاعتماد عليها

من العناصر الأساسية فى تكوين الشخصية الثقة بالنفس أولاً ، والاعتماد عليها ثانياً . ومتى وجدت الثقة بالنفس فمن السهل الاعتماد عليها فى كل عمل ممكن من الأعمال ، وفى التغلب على مشاق الحياة . والسبب فى كثرة الاعتماد على الناس أن الغريزة الاجتماعية قوية فى الجنس البشرى ، متأصلة فيه ، وأنا اعتدنا التفكير الجمعى لا التفكير الاستقلالى .

فينبى أن نعوّد الأطفال الاعتماد على أنفسهم ، والاستقلال فى تفكيرهم ، من غير أنكال على أحد ؛ كي يستطيعوا فى المستقبل أن يعيشوا مستقلين بأنفسهم .

ولا يراد بذلك أن يمتزل الإنسان العالم ، وينقطع عن الناس ، ويفكر فى نفسه فحسب ، فليس هذا من الإنسانية فى شيء ، بل إنه باعتزاله غيره يفقد كثيراً ، ولا يربح إلا قليلاً . ولكننا نريد تعويد الأطفال الاستقلال الشخصى ، والقدرة على القيام بأعباء الحياة من

غير أنكال على غيرهم في كل شيء؛ حتى يمكنهم أن يقوموا بواجبهم نحو أنفسهم، ونحو المجتمع. وكثيراً ما يحتاج الإنسان إلى معاونته صديقه، ومُساعِدَ رئيسه، ومُعونة خادِمِهِ. فالتعاون ضروري للجماعة التي تربط أفرادها روابط وثيقة من الحب والإخاء.

والاعتماد على النفس يتطلب أن يكون لدينا شيء جوهري يمكن الاعتماد عليه هو الثقة بالنفس، والدقة في العمل، والتحقق منه؛ حتى تكون أحكامنا صائبة، وأمرؤنا نافذة، وأقدامنا ثابتة. أما إذا أتفت الثقة بالنفس أو الدقة في العمل أو التثبت منه، فالاعتماد على النفس حينئذ يكون عبثاً ومن قبيل الأحلام.

والاعتماد على النفس أمر ضروري، يجب أن يُحلَّه المرء من نفسه محلاً رقيقاً في كل عمل يُقدِّم عليه، وأن ينفع بقواه الشخصية، ويشق بقدرته على القيام بما يحتاج إليه، من غير أن يلجأ إلى سواه، أو يعتمد على غيره.

والرجل الواثق بنفسه ثقةً بعيدة عن الفرور والاستبداد، الواثق بقوله وفعله يستطيع أن يقف وحده مُنادياً برأيه، مُبرهنًا على سدادِهِ وصوابِهِ. وليس من يستقل برأيه في أمرٍ من الأمور يكون مُخطئاً دائماً، بل قد يكون مصيباً في رأيه، وقد يسبق في آرائه المجتمع الذي

يميش فيه بعشرات السنين ، كأمثال المصلحين ؛ فإنهم غالباً يكونون في وادٍ ، والمجتمع في وادٍ آخر ، لا يُقدَّر رأيهم إلا بعد مماتهم . وبالمصلحين الذين يتقون بأنفسهم يحيا المجتمع .

ولملك سميت قصة ذلك البحار الجريء (روبنسن كروزو) ، الذي تحطمت سفينته قرب شواطئ أمريكا الجنوبية ، فتعلق بلوح من الخشب ، وجعل يصارع الموت ويمأئله ، حتى استطاع بعد جهد ومشقة أن يصل إلى شاطئ إحدى الجزائر ، التي لم تطأها قدم إنسان قبلة .

نزل الجزيرة ، وأخذ يحوس خلالها ، حتى اهتدى إلى بقعة بها كثير من أشجار الفاكهة ، ويجري عن كثب منها جدول ماء عذب ، فعول على البقاء بقربها ، وأخذ يعمل في جدي ونشاط ، حتى بنى كوخاً جميلاً ، حوله سور من أغصان الأشجار ، التي اقتطعها من غابات الجزيرة ؛ ليحميه من هجمات الوحوش الضارية في أثناء الليل ، وصنع لنفسه مقعداً يجلس عليه ، ونضداً يضع عليه الطعام ، وصحافاً مختلفة الأشكال ، اتخذها من جذوع الأشجار ، كما أعد لنفسه حشيشة ينام عليها ، وصنع مئزلاً ومنسجاً يستر به جسده ، واقتطع من البحارة طائفة من طعامهم على هذه الجزيرة ، التي انتخبها لنفسه في الجزيرة ، وأخذوا

أَعَدَّ لِنَفْسِهِ زَوْقًا كَبِيرًا ؛ كَيْمَا يَرْكَبَهُ وَيَمُودَ بِهِ إِلَى وَطَنِهِ ، بَعْدَ أَنْ
حَاشَ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ زَمَنًا طَوِيلًا بِمُفْرَدِهِ ، أَعَدَّ فِيهِ لِنَفْسِهِ كُلَّ
مَا احتَاجَ إِلَيْهِ .

ذَلِكَ مِثْلٌ مِنْ أُمُثَلِ الاعتمادِ عَلَى النَّفْسِ ، وَلَنْ يَسْتَطِيعَ الْمَرْءُ أَنْ
يَعْمَلَ عَمَلًا رُوبَنَسُنْ كَرُوزُو إِلَّا إِذَا اعتَادَ مِنْذُ الصَّبْرِ الاعتمادَ عَلَى نَفْسِهِ ،
وَقَامَ بِكُلِّ مَا يَسْتَطِيعُ الْقِيَامَ بِهِ ، بِدُونِ أَنْ يَكُونَ كَلًّا عَلَى غَيْرِهِ ،
وَعَيْنًا ثَقِيلًا عَلَى مَنْ يَتَّصِلُ بِهِ .

فَاعْمَلْ عَلَى أَنْ تَخْدُمَ نَفْسَكَ بِنَفْسِكَ ، وَاسْتَعْمِلْ قُورَاكَ فِي تَذْيِيرِ
شُؤْنِكَ ، وَلَا تَلْجَأْ إِلَى غَيْرِكَ مَا دُمْتَ قَادِرًا عَلَى عَمَلِكَ ، وَأَعِدَّ نَفْسَكَ
لِلزُّوْلِ فِي مُعْتَرَكِ الْحَيَاةِ كَيْ تَخْرُجَ إِلَى الْمُجْتَمَعِ رَابِطًا الْجَاشِ ، قَوِيًّا
الْعَزِيمَةَ ، ثَابِتَ الْقَلْبِ ، قَوِيًّا الْإِيمَانَ بِنَفْسِكَ .

وَإِذَا مَدَحْنَا الثِّقَةَ بِالنَّفْسِ فَلَا نَمْدُحُ الْإِفْرَاطَ فِيهَا ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ
عِلَامَةً عَلَى الضَّعْفِ لَا عَلَى الْقُوَّةِ ، كَمَا لَا نَمْدُحُ ضَعْفَ الثِّقَةِ فَإِنَّهُ دَلِيلٌ
عَلَى ضَعْفِ الشَّخْصِيَّةِ .

قَالَ « جُوسْتَا فِ لُوبُون » : « مِنْ وَثِقَ بِنَفْسِهِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى مَدْحِ
النَّاسِ إِيَّاهُ . وَمَنْ طَلَبَ الثَّنَاءَ فَقَدْ دَلَّ عَلَى أُرْتِيَابِهِ فِي قِيَمَةِ نَفْسِهِ » .

الفصل الثاني عشر

١١ - اعتدال المزاج

من العناصر الهامة المؤثرة في الشخصية: المزاجُ . وقد تكلمنا عنه بالتفصيل في الجزء الثالث من كتابنا « في علم النفس » . فارجع إليه إن شئت .

وكلُّ ما نريد أن نقوله هنا بالإيجاز هو أن الناس يختلفون في أمزجتهم ، كما يختلفون في شخصياتهم ؛ فهذا مُتفائلٌ ، وذاك مُتشائمٌ . وهذا سريعُ التأثر ، وذلك بليدٌ لا يكاد يتأثر . وهذا كثيرُ التردد ، وذلك كثيرُ الإقدام . كلُّ له مزاجٌ خاصٌ ، وسلوكٌ يختلف باختلاف ذلك المزاج .

ولكن ما السببُ في اختلاف هذه الأمزجة ؟ وللإجابة عن هذا السؤال يجب أن نذكر رأيَ العلماء قديماً ، والعلماء حديثاً ؛ حتى تتضح لنا الأسباب التي من أجلها اختلفت الأمزجة ، فنقول :

إن العلماء قديماً حاولوا تقسيم الأمزجة إلى أربعة أقسام : دُمويٌّ وصفراويٌّ وبلغميٌّ وسوداويٌّ ، وبنوا هذا التقسيم على السوائل والإفرازات الجسمية^(١) ؛ فالشخصُ الاجتماعيُّ المتفائلُ ، الواثقُ بنفسه ،

الغیورُ على عمله ، الصافي الذهن ، الحاذق الذكيرة ، كانوا يعتبرونه كثير
الدم ، وبعبارة أخرى دُموی المزاج^(١).

والشخصُ العنيدُ ، السريعُ الانفعال ، القويُّ الإرادة ، كانوا
يقولون إن لديه كمية زائدة من الصفراء أو المرّة ، ويدّعون صفراويّ
المزاج^(٢).

والشخصُ الهادئُ الذي يغلبُ عليه الكسلُ ، وتلوحُ عليه البلادةُ ،
الذي لا يبالي ولا يكثرُ كثيراً ، ولا يتأثرُ بسهولة ، كانوا يظنون
أن عنده مقداراً زائداً من البَلغم ، ويسمونه بلغمياً^(٣).

أما الشخصُ الذي تنتابُه الأحزانُ ، وتغلبُ به الوسواسُ ، وتقاسمه
الهمومُ والخاوفُ من غيرِ سبب ، ولأقلِّ سبب — فكانوا يخالون أن
لديه زيادةً في المرّة السوداء أو الطحال ، ويعُدّونه سوداويّاً^(٤).

وقد زاد بعضهم مزاجاً خامساً وهو المزاجُ العصبيُّ الناشئُ عن
وفرة السائلِ العصبيِّ^(٥).

أما المحدّثون من العلماء فيرون أن هذا التعليلَ قديمٌ لا قيمة له من
الوجهة العلمية ؛ لأنه مبنيٌّ على الجهلِ بعلم وظائف الأعضاء ، وعلى نقصِ

Phlegmatic (٣) Choleric (٧) Sanguine (١)

The Nerve fluid (٥) Melancholic (٤)

في المباحث العلمية قديماً . وهم وإن أنكروا هذا التعليل في اختلاف
الأمزجة ، لا ينكرون أختلافها ، ويُسلّمون بتعدد أنواعها ، ويعتقدون
أن هناك أسباباً أخرى لاختلاف الأمزجة كالوراثة والمناخ والبيئة
والغذاء ، والمرض ، وضعف الأعصاب ، كما يعتقدون أن إفرازات الغدد
لها أثر كبير في اختلاف الأمزجة ؛ فزاج الشخص يختلف باختلاف
قوة إفراز الغدد أو ضعفه . فلهذه الإفرازات تأثير كبير في الجسم
والعقل ، وعن الأمور السابقة ينشأ الاختلاف في الأمزجة .

فالزاج في رأى المحدثين يتأثر بالمواد الكيميائية وإفرازات الغدد
المختلفة التي يحمّلها الدم إلى المخ والمضلات ، لا بوفرة الدم ، أو الصفراء
أو البلمر ، أو السوداء كما يقول القدامى من العلماء . ومن هذه الغدد :
١ - الغدتان الخاصتان بالكلى^(١) . ولهما صلة بالانفعالات

والمواطف ، فإذا كان إفرازهما قوياً كان الشخص سهل التأثير ،
سريع الغضب . وإذا كان إفرازهما ضعيفاً كان حليماً بطيء التأثير ،
قليل الغضب .

٢ - والغدد النكفية هي غدد صغيرة أسفل العنق ، ولها صلة
بالذكاء ، فإذا كانت قوية الإفراز كان الشخص ذكياً ، وبالعكس .

وَيَرَى (مَكْدُوجُل) — وهو حُجَّةٌ في علم النفس — أن الضعف العقلي ينشأ عن قلة إفراز الغدد النكفية أو عن عدم وجودها .

٣ — وغدة تفاحة آدم ولها صلة بنشاط الشخص ومثابرتة على العمل . وبالتجربة رأى بعض الأطباء وعلماء وظائف الأعضاء أن للغدد تأثيراً قوياً في الإنسان . وقالوا — ونرجو أن تُثبت التجارب قولهم — إن بالعمليات الجراحية يمكن تنظيم إفراز غدّتي الكليتين ، وتغيير سلوك الشخص وطباعه .

وإذا ثبت أن للغدد تأثيراً كبيراً في ذكاء الشخص ومزاجه ، فينبى التفكير في معالجة الضعف العقلي وحِدّة الطبع من الوجهتين :
الطبيّة والنفسية معاً . ومجمل القول أن الشخصية القوية يجب أن تتحقق فيها العناصر الآتية : —

- (١) الجاذبيّة .
- (٢) النشاط العقلي أو الذكاء .
- (٣) المشاركة الوجدانيّة .
- (٤) الشجاعة .
- (٥) الحكمة .
- (٦) التفاؤل .
- (٧) الاعتدال وعدم التظاهر .
- (٨) حُسن مظهر الإنسان وقوامه .
- (٩) قوّة البيان .
- (١٠) الثقة بالنفس والاعتماد عليها .
- (١١) اعتدال المزاج .

الفصل الثالث عشر

أنواع الشخصية

الشخصية نومان : عملية ، وفكرية ، ولنتكلم عن كُلِّ منهما بالتفصيل فنقول :

(١) الشخصية العملية

كثيراً ما يُسأل الإنسان : أيُّهما أفضل : الأمور النظرية أم العملية ؟ وبمباراة أخرى أيُّهما أفضل : الأفكار أم الأعمال ؟ وجوابنا عن ذلك أننا لا نستطيع التفضيل أو التفرقة بين النظريات والعمليات . فنحن في حاجة إليهما معاً ، وكلاهما متوقف على الآخر ، ومُكَمِّلٌ له ، لا ضِدُّه وتقيضُه كما يظنُّ بعضُ السائلين ؛ فالأفكار أمهاتُ الأعمال ، ومن الممكن اجتماعهما في شيء واحد .

وكما أن للأمور ناحيتين : إحداها نظرية ، والأخرى عملية ، فللشخصية كذلك ناحيتان : نظرية ، وعملية ؛ فالرجل مثلاً قد يكون موضع الإعجاب ؛ لأفكاره أو لأعماله ، ولو أن الأعمال في النهاية نتيجة للأفكار . ومع ذلك فقد تغلب على الإنسان إحدى الناحيتين :

النظرية أو العملية ، تبعاً للميل والمادة ؛ فهذا قد يعيلُ إلى الجهة العملية ، وذلك قد يعيلُ إلى الناحية الخيالية ، فُتُنمى فيه بطريقة التعودِ هذه الناحية أو تلك .

ولاشكَّ في أن الشخصية العملية التي تظهرُ بالعمل والتنفيذ أكثرُ أثراً وظهوراً في الحياة العملية من الشخصية الخيالية البعيدة عن هذه الحياة . والأولى كمثلُ يقومُ بتمثيل دوره عملياً على المسرح أمام الناس ، والثانية كمن يقوم بتمثيل دوره في الخفاء أو وراء الستار ، بعيداً عن الأنظار . فأتزُّ الأولى أكثرُ وضوحاً وظهوراً من أثر الثانية .

وتتمثلُ هذه الشخصية العملية في المصلحين وقادة العمل والمستكشفين الذين نرى آثارهم في أعمالهم التي قاموا بتحقيقها وتنفيذها خدمةً للإنسانية . وتتمثلُ الثانية في الشعراء والفلاسفة الخياليين الذين يقومون بتصوير الأشياء ووصفها ، فيغوصون تارةً في بحار الحقيقة ، ويسبحون طوراً في عالم الخيال ، ولا ينكرُ فضلهم أحد ، ولكن أثرهم في هذا العالم المادّي أقلُّ ظهوراً ؛ ففي اليوم الذي أجتاز فيه بليزيوت (Bleriot) القناة الإنكليزية بطائرته كانت الأفكار كلها ، وأحاديثُ الفخر والإعجاب موجهةً إليه ، لا إلى العالم الذي فكرَ فيها عدة سنواتٍ حتى اخترعها .

ولمّا لا نقصدُ بذلك أن نقللَ من قيمة العلماء والمفكرين أو قادة الفكر ، ولكننا نقصدُ الاعترافَ بأن تأثيرَ رجالِ الأعمالِ أظهرُ من تأثيرِ رجالِ الفكرِ ، وأننا نتأثّرُ بالأعمالِ النبيلةِ أكثرَ من تأثرتنا بالأفكارِ مهما كانت سيّدة . ولا ننكرُ أن الفكرَ والوجدانَ ينتهيان بالعمل .

ومنذ زمنٍ ليس بالبعيد كانت التريّةُ تفكرُ في العلمِ أكثرَ من العملِ ؛ فكان الإنسانُ إذا أُخْتُبِرَ سُئِلَ عن « مقدار ما يعرفه » ، أما اليومَ فقد تبدلت الحال ، وأنعكسَ الأمرُ ، فأصبحت التريّةُ تُعْنَى كلَّ العنايةِ بالعملِ والأعمالِ ، وأصبحت الأسئلةُ : « ماذا فعلَ الإنسان ؟ وماذا يستطيعُ أن يفعل ؟ وما مقدارُ ما يفعل ؟ » .

ولم تكن الجامعاتُ فيما مضى لِتُعْنَى بالجانبِ العمليِّ من الحياة ، ولم تكن لتعملَ على تربيةِ رجالٍ ليعملوا ، بل كانت عنايتها موجهةً إلى تكوينِ رجالٍ مثقّفينَ حبّاً في الثقافة ، معلّمينَ حبّاً في العلمِ ؛ ليكونوا كزينةٍ لها أينما وُجدوا في الأسرةِ أو في المجتمعِ الدينيِّ أو في المجتمعِ الأدبيِّ . وكان الرجلُ الجامعيُّ المثقّفُ لا يُنتظرُ منه أن يعملَ شيئاً بيده ؛ فكان كأداةٍ من أدوات الزينة . وكان المجتمعُ يزدريه ويحتقره إذا حاولَ أن يعملَ عملاً يدويّاً ؛ أما الأعمالُ اليدويّةُ ، وأما الصناعاتُ فكانت خاصةً

بالطبقة الفقيرة التي تُدعى الطبقة العاملة . وكان يُظن خطأً أن هذه الطبقة خلقت لتعمل ، أما الطبقة الأخرى فخلقت لتفكر .

وقد أتقّصت — والله الحمد — تلك الأيام ، وذهب ذلك العهد ، وأصبحت الفكرة السائدة أن التفكير غير مقصور على طبقة من الطبقات ، وأن العمل لا يختص به طائفة دون أخرى ، وصار التعليم عامًا بين الفقراء والأغنياء على السواء ، لا يمتاز به هؤلاء من أولئك ، وجعل وسيلة لإعداد الجميع للقيام بواجبهم العلمي والعمل والأدبي في الحياة . وأصبحت الفرصة — فرصة العمل — سانحة أمام الجميع من غير ما تفرق ؛ فالعلم الآن في هذا العالم المادي لا يصلح في نظر الماديين — وما أكثرهم — لأن يكون غايةً مستقلة ، بل يجب أن يكون وسيلة للعمل .

ولسنا في شكٍ مطلقاً من أن العلم قوة ، لا ، بل أكبر قوة في يد الإنسان . وهو قوة اليوم كما كان قوة بالأمس ، وسيكون قوة إلى الأبد . ولكننا في حاجة إلى العلم الذي يؤدي إلى العمل ، العلم الذي يمكن تنفيذه والانتفاع به عملياً بتحويله إلى عمل ؛ فالعلم بلا عمل لا خير فيه ؛ مثله مثل شجرةٍ بغير ثمر . هذا هو المقياس الذي يُقاس به العلم ، ويحكم به على العلوم اليوم .

ولا عجب ؛ فبعد أن كان العلم يُطلَبُ للعلم ؛ حباً في العلم ذاته ، أصبحنا لا نفكر إلا في الماديات ؛ نَسأل عن مقدار ما يمكن أن يُستفاد به عملياً في الحياة من تعلم هذا العلم ، أو هذه المادة ، وأصبحت العلوم التي لا تؤدي إلى أكل الخبز ، أو الخبز والزبد ، يُنظرُ إليها نظرة تشكك في الإقبال عليها . ويكثر الإقبال على العلم أو المهنة بقدر ما يمكن أن تُدره من المال في أقصر وقت .

هذا هو مقياسُ الإقبال على العلم الآن ، وهذا هو الرأي السائد بين الأثرية من المربين والمتعلمين في الأمم المتمدنية . فالعالم أصبح تجارياً ، والعلم كذلك أصبح يُنظر إليه بنسبة ما يستطيع صاحبه أن يكتسبه بوساطته من وظيفة أو ثروة أو مركز أو نفوذ .

ويكاد هذا المصير المادي يَقْضِي — أو هو قد قَضَى بالفعل — عَلَى العالم الروحي وَعَلَى تعلم العلم حباً في العلم ، والاشتغال بالفن حباً في الفن . وإننا لا نكره ، ولا ننادي بكره المادة أو احتقارها ، ولكن يؤلنا أن تُسيطر المادة على كل شيء ، حتى على أفكارنا وتعليمنا . ولا ننكر أن النجاح في الحياة هو غاية الحياة ، وهو الفوز . ونوجبذا الأمر لو أمكننا أن نتجح النجاح المادي مع المحافظة على الروح العلمية الخالصة ، فنجمع بين عالم المادة وعالم الروح .

فالحياة اليوم نزاع بين القديم والجديد ، بين عالم الروح وعالم المادة ، وهو نزاع لا نهاية له ، ولكنه ليس نزاعاً عدائياً ، بل هو نزاعٌ وُدِّيٌّ تكميليٌّ ، لا غرضَ منه سوى النجاح في الحياة . ولكن ما النجاح الذي نَبغيه ؟ وما الرقُّ الذي نريد الوصول إليه ؟ هو نجاح الشعب ورقه روحياً ومادياً ، قوةً ونفوذاً ، علماً وعملاً ، مبدأً وإنسانيةً .

ولكن هل يمكن الجمع بين الروح والمادة في آنٍ واحد ؟ ولم لا ؟ إن الإنسان يستطيع أن يكون روحياً إلى حدٍّ ما ، ومادياً إلى حدٍّ ما ، بحيث لا تغلبُ الروحُ على المادة ، ولا تُسيطرُ المادةُ على الروح ؛ فيأخذُ من كل منهما نصيبه ، ولا يُعنى بناحية ويهملُ الأخرى .

والنجاح هو الفوزُ بعدَ الجِدِّ والتعب ؛ التمتعُ الجسميُّ والعقليُّ ، سواء أكان ذلك النجاحُ في التأليف أو في نسج القطن وغزله ، أو في بيعه وشراؤه ، أو في صنْع السياراتِ أو الطائراتِ ، أو في كتابة الروايات الخ .

ومن الضرورياتِ الأساسيةِ للشخصيةِ العمليةِ العلمُ بالشئ الذي تُريد القيام به ، والرغبةُ في النجاح فيه . ولا فائدة من العلم والرغبة إذا

لم يُصَحِّبًا بقوة تنفيذية ، معنوية أو حِسِيَّة ، داخلية أو خارجية ، تعمل على التنفيذ .

فكما أن السيارة لا تستطيعُ السيرَ إلا إذا كانت مُعَدَّةً للسيرِ تمامَ الإعداد ، وكان بها المقدارُ الضروريُّ من زيتها ، وكان الطريقُ مُعَبَّدًا صالحًا لسير السيارات ، كذلك الإنسانُ لا يمكنه أن يقومَ بعملٍ عظيمٍ إلا إذا كان هناك علمٌ به ، ورغبةٌ فيه ، وذِكْرٌ وحُسنُ تقدير . ولكن المتصِفِّين بهذه الصفاتِ فقدوا صفةً واحدةً من أهمِّ الصفاتِ الضروريةِ للنجاح ، تلك هي قوةُ العزيمةِ والتنفيذ ، فلم ينجحوا في أعمالهم ؛ لأنهم يميلون إلى كثرةِ النقدِ والتحليلِ ، والتشككِ في كلِّ شيءٍ حتى في أنفسهم ، فيمنعهم ذلك الشكُّ من رؤيةِ فائدةِ الشيء ، فيترددون في الإقدام ، ويرجعون إلى الوراء ، فتضيعُ منهم فرصةُ النجاح . والفرصةُ — إذا أتت مرةً — قد لا تعود مرةً أخرى . فالعزيمةُ الصادقةُ تُمدُّ سرًّا عظيمًا من أسرارِ الشخصيةِ العمليةِ ، والنجاحُ في العملِ والحياة .

الفصل الرابع عشر

وسائل تقوية الشخصية العملية

هناك وسائل لتقوية الشخصية نذكر منها ما يأتي :

(١) تحديد الغرض ومعرفة الطريق الموصّل :

إن تحديد الغرض في أي عمل من الأعمال مع معرفة السبيل الموصّل إلى ذلك الغرض من أهم الوسائل المشجعة للإنسان على الاجتهاد في العمل ، والسير فيه إلى النهاية من غير تردد ، وبخاصة إذا صحّب العمل إرادة قوية ، وثقة به .

فعرفة الغرض لها أثر كبير في نفوسنا ، سواء أكان ذلك الغرض حادياً أم عظيماً . وإن نظرة واحدة إلى العالم تبين لنا أن لكل إنسان غرضاً يسعى ليدركه . مهما اختلفت هذه الأغراض ، ولكن المهم أن يكون الغرض محدداً سامياً .

كل له غرض يسعى ليدركه * والحرث يحمل إدراك الملاحضة الصياد يقف على شاطئ البحر وعصاه في يده ، ينتظر بصبر كبير ، وملاحظة دائمة ؛ أملاً في أصطياد السمك ، وما فيه من لذة ،

وإرضاء للنفس . وسائقُ السيارةِ يَسِيرُ في طريقه وإن لاقى فيه من مطرٍ أو ثلجٍ أو ضبابٍ أو غبارٍ ، رغبةً في الوصولِ إلى مكانٍ معينٍ . ورُبَّانُ الماخِرةِ العظيمةِ ، في البحرِ الخِصَمُ ، يقود ماخِرَتَه في خطٍّ مُعين نحو ميناءٍ أو موانٍ معيَّنة ، في جهاتٍ خاصة . وهنا يتمثل تحديدُ الغرضِ ومعرفةُ الطريقِ الصالحِ ، والاستيثاقُ منه ، والثقةُ به ، والصبرُ والمثابرةُ ؛ للوصولِ إلى الغرضِ إن لم تحدثْ حوادثٌ أو عوائقٌ غيرُ مُتَظَرَّة . وإذا تمثلتْ هذه الأحوالُ العقليةُ في الشخصيةِ الإنسانيةِ كانت من أعظمِ القُوَى العمليةِ في العالمِ .

فينبغي أن يكونَ للشخصِ غرضٌ مُعينٌ من العملِ يَسعى لإدراكه وتحقيقه بِكُلِّ ما أوتيَ من عزيمةٍ ، وقوةٍ ، ومثابرةٍ ، وثقةٍ بالنفسِ ، حتى ينتفعَ بقواه العقليةِ ، ويقومَ بواجبه في الحياةِ العمليةِ .

قال (وَرْدِ سُوْرْت) ^(١) شاعرُ الطبيعةِ من الإنكليزِ عن الأفراد الذين يسرون في الحياةِ نحوَ أغراضٍ معينة : « إن أجتهدَهم ناشئٌ عن وازعٍ نفسيٍّ ، يُبَيِّرُ الطريقَ أمامهم دائماً ، فيقدِّرون جمالَ الطبيعةِ ، ويعملون بما يعلمون ، ويثابرون على التعلمِ » .

وبَعْدَ الوصولِ إلى الغرضِ الأوَّلِ أو المرحلةِ الأولى من الحياةِ ،

(١) William Wordsworth (١٧٧٠ - ١٨٥٠ م) شاعر إنكليزي يمثل في شعره الإجابة في وصف الطبيعة وحب الإنسانية .

يمكن التفكير في مرحلة أخرى وتحديدُها ، والعملُ للوصول إليها ، وهكذا إلى نهاية الحياة .

قال عُمرُ بنُ عبدِ العزيز : « إنَّ لي نفساً تواقَّةً ، لم تزل تُثَوِّقُ^(١) إلى الإمارة ، فلما نلتُها تأتت إلى الخلافة ، فلما نلتُها تأتت إلى الجنة » .
وقيل : « ذو الهمة إن حُطَّ فنفسه تأبى إلَّا علواً ، كالشعلة من النار يوجهها صاحبُها ، وتأبى إلَّا ارتفاعاً » .

(٢) الرغبة في العمل :

بعد تحديد الغرض من العمل يجب أن تكون هناك رغبة فيه ، وميلٌ إليه ؛ لأنَّ الرغبة :

١ - ترفعُ من شأنِ العملِ الذي تقوم به .

ب - وتؤدي إلى الإقدام والنشاط (وهما القوةُ الطَّبِيعِيَّةُ للشخصية) ، وتكون كوازيجِ نفسٍ أو باعثٍ داخليٍّ ، يستنهضُ هممتنا ، ويستحثُّنا على العناية بالعمل .

ج - وتُمدِّدنا بالقوة التنفيذية ، والإرادة الحَقَّةَ الضرورية للوصول إلى أغراضنا . فالرغبة هي الدافعُ الطَّبِيعِيُّ للإنسان على العمل ، وإن لاقى في سبيل ذلك العملِ كثيراً من المصاعبِ والمتاعبِ .

(١) تأتت نفسه إلى الشيء : اشتاقت إليه .

فالرغبة الحقة هي تلك القوة الروحية التي توحى إلى العقل القيام
بالشيء بقوة لا تعرف الكلال، ولا تقف دونها أية عبة. فإذا وجدت
الرغبة ثم وجدت الإرادة، سهل الطريقُ مهما كان شاقاً. والحاجة
تفتق الحيلة.

فإذا رغبت في معرفة صناعة غزل القطن ونسجه كان
الذهاب إلى معمل الغزل والنسيج أحب الأشياء إليك، وأخذت تشعر
بأنه يجب أن تعرف كل شيء يتعلق بالقطن، وأين يُزرع، وكيف
يُزرع، وكيف تُنقى الآفات السماوية، وما الأحوال الجوية التي تتطلبها،
وكيف يُجنى، وكيف يوضع في الأكياس، وكيف يُخزن، وكيف
يُرسل إلى السفن، وكيف يُحجج، وكيف يُفزل، وكيف يُنسج؟

وإن رغبة (أبراهام لنكولن) في تحرير العبيد يوم أن ذهب مع
بعض العمال إلى الشوق، فوجد جارية تُباع وتُشترى، فتألم لبيع
الإنسانية وشرائها الألم كله، فتمنى أن لو أُعطيت سلطة كي يضرب
على الاسترقاق يده من حديد. فأعطيت السلطة بعد زهاء ثلاثين عاماً
بانتخابه رئيساً لجمهورية الولايات المتحدة بأمريكا - تلك الرغبة جعلت
من أوائل أعماله العمل على تحرير العبيد. وقد أدى ذلك إلى حرب
داخلية، ولكن النصر كان أخيراً في جانب (لنكولن). وبذلك يُعتبر
محرراً للعبيد، مدافعاً عن الإنسانية المظلومة.

وإن الرغبة في الإصلاح الاجتماعى هى التى جعلت (تشارلز ديكنز)^(١) أكبر كاتب ، وأعظم مُصلِح اجتماعىٍ بإنجلترا فى القرن التاسع عشر .

وإن الرغبة فى شراء أسهم قناة السويس بعد التحقق من فائديها هى التى خلدت ذكرى (ديزرائيلى) بين الإنكليز ، وجعلته يعمل بكل ما أوتي من قوة على تنفيذ الشراء ، مع شدة ما لقي من معارضة فى مجلس الأمة ، ومن معارضة مدير مصرف إنجلترا .

وإن الرغبة فى الأعمال (الميكانيكية) هى التى قادت (إديسون Edison) إلى أن يكون أكبر مخترع (ميكانيكى) فى القرن العشرين . وقد بدأ «توماس إديسون»^(٢) حياته كبائع صحف ، ثم تعلم طريق إرسال الإشارات البرقية وتسلّمها . وهو مخترع المصباح الكهربى الذى نستضىء بنوره . قيل إنه أتقن نحو عشرين ألف «جنيه» فى التجارب التى عملها لاختراع هذا المصباح ، وكادت تضع تجارتها بغير ثمرة لولا دأبه وجلده وقوة إرادته وعزمته .

(١) «Charles Dickens» ولد سنة ١٨١٢ م . وتوفى سنة ١٨٧٠ م وله منزلة كبيرة فى عالم الأدب الإنكليزى ، ومعظم رواياته حول الفقراء وبؤسهم ، وحول الإصلاح الاجتماعى . وتدين إنجلترا له بكثير مما فيها اليوم من مدينة وإصلاح .

(٢) انظر كتابنا المطاعة العربية « القسم القصصى » ج ٢ .

وقيل إنه بقي مرة في معمله أربعة أيام بلياليها لا ينام ولا يستريح إلا قليلا يتابع تجاربه، ويراقب نتائجها، ويقول: «الفوز أو الموت». وقد قُدِّرَ له الفوز، وتمَّ له اختراع هذا المصباح، فكسب الشهرة والمجد. وقد أفاد العالم بكثير من المخترعات غير هذا المصباح. والحاكي الذي نتسلى به هو واحد من مخترعاته.

وسيرة «إديسون» تشهد بفضل الدأب، وصدق العزم، وتنطق بما يحققه الجهد من الخير والمجد للأمة والفرد. والأمثلة كثيرة لا حصر لها.

فبغير الرغبة لا يستطيع الإنسان أن يقوم بعمل عظيم في الحياة. فإذا أردت القيام بعمل من الأعمال سواء أكان ذلك العمل دينيا أم اجتماعيا، أدبيا أم علميا، فنيا، أم حرييا. فأوجد الرغبة الصادقة وهي كفيلة بالتنفيذ، والنجاح في ذلك العمل، ما دامت تلك الرغبة مصحوبة بالإرادة القوية، والعزيمة الثابتة.

والرغبة نوعان: مباشرة، وغير مباشرة؛ فالمؤلف الذي يؤلف كتابا، أو يكتب مقالة لصحيفة يومية يجب أن يكون تأليفه وكتابته عن رغبة حقيقية إذا أراد أن يكون لعمله قيمة علمية أو أدبية. فالرغبة في العمل هي الشرط الأساسي للتقدم والفوز في هذا العمل. ولكن

هل الرغبة وحدها تكفي للنجاح ؟ الحق أنها قد لا تكفي ، بل ينبغي أن يكون هناك بعض التشجيع الأدبي أو المادى ؛ لأن المؤلف أو الكاتب قد لا يكتب حباً في الكتابة فحسب ، بل قد يكتب ليعيش ، أو ليحصل على ضروريات الحياة أو كالياتها ، فهو ينتظر تشجيعاً ، ويجب أن يُشجّع بتقدير عمله ، وإعطائه ما يستحق . وبجانب التشجيع يجب أن يتحقق فيمن يريد النجاح — الاستعداد للعمل ، ثم القدرة عليه .

وحينما توجد الرغبة المباشرة الطبيعية في العمل ، ثم تُصحب برغبة أخرى غير مباشرة كالريح المادى أو المركز الأدبي ، فإن النشاط يتضاعف ، والاجتهاد يستمر ، والعمل يزداد حسناً ، ودوامي النجاح تكون أقوى وأشد ؛ لأن الرغبة متوافرة من كلتا الناحيتين : المباشرة وغير المباشرة .

أما المثل الأعلى في أن نعمل حباً في العمل ، ونؤدى الواجب رغبة في أداء الواجب ، ونقوم بالشئ من غير أن نتنظر جزاء ولا شكوراً . ولكن من حيث إن الإنسان إنسان فهو يفكر دائماً في النتيجة ، وفيما يعود عليه من المنفعة والمكافأة على العمل . وهذه المكافأة نوع من التقدير يشجعه على العمل ، ويدفعه إلى أدائه كما ينبغي وكما يجب أن يكون . وكلما كانت المكافأة قيمة زادت الرغبة فيها ،

وَكَثَرَ التَّلَهُّفُ عَلَيْهَا ، وَالْعَمَلُ لِلْوُصُولِ إِلَيْهَا . وَمَعْظَمُ الْأَعْمَالِ الَّتِي نَقُومُ بِهَا يَوْمِيًّا مِنْ قِبَلِ الْأَعْمَالِ الَّتِي تُؤَجَّرُ عَلَيْهَا . وَيَجِبُ أَنْ نَصْرَحَ بِأَنَّهُ لَوْلَا الْأَجُورُ وَالْمَرَاتِبُ الَّتِي يَتَقَاضَاهَا الْعَمَالُ وَالْمُوظَّفُونَ مَا قَامَ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِعَمَلٍ .

وَلَا تَكْفِي الرِّغْبَةُ غَيْرُ الْمُبَاشَرَةِ — كَالرِّغْبَةِ فِي الْأَجْرِ — لِلنَّجَاحِ فِي الْعَمَلِ ، وَالْحَصُولِ عَلَى شَخْصِيَّةٍ قَوِيَّةٍ فِي ذَلِكَ الْعَمَلِ بِالظُّهُورِ وَالتَّبَرُّكِ فِيهِ ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ تُصَحَّبَ بِرِغْبَةٍ طَبِيعِيَّةٍ ، وَمِيلٍ حَقِيقِيٍّ إِلَى الْعَمَلِ ذَاتَهُ ، وَإِلَّا كَانَ مَكْرُوهًا لَدَى النَفْسِ ، تُبْغِضُهُ وَتَنْتَظِرُ بِفَارِغِ الصَّبْرِ التَّخْلُصَ مِنْهُ ، كَالْعَامِلِ الَّذِي لَا يَجِدُ لَذَّةً فِي عَمَلِهِ ، فَيَتَرَقَّبُ أَتَاءَ الْيَوْمِ وَجَمْعَ مَوْعِدِ الْإِنْصِرَافِ بِكُلِّ مَلَلٍ . وَنَحْنُ لَا نَبْنِي ذَلِكَ النُّوعَ مِنَ الْعَمَلِ الْمَمْقُوتِ ، بَلْ نَبْنِي عَمَلًا مُصْحُوبًا بِلَذَّةٍ وَرِغْبَةٍ وَسُرُورٍ ؛ كَيْ نَنْجَحَ فِيهِ وَنُجِيدَهُ ، وَنَجِدَ شَوْقًا إِلَى الْعُودَةِ إِلَيْهِ ، وَنُظْهِرَ فِيهِ فَوْقًا وَمَهَارَةً . وَمَنْ الصَّعْبُ أَنْ نَتَّبِعَ فِي عَمَلٍ يَكُونُ غَيْرَ مَحْبُوبٍ لَدَيْنَا .

(٣) الشُّعُورُ بِالْوَاجِبِ : The sense of duty

مِنْ الْوَسَائِلِ الَّتِي تَسَاعِدُ عَلَى التَّنْفِيزِ ، وَعَلَى تَقْوِيَةِ الشَّخْصِيَّةِ الْعَمَلِيَّةِ تِلْكَ الصِّفَةُ الْحَيَّةُ وَهِيَ الشُّعُورُ بِالْوَاجِبِ ، وَإِجَابَةُ نَدَاءِ الضَّمِيرِ ؛ فَالْإِنْسَانُ حِينَ يَشْعُرُ بِوَازِعِ نَفْسِهِ بِأَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ كَذَا ، أَوْ

بأنه يجب عليه ألا يفعل كذا ، فإن هذا الشعور وحده يَرى إلى مَعزَى خُلُقِي ، وَتَسْتَدْعِي نَشَاطًا عَقْلِيًّا لِفِعْلِ الشَّيْءِ أَوْ مَحَارَبَتِهِ ؛ فَهُوَ بِثَابَةِ مُؤَثِّرٍ دَاخِلِيٍّ يُؤَثِّرُ فِيهِ تَأْثِيرًا قَوِيًّا . وَإِنْ إِجَابَةُ هَذَا الْمُؤَثِّرِ أَوْ الْبَاعِثِ النَّفْسِيِّ خَيْرٌ كَفِيلٌ لِمُسْتَهْضِ الْهِمَّةِ ، وَمُضَاعَفَةِ الْمَزِيَّةِ .

قَالَ (إِمْرَسُون)^(١) : « إِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أُسْتَحْتَّه الْوَاجِبُ عَلَى أَنْ يَقُومَ بِعَمَلٍ مَا ، قَامَ بِهِ » . وَلَيْسَ الشُّعُورُ بِالْوَاجِبِ ، أَوْ إِجَابَةُ الضَّمِيرِ أَوْ الصَّوْتِ الدَّاخِلِيِّ مَقْصُورًا عَلَى طَبَقَةٍ دُونَ أُخْرَى ، وَلَا عَلَى جِيلٍ مِنَ الْأَجْيَالِ ، وَلَا سِنٍّ مِنَ الْأَسْنَانِ .

وَإِذَا تَذَكَّرْنَا أَنَّ الشُّعُورَ بِالْوَاجِبِ يَتَضَمَّنُ التَّهْذِيبَ^(٢) النَّفْسِيَّ ، وَصَبْطَ النَّفْسِ^(٣) — أَمْكَنَّا أَنْ نَدْرِكَ الْعِلَاقَةَ بَيْنَ الشَّخْصِيَّةِ وَبَيْنَ الشُّعُورِ بِالْوَاجِبِ وَإِجَابَةِ الدَّاعِي النَّفْسِيِّ ؛ فَفِي كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ الْحَيَاةِ نَجِدُ أَنْ هَدُوءَ الْبَالِ أَوْ رَاحَةَ الضَّمِيرِ وَالْإِطْمِئْنَانِ ، ثَمَرَةٌ مِنْ ثَمَرَاتِ الطَّاعَةِ ، وَمِرَاعَاةِ الْقَوَانِينِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْفَنِيَّةِ . فَآثَارُ (بَذَرِ سَكِينِ) وَ (كَرْزَلَر) مِنَ الْمَوْسِقِيِّينَ الْمَعَاصِرِينَ ، وَ (تِنِسُون)^(٤) وَ (وَرْدِسْوَرتْ)

(١) Emerson : (١٨٠٣ — ١٨٨٢) م . مِنْ أَكْبَرِ الْكُتَابِ الْأَمْرِيكِيِّينَ الَّذِينَ لَهُمْ أَثَرٌ وَاضِحٌ فِي الْأَدَبِ الْأَمْرِيكِيِّ . وَلَهُ مَوْضُوعَاتٌ قِيَمَةٌ ، وَمَقَالَاتٌ مُنِعَةٌ مَطْبُوعَةٌ ، فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ الْمَهْمَةِ . (٢) Self-discipline . (٣) Self-control . (٤) Tennyson (١٨٠٩ — ١٨٩٢) م .

من شعراء الإنكليز في القرن التاسع عشر ، وروحهم وجاذبيتهم نستطيع أن نَشعرَ بها ونلاحظها في جمال الموسيقى ، وروعة الشعر ، وتأثير الفن ، وملاءمة قوانين العاطفة في الموسيقى والشعر ، والقوانين الفنية والتهذيبية . وبالشعور ، والجِدِّ ، وإرضاء الضمير ، وسلامة التفكير قد أكتسبَ الفَنِّيُّون والأدباء مراكَزَ الروحانية في عالم الموسيقى والأدب ، وفي مملكة النبوغ والمبقرية .

وحينما نبحث في تاريخ العظماء والأدباء والفنيين نجد أن ذوى الشخصيات الخالدة في التاريخ كانوا من ذوى الضمائر الحية الحساسة الذين يُجيبون نداء الضمير ، ويصنعون إلى صوت الله ، فيسيرون بهديه . كانوا يُحسِّسون الواجب فيقومون به ، ويعملون على تنفيذه . وكثيراً ما يكون الضمير والشعور بالواجب سبباً في إنقاذ الإنسان من صُروف الحياة ، ومن السقوط إلى الهاوية ، فلا يكونُ فُرْسةً للنفس الشريرة . فكل إنسانٍ تفتَحُ أمامه السُّبُلُ المختلفة ، ولكن الروح الطاهرة لا تفكر إلا في الطرق الشريفة السامية ، أما الروح الشريرة فلا تنظر إلا إلى الطرق الدنيئة . وبين هذين الطريقين : المستقيم والمعوج ، تسير البقية وهي الأكثرية .

وإن الشعور بالواجب، وحُبُّ الفضيلة والتمسك بالخير تُكسِبُ الشخصَ قُوَّةً وَرَوَعَةً ووقاراً، وتَبْعُثُ في نفسِه الحياةَ، وتقوِّدُه إلى الطريقِ السَّوِيِّ، وتُعوِّدُه الصبرَ والمثابرةَ، وتُقَوِّى الإرادةَ فيه، وهى التربةُ الصالحةُ التى فيها تَنْبُتُ وتُثمرُ الشخصيةُ القويةُ الغنيةُ. قال المرحوم سعد زغلول باشا، وقد كان يمثل العظمةَ الإنسانيةَ والبطولةَ المصريةَ والمثلَ الأعلى للشخصيةَ :

«لأننى رجلٌ قد وَصَعْتُ تحت تصرفِ أمتى عقلى وأختيارى وِيَّائى، فإن أستفادت الأمةُ من عملى فذلك ما يجعلنى سعيداً، وإلا فهو واجبٌ قد أَخَذْتُهُ عَلَى نَفْسِى، فأنا أقومُ به لأريحَ ضميرى» .

(٤) قوة الوازع الدينى :

إننا فى البحثِ عن الشخصية الإنسانية لا يمكننا أن نَنْسى الدينَ وأثرَه، والوازعَ الدينى وقوَّته فى التأثيرِ فى حياةِ الإنسان . فكثيراً ما يُواجِه الإنسانُ بأزماتٍ وشدائدٍ لا قِبَلَ له بها، ولولا الثقةُ بالله والإيمانُ به لجزِعَ وتَمَلَّكَه اليأسُ، وأستولت عليه المَهْمُومُ من كل جانب . ولكن الوازعَ الدينى هو الذى ينتشله من وَهْدَةِ القُنُوطِ، ويبعثُ الأملَ فى نفسه، ويُنْجِيهِ من يأسِه . ويُنِيرُ الطريقَ أمامه بعد أن كان مُظْلِمًا، ويَهْدِيهِ بَعْدَ الضَّلَالِ، ويُسَلِّيه عند الشدائدِ .

فالعنصرُ الوجدانيُّ قوًى في الدين يَسْتَحْتَ الشخصَ على أداء الواجب ، وإرضاء الضمير ، والصبرِ والثابرة ، وكلها من الصفات الهامة في الشخصية القوية ، كما يُوحى إليه فعل الخير ، واجتناب الشر ويدعوه إلى الحركة والعمل في الحياة ، ويُرشدُ عقله ووجدانه ، فيعملُ العملَ وكلهُ أملٌ وثقةٌ بالله . يؤدي واجبَه ويتركُ النتيجةَ لخالقه . لا يفكرُ في الماضي لأنه قد فات ، وينظرُ في الحاضر ، ويتركُ المستقبلَ لله يفعل ما يشاء . وبهذه الوسيلة يهدأ باله ، ويطمئنُّ خاطره ، ويكون سعيداً في الحياة .

ومن السهل أن تعتمد على الدينيين ، الذين يثقون بالله تمام الثقة ، ويفعلون ما يفعلون أبتغاء مرضاة الله . أما الرجل الذي لا دين له فلا ضمير له ، ولا يمكنك أن تطمئن إليه ، أو تثق به .

ومعظمُ المصلحين في العالم كان الوازعُ لهم في الإصلاح دينياً : أمثال الخلفاء الأربعة ، والأئمة الأربعة ، والشيخ محمد عبده من المسلمين ، و (هليل) ^(١) ، والرَبَّانِي (عَقِيْبَة) ^(٢) من الإسرائيليين ؛ وَمَارْتِن لُوتِر ^(٣) ،

(١) هليل : إمام من أئمة الإسرائيليين كالإمام أبي خنيفة لدى المسلمين .

(٢) عقيبة : أحد علماء اليهود للمصلحين ، كان يثق بالله ثقة لاحد لها .

(٣) Martin Luther : (١٤٨٣ — ١٥٤٦) م . زعيم ألماني ومصلح ديني .

وكارليل^(١)، ورَسْكِن^(٢) من المسيحيين . فالدين هو الذي أمدَّهم بثروة في العقل ، وقوة في الروح ، وعظمة في الخلق ، فأثروا في جيلهم ، وفي الأجيال التي أتت من بعدهم .

ولسنا اليوم في حاجة إلى رجال يقومون بالواجب فحسب ، ولكننا في حاجة إلى رجال يمكنهم أيضاً أن يَحْمِلُوا غَيْرَهُمْ على القيام به . قال أحد الفلاسفة : « كُنْ كما شاءَ القدرُ أن تكون ، مسيحياً أو مسلماً أو إسرائيلياً أو بوذياً . ولكن لا تنسَ أَنَّ لَكَ دِيناً تنزعُ إليه . وعقيدة تحرِّصُ عليها ، وواجباً نحو الله يجب أدائه » .

الخلاصة :

وصفوة القول أننا في الشخصية العملية نحتاج إلى ما يأتي :

(١) أن يكون لنا غرضٌ مُعَيَّنٌ في الحياة ، نعمل للوصول إليه ، بحيث نعتدُّ على أنفسنا ، ولا نكونُ صَدَى لأصوات غيرنا ؛ نكرِّر ما يقولون ، ونفعل ما يفعلون . ولا نتأثرُ بهؤلاء المترددين الذين لا يعرفون لهم غرضاً في الحياة ، ولا يَثْبُتون على حال . ولا نَشغل

(١) Carlyle : (١٧٩٥ — ١٨٨١) م : كاتب إنكليزي ، ومصلح اجتماعي ، وفيلسوف ومؤرخ ، وهو أول من اعترف من الإنكليز لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالبطولة والإخلاص ، في كتابه : « الأبطال » . ومن أحسن كتبه : « الثورة الفرنسية » .
(٢) Ruskin (١٨١٩ — ١٩٠٠) م : كاتب إنكليزي ، ومصلح كبير ، ومحسن عظيم ، يحب للطبيعة ، والفن الجميل .

أنفسنا بكثير من المشروعات التي لا يمكن تنفيذها ، بل نكتفي بمشروع واحد ، في وقت واحد ، ثم نعملُ على إجادته وتنفيذه ، ثم الابتداء بغيره وهكذا .

(٢) أن يكونَ لدينا حبٌّ شديد لأعمالنا ، ورغبةٌ كبيرةٌ فيها ، ونعملُ على ألاَّ نفقدَ تلك الرغبةَ في العمل ، وعلى تهذيبها ومضاعفتها .
(٣) الشعور بالواجب والقيامُ به في الحال على أكل وجه ، من غير تأخيرٍ عملٍ اليوم إلى الغد ، وبدون تفكيرٍ فيما سنحصلُ عليه من الجزاء عند القيام بالعمل ، بل نجعلُ الجزاءَ أمراً ثانوياً ، ونؤدّي العملَ لا لشيء ، إلا لأنه يجبُ أن يؤدّى ، ونثقُ بغيرنا كما نثقُ بأنفسنا ، ولا نهزأُ بالمثُل العليا التي يتخذها سوانا .

(٤) قوة الوازع الدينيُّ مع التمسكِ بالدين ، بحيث لا نفكرُ في الماضي ، ونعملُ على الاتفافِ بالحاضر ، ونقومُ بواجبنا كما ينبغي ، ونتركُ المستقبلَ لله . وبهذه الوسيلةِ نستريحُ وتستريحُ نفوسنا ، ونكونُ سعداء في حياتنا .

الفصل الخامس عشر

(ب) الشخصية الفكرية أو الخلقية

بعد أن تكلمنا عن الشخصية العملية نريد أن نتكلم عن الشخصية الفكرية أو الخلقية ؛ فالفكر هو مصدر الجاذبية والقوة الشخصية للإنسان . وأقوال الإنسان وأفعاله تتوقف على ما يفكر فيه وما يشعر به في روحه الحقيقية . وتظهر أفكار الإنسان فيما يقوله وما يفعله . وما أعمالنا في الغالب إلا مظاهر خارجية لأحوالنا الداخلية . ففي العمل الإنساني تبدو الشخصية العملية والشخصية الفكرية للإنسان ؛ فالرجل الفتي مثلاً يُعبّر بالصوت أو الرسم أو الشكل أو اللون عن الأفكار التي يفكر فيها ، والمثل العليا التي يدركها بقله .

ومن الخطأ أن نظن أن كل ما نحتاج إليه للمهارة في الموسيقى والحفر والرسم مثلاً هو معرفة القواعد الأساسية لهذه الفنون ؛ فالمعرفة وحدها لا تكفي ، بل لا بد من أن تُصحب بمقدار كبير من الروح الفنية والميل الفطري .

وبالتعلم والتربية والتهديب مع الميل والرغبة وتقليد الفنيين ، والتمرّن والمثابرة يمكن كسب المهارة الفنية .

ومن الواجب تربية الوجدان والفكر والخيال والإرادة وإحيائها بالاتصال دائماً بقيادة الفكر في الماضي والحاضر .
وإن الشخصية الفكرية هي التي تُكسِبُ العملَ قوةً جاذبية .
وفي العمل تتمثلُ روحُ صاحبه وأفكاره وأخلاقه . وليست الشخصية الفكرية مقصورةً على طبقةٍ دون أخرى ؛ فكما تكون بين الأغنياء تكون بين الفقراء ، ولكنها تختلفُ قوةً وضعفاً من غيرِ نظرٍ إلى طبقةٍ أو جنسية .

وقد وصفَ الشاعر الإنكليزيُّ « روبرت برؤنيج » شخصية امرأةٍ فقيرة ، سعيدةٍ قانئةٍ تدعى « يينا » ، في قصيدته « يينا تمر » .
وفيها يصفُ هذه الشخصية الفكرية ، والسعادةَ الفطرية ، والروحَ القويةَ في « يينا » ؛ تلك المرأةَ العاملةَ الفقيرةَ التي تشتغلُ طولَ عامها في غزلِ الحريرِ بمصنعٍ من مصانع (أسُولو) لتكسِبَ قوتَ يومها ، وتعيشَ معيشةَ الكفافِ . وفي اليوم الذي تجعله للراحة ، تخرج « يينا » والسعادةُ تبدو عليها ؛ تُغْنِي أُغْنِيَّتَهَا العذبةَ الجميلةَ ، التي تتمثلُ فيها تلك الروحُ السعيدة :

« نحن الآن في فصلِ الربيع ، في الصباح ، الله في ملكوته ،
والعالمُ جميل » .

ففي تلك المرأة الفقيرة تتمثل تلك الروحُ القوية ، السعيدة في فقرها ، السعيدة في عملها المُضني ، الراضية بالكفاف ، الهانئة بجياتها . وهي مثلُ للروح السامية ، والعظمة الفكرية ، والشخصية القوية ، تستطيع أن تؤثر في غيرها ليرضى رضاها ، كما يؤثرُ عطاء الرجال وشُجاعتهم في غيرهم من ناحية العظمة والشجاعة . وبينَ الفقراء من الفلاحين أمثلة كثيرة للرضا والقناعة في الحياة .

والروحُ القوية قد تجدها هنا وهناك ممثلة في كل مدرسة ، وفي كل وسط ، في فردٍ هو الرئيسُ الذي يُوحى إلى غيره أفكاره وأخلاقه ، ويؤثر في المتصلين به تأثيراً كبيراً . وإن وجودَ تلك الروح القوية في رياسة أيِّ عملٍ من الأعمال يكفي أن يسيرَ هذا العمل بكل هدوء ونجاح . وإذا أختفت تلك الشخصية وهذه الروحُ من الرياسة أبتدأ سوء التفام ، وكثرت المنازعاتُ والمشاجراتُ والتحزُّباتُ والمؤمرات ، فيختلُّ نظامُ العمل ، ويتحققُ الفشل .

فالرئيسُ قد يكون ضخمَ المرتب ، قليلَ العمل ، فنظنُّ أنه لا يستحقه لأنه لا يتكافأ مع العمل الذي يقوم به . ولكننا نقول : إذا كان الرئيسُ قوى الشخصية كان وجوده وحده كافياً لإيجاد روج في ذلك العمل ، ووضع نظامٍ أو مقياسٍ يسير عليه الجميع . ومن أجلِ

هذه الشخصية ، وتلك الروح القوية ، والأخلاق القوية ، يستحق ذلك المرتب الضخم ، لا من أجل مقدار ما يقوم به من العمل .
والشخصية القوية بأفكارها وأخلاقها لا تستدعى جلبه ولا ضوضاء ، ولا تدعو إلى طبل ولا زمر . وإذا بحثنا وجدنا أن القوي العظيمة في الطبيعة هي تلك القوى الهائلة التي تعمل ، وتعمل كثيراً ، ولا تسمع لها طنيناً . ومن السهل وجود الهدوء والرزاقية حتى في الحياة المضطربة .

الفرق بين الشخصيتين العملية والفكرية

بعد أن تكلمنا عن الشخصيتين العملية والفكرية نريد أن نذكر الفرق بينهما ، فنقول : إن الأولى توجه قوتها نحو عمل الأشياء العظيمة ، في حين أن الثانية تصرف قوتها في أن يكون الإنسان قوياً في روحه ، عظيماً في خلقه . وإن العالم الذي نراه بما فيه من مدنية وحضارة وتقدم في العلم والاختراع ، مدين لتلك الشخصيات القوية التي فكرت وتحملت وجربت وفقدت .

وقد يُظن أنه لا أثر للشعر والفلسفة والفنون الجميلة في الأعمال الهامة العظيمة في الحياة . والحق أن لها أثراً كبيراً في تلك

الأعمال ؛ لأنها لا تُروَّدُ الشخصَ النشيطَ الغامِلَ بالمثلِ العليا فصَحْبُ ،
ولكنها تَبَثُّ فيه أيضاً القوَّة والنشاطَ والروحَ الضروريةَ لتنفيذِها
والوصولِ إليها .

الصفاتُ التي يجبُ أن تتحقَّقَ في الشخصية الفكرية أو الخلقية

هناك صفاتٌ تُعدُّ عناصرَ للشخصية الفكرية الصامتة ، تلك هي :

(١) الهدوء العقلي . (٣) حُسْنُ الطبع .

(٢) الرضا بالحياة مع العمل .

ولنشرحَ كلاً منها فنقول :

(١) الهدوء العقلي :

يُرادُ بالهدوء العقلي أطمئنانُ البالِ ، وهدوءُ الخاطر ، وعدمُ التفكيرِ
في أشياء تُؤدِّي إلى القلقِ أو الاضطرابِ النفسيِّ . وهذا الهدوء قد
يكونُ فطرياً ناشئاً عن طبيعة المزاج ، وقد يُكتسبُ بالترية والتهذيبِ
وضبطِ النفس ، وضبطِ العواطف ، والوجداناتِ التي تتأثَّرُ بالظروفِ
الخارجية للحياة . والخوفُ أكبرُ عدوٍّ مُزعجٍ للعقل ، وأقوى سببٍ
في الاضطرابِ العقليِّ . وما دام العقلُ متأثراً بالخوافِ فالهدوء محال .

وقد ينشأ الاضطرابُ عن الغيرةِ أو الحقدِ ، أو عن طلبِ المحالِ والتعلقِ به ، نعم يجب أن تكون آمالنا كبيرةً ، ولكن يجب أيضاً أن يكونَ من الممكن تنفيذُها^(١) . وقد ينشأ الاضطرابُ العقليُّ عن كثرةِ الرغباتِ التي لا نهايةَ لها ؛ فالإنسانُ منا يريد أن يذوقَ الحياةَ ويتمتعَ بما فيها من لذاتٍ في لحظةٍ واحدة ، من غير تفكيرٍ في تركِ شيءٍ للتمتعِ به في المستقبل . يريد أن يقطفَ الحياةَ كما يقطفُ عنقودَ العنبِ ، وليتَّه ينفعَ بما يقطفُ ؛ فقد يضغَطُ العنقودَ لشدةِ حرصه فيتلفه ، ويبقى جائعاً كما كان من قبلُ . وإن كثرةَ الرغباتِ لا تتركُ أثراً للمسرَّاتِ القلبية ، وكثيراً ما تؤدي إلى التألمِ أو الحرمانِ ؛ فالحرصُ محرومٌ ، لو بلغ الرزقُ فاه ، لولاه ففاه ، كما قال بديعُ الزمانِ الهمداني^(٢) .

(٢) الرضا بالحياة مع العمل :

وليس معنى الرضا أن يقبلَ الإنسانُ كلَّ شيءٍ كما هو ، ولو كان

(١) قد سرحَ (وليام هازلِت) : William Hazlitt (١٧٧٨ — ١٨٣٠) م . الكاتب الإنكليزي المروف بقوة النقد ، وقد حضرته الوفاة ، بأنه عاش سعيدياً في نفسه . ولكن القارئُ لتاريخِ حياته يجدُها مملوءة بالأحزان ؛ فقد كان يتأثر ويهيج ويثور لأقل شيء ؛ فكانت حياته تتغير تغير الجو في البلاد الإنكليزية ؛ لا يثبت فيها الجوعلى حال . وكان يعرف أنه مكروه لدى مساعريه ، ولا يدري لعلك سبباً . أما السبب فقد كان سرعة تأثره ، وعجزه عن ضبط نفسه ؛ فنفر منه عارفوه ، مع أنه كان كريماً خلصاً أديباً ذكياً .

(٢) ولد سنة ٣٠٨ هـ . وتوفي سنة ٣٩٨ هـ . وهو كاتب من كتاب العربية في القرن الرابع الهجري . وشره خير من شره . وهو أول من اشتهر بكتابة المقامات ، وله ولم كبير بالمحسنات والزخرفة اللغوية والبديسة .

خطأً ؛ فهذا يُمدَّ ضِعْفًا وَجُبْنًا ، بل معناه أن يكون الإنسان حيًّا ، يفعل ما يجب أن يفعل ، ويرضى بما يجب الرضا به ، ويحتجُّ على ما ينبغي الاحتجاج عليه ، ويردُّ على ما يقتضى الردُّ . هذا هو الرضا ، وهو معنى الحياة . وفي اللحظة التي ينقطع فيها الردُّ أو الاحتجاجُ تنقطع الحياة ، وتلوها الموتُ والفتاء . أما الرضا المصحوبُ بالكسلِ والحولِ فليس رِضًا ، وإنما هو الموتُ في الحياة . فالرضا بالحياة يجب أن يُصحبَ بالجد والعمل والمثابرة مع الاقتناع بما يجب الاقتناع به . وفي البيئَةِ والحياة أمورٌ برهنت التجاربُ على خطئها ، فهذه يجب ألا تقتنع بها ، بل نعمل بكل قوة على علاجها وإصلاحها ، وإلا وقف العالمُ في مكانه ، وتأخر الفكرُ والحضارة .

وينبغي أن تقتنع القناعة التي بها تستريحُ نفوسنا ، ونكون سعداء ، بحيث نَرْضَى من جهة ، ونعملُ لارقيِّ والكمال من جهة أخرى . وتمثلُ تلك الروحُ الراضيةُ « في الروح العظيمة بالكوخ الصغير » .
ومن الخطأ أن ينتظرَ الإنسانُ المحالَ ، أو يطلبَ أشياءً ينبغي ألا يُجابَ إليها . ومن الميوس التي كانت تُؤخذُ على (جيتِه) ^(١) الفيلسوفِ

(١) Goethe (١٧٤٩ — ١٨٣٢ م .) : هو شاعر وفيلسوف ألماني ، له شهرة ذاتة بين فلاسفة العالم ، وعلماء الطبيعة .

الألماني أنه كان يُعارض ولا يقنع حتى بالأمور التي لا مفر منها، وليس منها بد. وذلك ناشئ عن العجز عن ضبط النفس، وهو نقص خلقي شائع. وما الفائدة من طلب المحال؟ إن عدم الرضا لن يُقربنا من تحقيق رغباتنا؛ لأنها رغبات يستحيل تنفيذها، ولا يمكن الوصول إليها. ولو حُدثت الآمال والأحلام، ثم عملنا بجدٍ وطيبِ خاطر، ونفسٍ مستريحة، فمن الممكن إدراك هذه الآمال، وتحقيق تلك الأحلام، بالوصول إليها أو إلى ما يقرب منها.

فليس من الحكمة أن نُحزن أنفسنا، ونحرق قلوبنا، في سبيل أحلام لا يمكن تحقيقها. فنحن لا نريد قناعة تُصحب بالضعف أو الإهمال، كما لا نريد جشعاً يؤدي إلى القلق الفكري، والاضطراب العقلي، والألم النفسي. ولكننا نريد قناعة تؤدي إلى السعادة، وتستدعي العمل، وتتطلب المثابرة في سبيل الرقي المستمر، مع راحة الضمير، وهدوء البال. وهذه الوسيلة تكون حياتنا هادئة سعيدة مملوءة بالثقة والأمل. وما الحياة إلا حُرمة كبيرة مكونة من عيدان صغيرة. وللوصول إلى هذه الحُرمة الكبيرة يجب أن نحصل أولاً على الميدان الصغيرة.

قال «الورد أف بري» في كتابه: «مسرّات الحياة»: «كلُّ

من يسعى للنجاح في الحياة يناله، ولكنه لا يضل إلى كل ما يمتناه لنفسه .
إن الفشل الشريف خير من الفوز الدنيء . ولعمري إن الإنسان إذا
حاول وفشل ، لا يخسر شيئاً مطلقاً إلا إذا تولاه اليأس ؛ ودخل في
قلبه القنوط . وإذا لم نحصل على مرادنا مرة فلا يدع ذلك إلى
قطع الآمال .

وقال « ماركس توين » : « حافظ على آمالك ، فإنها إذا ذهبت
تركتك هاماً بغير حياة » .

وقال « بيكون » : من يسع ويتيقظ يُبصر الحظ ؛ فإنه (أى
الحظ) — وإن كان ضريراً لا يُبصر — لن يفوتنا ، ما دامت
تبصره عيوننا .

(٣) البساطة ورُعب السر :

إن للبساطة أثراً كبيراً في الشخصية الفكرية أو الخلقية ، وتنشأ
عن ضبط النفس ، وحسن التفكير ، وسلامة الأعصاب ، واعتدال
الصحة ، والنجاح في الحياة ، ورقى البيئة . أما سوء الطبع المصحوب
بضيق الصدر ، فينشأ عن ظلام الفكر ، أو شدة تأثير الأعصاب ،
أو ضعف الصحة ، أو الفشل في العمل ، أو تأخر البيئة ، أو عنها
كلها مجتمعة .

ومن السهل معالجة ذلك النقص بالنصح تارةً ، ومقاومة النفس تارةً أخرى ، والاتصال كثيرًا بالمثل العليا في الأخلاق ، والعمل دائماً على مراعاة شعور الناس ، والمحافظة على روح الصداقة مع الأصدقاء^(١) .

ومن مظاهر قوة الشخصية الفكرية أن تتغلب على عاطفتك ، وتشارك الناس في سرورهم لنجاحهم في أعمالهم ، مهما كنت في دياجير^(٢) الشقاء ، وفي غياهب^(٣) البؤس ، متمثلاً بذلك الرجل الضالّ الشريد في العالم ؛ تطرده تلك البلدة فينتقل إلى أخرى ، وهو يفتنى تلك الأغنيّة :

« أيتها الحياة ! ما أجلك ! وما أجل الليل والنهار ، والشمس والقمر ! هوذا عليل ، وسماك صافية ، وحياة عذبة . ما أحلى الحياة ! الحياة هنا إلى الأبد » !

وهل هناك من هو أسعدُ نفساً ، وأقوى رُوحاً من ذلك الشريد الطريد ، الذي يتسمُّ للحياة البائسة ، وينظرُ إليها تلك النظرة السارّة ؟

(١) وقد قيل عن (البروولتر سكوت) ، الكاتب الأسكتلندي العظيم : إن شخصيته كانت تتمثل في حسن طبعه ، ومثابة أخلاقه ، وشدة صبره ، والنظر إلى كل إنسان يعرفه أو يحصل به نظرة كلها عطف ، نظرة الأب الشفيق إلى الابن البار ، نظرة تدل على تقديره للإنسانية ، ووجه لئير من بني الإنسان .

(٢) الديجور : الظلام ، وليفة ديجور : مظلة .

(٣) النيهب : الظلمة .

الفصل السادس عشر

مُضعفات الشخصية

هناك أشياء كثيرة تُؤدّي إلى إضعاف الشخصية ، وتُعدّ عائقاً لها ، منها :

(١) انطال الشخص على غيره :

وذلك بتقليد غيره في أقواله وأفعاله ، وحركاته وسكناته وتفكيره ، بحيث يصير الإنسان صورةً مقلّدة لا شخصية لها ، ولكنها متأثرة بشخصية غيرها .

(٢) التأثر بالعادات والتقاليد :

فالرأي العام كثيراً ما يكون مصيباً ، وكثيراً ما يكون حسناً ، ولا نستطيع أن ننكر ذلك . ولكننا نريد أن يكون الرأي العام بمثابة القائد المرشد ، لا بمثابة القائد المستبّد ، الذي يتحكم في الأفراد ، فيُضِلُّهم أحياناً ، ويقودهم إلى حيثُ يعتمدون عن الحياة ، وينفصلون عن حقائقها ، وينقطعون عن العالم . أنقطع عربات القطار عن القاطرة الأمامية التي بها يسير القطار ، ويتصلون بالعالم الآخر هو عالم الموت ،

أو عالم الحقائق الميتة التي قَدَّتْ كلَّ حياة .

فنحن نريد احترام العادات ، ونطالب باحترام التقاليد ، وتعليم الأطفال احترامها ، وتموידهم تقديس الرأي العام . ولكننا نريد مع ذلك أن نعوِّدَهم التفكير بأنفسهم ، والاستقلال بالفكر ؛ حتى لا يكونوا عبيداً لغيرهم في آرائهم ، كما نعوِّدُهم الخضوع للحق ، والالتقاء لما نُعلمه عليهم عقولهم وضمائرهم ؛ كي يُحافظوا على شخصياتهم . فالشخصية لا يمكن أن تنمو في قفص من حديد لا يجد فيه الطفل حرية في الرأي ، وحرية في التفكير .

وفي حدود العادات والتقاليد يجب على كلِّ منا أن يكونَ له رأياً ، وأن يقبل من الآراء ما أثبتته التجربة والبراهين ، ويتمسك بالصواب ، ويترك ما يتبينُ خطؤه . ومن المحال أن نُضِلَّ الطريقَ المستقيمَ إذا أُسِسَ الرأيُ العامُ على الحكمة ، والعقل ، والصواب ، والمصلحة العامة .

أما العادات والتقاليد الدينية المتصلة بالدين القويم فيجب أن تُحترم وتؤخذَ كما هي ؛ لأنها تتفق مع العقل والمنطق ، ولو أننا قد لا نصل إلى إدراك الحقيقة أو السرِّ أحياناً ؛ لأن التفكير الإنساني محدودٌ ، ولو فكرنا في الأمور الدينية لوجدنا أن لكلِّ أمرٍ حكمةً

أوسراً قد لا ندرُكُه . قهذيبُ الشخصية لا يتناقى مطلقاً مع مراعاة الروح والتقاليد الدينية .

(٣) ومن الأشياء التي نتحكم في الشخصية :

التمسكُ بالأفكار التي يقرؤها الإنسانُ في الكتب العادية . وجديرُ بالإنسان أن يقرأ ، وأن يقرأ كثيراً ، ثم يُحكّم عقله ، ويأخذ الحسن ، ثم يترك القبيح . ويجب ألا يعتدّ ما يقرأ ، ولا يصدق كل ما يقال ، كما يعتدّ ويصدق كثيرون من القراء . إننا لا نريد ذلك الكسل العقلي ، والحمول الفكرى ، بل نريد أن نفكر فيما نقرأ ، ونستعمل عقولنا ، فلا نتقبل كل بضاعة تُعرض علينا ولو كانت مزجاة . ولسنا بذلك نقلل من قيمة القراءة والاطلاع ، أو من قيمة من يقرأ ووف يطلعون ، ولكننا نود أن يكون لكلٍ منهم شخصية مستقلة في التفكير ، يفكر في كل شيء ، وفي كل كتاب يقرؤه ؛ فنحن لا نريد القراءة فحسب ، ولكننا نريد أن نقرأ ، ونفكر فيما نقرأ ، بحيث يكون تفكيرنا أكثر من قراءتنا ، كي نصل إلى حديث جديد أو رأي طريف جيّد ، بحيث نزن كل فكرة ، فتكثر الآراء السديدة ، والأفكار الناضجة . وبهذه الوسيلة تظهر شخصياتنا الحقيقية ، وتبدو أنفسنا كما هي .

ومما قاله (جَنِّ جَاكُ رُوسُو^(١)) عن نفسه : « إِنِّي لَا أَشْبِهُ أَحَدًا
آخَرَ عَرَفْتُهُ . ومع ذلك فَإِنِّي إِذَا لَمْ أَكُنْ أَحْسَنَ ، فَإِنِّي مُخْتَلِفٌ عَنْ
غَيْرِي عَلَى الْأَقْلِ » . فأساسُ الشخصيةِ هو في وجودِ شيءٍ خاصٍّ في
كُلِّ مِنَّا يُمَيِّزُهُ مِنْ غَيْرِهِ . وقد يَخْجَلُ الْإِنْسَانُ أَوْ يَعْتَذِرُ إِذَا وَجَدَ نَفْسَهُ
يُخْتَلِفُ عَنْ غَيْرِهِ . وليس في حاجةٍ إِلَى الْحِجْلِ أَوْ الْاعْتِذَارِ ، وَلَكِنَّهُ فِي
حَاجَةٍ إِلَى الشَّجَاعَةِ فِي أَنْ يَرَى نَفْسَهُ مُخْتَلِفًا عَنْ غَيْرِهِ ، وَيَرَى غَيْرَهُ
يُخْتَلِفُ عَنْهُ فِي أُمُورٍ هِيَ أَسَاسُ الشَّخْصِيَّةِ ، وَمُظْهِرٌ مِنْ مَظَاهِرِ النَّفْسِ
الْحَقِيقِيَّةِ . وَفِي تَرْبِيَةِ الشَّخْصِيَّةِ يَجِبُ أَنْ نُعَوِّدَ الطِّفْلَ أَنْ يَظْهَرَ بِحَقِيقَتِهِ
كَمَا هُوَ ، مِنْ غَيْرِ رِيَاءٍ أَوْ تَظَاهِيرٍ أَوْ تَغْيِيرٍ لِلْحَقَائِقِ ، وَنَفْهَمَهُ حِينَ
يَكْبُرُ أَنَّ الْعِلْمَ يَتَطَلَّبُ هَدْوًا وَتَوَاضُعًا ، وَإِخْلَاصًا ، وَمَعْرِفَةً لِلنَفْسِ ،
وَأَحْتِرَامًا لَهَا ؛ أَحْتِرَامًا بَعِيدًا عَنِ الْمُجَبِّ وَالْكِبَرِ وَالْكَذِبِ ؛ أَحْتِرَامًا
مَبْنِيًّا عَلَى آدَاءِ الْوَاجِبِ عَلَى الْوَجْهِ الْأَكْمَلِ . وَإِذَا أَعْتَادَ الشَّخْصُ
أَحْتِرَامَ نَفْسِهِ أَحْتِرَامًا بَعِيدًا عَنِ الْمُجَبِّ ، فَإِنَّ حُبَّ الظُّهُورِ يَضَعُفُ

(١) Jean Jacques Rousseau (١٧١٢ — ١٧٧٨ م .) هو مربٍ مِنْ أَكْبَرِ
فلاسفة التربية وعلماء الاجتماع في القرن الثامن عشر . وسد كتابه : (إميل) أكبر ذخيرة في
التربية ، يرجع إليها المربون في كثير من الأمور حتى يومنا هذا . وهو من الكتب التي ترجمت
إلى معظم اللغات الحية ، وعسى أن يترجم إلى اللغة العربية ترجمة دقيقة . وعملك أن تطلع على
آراء (روسو) في كتب تاريخ التربية إذا شئت .

تدريجياً ، ويُصبحُ احترامُ النفسِ مع التحلّي بالكمال كطبيعةٍ ثانيةٍ للشخص .

وإذا قلنا بأحترام النفس ، فمضى ذلك أن نُعطى أنفسنا حقها ، ونقدّرَها حقَّ قدرها . ولكن ليس معنى ذلك أن نُفكرَ في أنفسنا أكثر مما ينبغي ، أو أن نرفعها فوق منزلتها ، أو أن نمطيها أكثر مما تستحق .

(٤) ومن صفات الشخصية تحكم ميول الشخص فيه ، وعجزه عن ضبط تلك الميول ، فيثور وَيَهيجُ ، ويتبدئ اليوم عملاً ويتركه غداً . ويفكرُ اليوم في مشروع ، وغداً في آخر . ومثل هذا الشخص عادةً نشيطٌ ، وليس بكسلان ولا ضعيف الإرادة ، ولكنه في حاجة إلى التريية ؛ تريية الميول ، وضبط أنفعالاته ، وتوجيه همته نحو مشروع من المشروعات ، وعدم تركه إلا بعد الانتهاء منه .

الفصل السابع عشر

الصفات الكيالية للشخصية

الآن وقد تكلمنا عن ماهية^(١) الشخصية، وتعرفها، والاختلاف فيها، والعناصر الأساسية التي تُبنى عليها، وأنواعها، ووسائل تقوية الشخصية العملية، والصفات التي يجب أن تتحقق في الشخصية الفكرية الخلقية، نريد أن نذكر الصفات الكيالية للشخصية على العموم، وهي كثيرة، منها.

(١) الذاتية أو الاستقلال الذاتي^(٢).

(٢) الإخلاص^(٣).

(٣) الحماسة أو شدة الغيرة والإقدام^(٤).

(٤) قوة الوجدان أو الإحساس^(٥). ولتتكم عن كل منها فنقول:

(١) الذاتية أو الاستقلال الذاتي

الذاتية هي أهم صفة من الصفات الكيالية للشخصية. وقد

عُرِّفت بأنها:

. Sincerity (٣)

. Individuality (٢)

(١) حفة .

Sensibility. (٥)

Enthusiasm. (٤)

مجموعة الصفات العقلية الخاصة بالفرد . وتختلف هذه المجموعة باختلاف الأفراد ؛ فقد تكون كبيرة لدى بعض الأشخاص ، صغيرة لدى بعضهم الآخر .

وتختلف الشخصية^(١) عن الذاتية في أن الأولى أعم من الثانية ؛ لأن الشخصية تشمل الصفات العقلية والعملية والجسمية والروحية أو الخلقية الخاصة بالفرد ، بخلاف الذاتية فإنها عنصر هام من عناصر الشخصية يتعلق بمجموعة الصفات العقلية للفرد ليس غير .

وإننا نشعر بالملكية الذاتية في نسبة الشيء إلى الفرد أو الأفراد ، فنقول : هذا كتابي ، وذاك كتابه ، وهذا كتابكم ، وذلك مستشفى الجمعية الخيرية ، وتلك مدرسة الطائفة الإسرائيلية ، وهذه جماعة الشبان المسلمين أو المسيحيين ، وهكذا . ولكل إنسان طريقة خاصة وأفكار خاصة في الحياة يمتاز بها من غيره .

ومن الأسباب التي أدت إلى فشل كثيرين في الحياة أنهم لا يستقلون بأنفسهم في تفكيرهم ، بل يعتمدون على غيرهم ، ويقلدونهم في أقوالهم وأفعالهم وآرائهم ، ويتشبهون بهم في كل شيء ، فيفقدون استقلالهم الذاتي ، وتندمج شخصيتهم في شخصية سواهم حتى تضيع .

فينبغى أن يبذل الإنسان جهده في أن يعتمد على نفسه، ويستقل في تفكيره بطريقته الخاصة؛ فالأشياء التي يصل إليها بفكره الخاص خير من الأشياء التي يقلد فيها غيره. والأمر الذي يقوم به بنفسه يمكنه أن يقوم به خير قيام.

أما العوامل التي تتنازعها الذاتية فهي :

(١) الصراحة وعدم التواء في الفكر والقول والعمل :

يُراد بالصراحة إظهار ما في النفس بغير التواء أو أعوجاج أو آفٍ بعيد^(١) بحيث تكون أفكار الإنسان ظاهرة، وأقواله واضحة، وأعماله تتفق مع أقواله، يقول ما يعتقد، ويمتد ما يقول، ولا يُلقي القول على عواهنه^(٢)، ولا يتردد فيما يقول. لا يُثبت اليوم شيئاً ثم ينفيه غداً. إذا تكلم كان كلامه عن عقيدة، يدل على سداد رأي، وحسن تفكير، وتقدير للنتائج. قال المرحوم سعد زغلول باشا: « قد عاهدتُ الله منذ نشأتُ على أن أصرِّح بما في ضميري، وهذه هي لذتي في حياتي ».

(١) قال صاحب المصباح : صرَّح القى بالضم صراحة : خلس من تعلقات غيره فهو صريح . وكل خالٍ صريح ، ومنه القول الصريح وهو القى لا يختلج إلى إظهار أو تأويل . .
وقال صاحب القاموس : التصريح خلاف التريض ، وتبيين الأمر .
(٢) لم يبال أصاب أم أخطأ .

وإن كثرة التردد في الرأي والقول والفعل تقلل من شخصية الإنسان ومنزله، وكثيراً ما تموقه عن النجاح في الحياة العملية والاجتماعية؛ كأن يطالبه رئيسه بإبداء رأيه في شأن من الشئون، فيختلط عليه الأمر، ويضطرب عقله، وتضطرب أفكاره، وتكون غامضة. وهو في هذا الموقف لا يحتاج إلى أكثر من أن يفكر في الأمر ملياً^(١)، ثم يبدي رأيه بعبارة موجزة واضحة، قوية، مؤثرة، ولا يخرج عن الموضوع.

والناس عادة يحبون أن يصغوا إلى ما نقول، وأن يشاركونا في شعورنا إذا كان ما نقول يستحق الإصغاء؛ كأن تكون الأفكار سديدة، والمباراة واضحة خالية من الخطأ، ويكون الأسلوب مؤثراً جذاباً. أما إذا كانت الأفكار معدومة أو عقيمة، أو ملتوية معوجة، أو فجّة غير ناضجة، ثم عبّر عنها بلغة غامضة مملوكة بالأخطاء، أو بعبارة ركيكة معقدة، فلا عجب إذا نفر السامعون، وقلّ إصغائهم وانتباههم، وأخذوا في التلغّي عن المتكلم.

ولا تلهّمهم إذا أنصرفوا عنه حرصاً على وقتهم. وإذا مكثوا ولم ينصرفوا فما ذلك إلا محافظة على آداب الاستماع. ومن السهل

(١) ساعة طويلة من النهار.

أَكْتَسَابُ قُلُوبِ الْمُسْتَمِيعِينَ بِالْأَفْكَارِ الصَّائِبَةِ ، وَاللِّغَةِ السَّلِيسَةِ السَّهْلَةِ الصَّافِيَةِ ، الْخَالِيَةِ مِنَ النَّمُوضِ وَالتَّعْقِيدِ وَالِاتِّوَاءِ ، وَبِالْأَسْلُوبِ الْجَذَابِ وَالِإِلْقَاءِ الْحَسَنِ .

أَخْبَرَ بَعْضُ الْأَدْبَاءِ قَالَ ^(١) : مَا رَأَيْتُ رَجُلًا عُرِضَ عَلَيْهِ الْمَوْتُ فَلَمْ يَكْتَرِثْ لَهُ إِلَّا تَيْمِيمَ بْنِ جَعِيلٍ الْخَارِجِيِّ . كَانَ قَدْ خَرَجَ عَلَى الْمُعْتَصِمِ وَرَأَيْتُهُ قَدْ جِئَ بِهِ أَسِيرًا . فَدَخَلَ عَلَيْهِ فِي يَوْمٍ مَوْكِبٍ ^(٢) وَقَدْ جَلَسَ الْمُعْتَصِمُ لِلنَّاسِ مَجْلِسًا عَامًّا ، وَدَعَا بِالسَّيْفِ وَالتَّلَاطُفِ ^(٣) . فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ نَظَرَ إِلَيْهِ الْمُعْتَصِمُ ، فَأَعْجَبَهُ شَكْلُهُ وَقَدُّهُ ^(٤) وَمَشِيَّتُهُ إِلَى الْمَوْتِ غَيْرَ مُكْتَرِثٍ لَهُ . فَأُطَالَ الْفِكْرَةَ فِيهِ ، ثُمَّ اسْتَنْطَقَهُ ^(٥) لِيَنْظُرَ فِي عَقْلِهِ وَبَلَغَتِهِ ، فَقَالَ : يَا تَيْمِيمُ إِنْ كَانَ لَكَ عَذْرُ فَاتٍ بِهِ .

فَقَالَ : أَمَّا إِذَا أُذِنَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (جَبْرِ اللَّهِ) بِهِ صَدْعٌ ^(٦) الدِّينِ : وَلَمْ تَشْعَثْ ^(٧) الْمُسْلِمِينَ . وَأَخَذَ شِهَابَ الْبَاطِلِ . وَأَنَارَ سُبُلَ الْحَقِّ — فَالذُّنُوبُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ تُضَرِّسُ الْأَلْسِنَةَ ، وَتَصْدَعُ الْأَفْئِدَةَ :

(١) مِنْ كِتَابِ ثَمَرَاتِ الْأَوْرَاقِ لِلْحَمَوِيِّ .

(٢) الْمَوْكِبُ : بَابَةٌ مِنَ السَّيْرِ ، وَهُوَ أَيْضًا الْقَوْمُ الرُّكُوبُ عَلَى الْإِبِلِ لِلزَّيْنَةِ ، وَكَذَلِكَ جَاعَةُ الْفَرَسَانِ .

(٣) بِسَاطٍ مِنْ جِلْدٍ . (٤) الْقَدُّ : الْقَامَةُ .

(٥) كَلَّمَهُ . (٦) الْفَقْ . (٧) جَمَعَ أَسْرَمَ .

وَأَمِ اللَّهُ (١) قَدْ عَظُمَتِ الْجَزِيرَةُ (٢) ، وَأُتْقَطَعَتِ الْحُجَّةُ ، وَسَاءَ الظَّنُّ ،
وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْعَفْوُ أَوْ الْإِتْقَامُ (٣) . وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَقْرَبُ إِلَى الْعَفْوِ وَهُوَ
الْبَيْتُ شَيْخُهُ الطَّاهِرَةُ . ثُمَّ أَشْبَدُ :

أَرَى الْمَوْتَ بَيْنَ السِّيفِ وَالنُّطْعِ كَأَمْنًا :

يُلاحِظُنِي مِنْ حَيْثُ مَا أَتَلَفْتُ
وَأَكْبَرُ ظَنِّي أَنَّكَ الْيَوْمَ قَاتِلِي
وَأَيُّ أَمْرِي مِمَّا قَضَى اللَّهُ يُفْلِتُ
وَمَنْ ذَا الَّذِي يَأْتِي بِمُنْذِرٍ وَحُجَّةٍ

وسيفُ المنايا بين عينيه مُصَلَّتٌ (٤)
وما جَزَعَنِي مِنْ أَنْ أَمُوتَ وَإِنِّي
لَأَعْلَمُ أَنَّ الْمَوْتَ شَيْءٌ مُوقَّتٌ (٥)
ولكنَّ خَلْفِي صَيِّبَةٌ قَدْ تَرَكْتُهُمْ
وَأَكْبَادُهُمْ مِنْ حَسْرَةٍ (٦) تَنْفَتَّتْ
كَأَنِّي أَرَامُ حِينَ أَنْتَى (٧) إِلَيْهِمْ
وَقَدْ لَطَمُوا تِلْكَ الْحُدُودَ وَصَوَّوْا

(١) صيغة قَسَم . (٢) الجناية .

(٣) بارز . (٤) له وقت .

(٥) الحسرة : أشد التلطف على الشيء الغائب .

(٦) التني : خبر الموت .

فَإِنْ عَشْتُ عَاشُوا سَالِمِينَ بَنِيَّةٍ^(١)

أَذُودُ^(٢) الرَّدَى^(٣) عَنْهُمْ وَإِنْ مِتُّ مَوْتُوا

قَالَ فَبَكَى الْمُتَعَصِّمُ وَقَالَ : إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا . ثُمَّ قَالَ : كَاذَ وَاللَّهِ
يَا تَعِيمُ أَنْ يَسْبِقَ السِّيفُ الْعَذْلَ^(٤) ، وَقَدْ وَهَبْتُكَ لِلَّهِ وَلَصِبْتِكَ . وَأَعْطَاهُ
خَمْسِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ .

(٢) حُبُّ الْمُسْتُولِيَةِ وَهَرَمُ الْفِرَارِ مِنْهَا :

إِنْ حُبَّ الْمُسْتُولِيَةِ وَعَدِمَ الْفِرَارَ مِنْهَا يَنْشَتَانِ عَنِ الثِّقَةِ بِالنَّفْسِ .
وَقَدْ لُوْحِظَ أَنَّ الْأَفْرَادَ الْأَمْنَاءَ الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ أَنْ يَتَحَمَّلُوا الْمُسْتُولِيَةَ
يَفِرُّونَ مِنْهَا . وَأَنَّ الْأَفْرَادَ الَّذِينَ لَا يَسْتَحِقُّونَ الثِّقَةَ بِهِمْ يُحِبُّونَ تَحَمُّلَهَا .
وَهَذَا خَطَأٌ فِي كِلْتَا الْحَالَتَيْنِ . وَإِنَّا الْآنَ لَا نَتَكَلَّمُ عَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ
يَرْجُونَ بِأَنْفُسِهِمْ فِي أَشْيَاءَ لَيْسُوا أَهْلًا لَهَا ، وَيَقِفُونَ فِي مَوَاقِفَ غَيْرِهِمْ
أَوْلَىٰ بِهَا ، بَلْ نَتَكَلَّمُ عَنْ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِالْمَقْدَرَةِ الطَّبْعِيَّةِ ،
وَالْكَفَايَةِ فِي الْقُدْرَةِ عَلَى الْقِيَامِ بِالْعَمَلِ ، وَلَكِنَّهُمْ يَمِيلُونَ إِلَى الْفِرَارِ
وَالْتِبَاعِ عَنْ هَذَا الْعَمَلِ .

وَهَذَا الْفِرَارُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْوَالِ دَلِيلٌ عَلَى ضَعْفِ الذَّاتِيَّةِ أَوْ

(١) سرور . (٢) أدفع . (٣) الملاك . (٤) العذل : اللامة .

ضعف الاستقلال الذاتي، ودليل على الخوف أيضاً؛ الخوف من النتائج والظروف، والخوف من غيرهم، فهم ضحايا الخوف، الخوف حتى من أنفسهم.

وأنت تعلم أن تحل المسؤولية قد يُعرض الإنسان للخطر. ولكن بماذا تجذب قلوب الناس؟ إنك تجذبهم بالإقدام، وعدم الفرار من المسؤولية، والتعرض للأخطار.

قد تفر من الشيء خوفاً من نقد الناقدين، وحسد الحاسدين، ومُنَافَسَةِ المنافسين، ولكن ماذا يهمك من هؤلاء؟ ولم تَتَقَبَّأْ بهم ما دُمت مخلصاً لله، مُرضياً ضميرك؟ إن من المحال أن تُرضي الناس جميعاً، فأرضاء الناس غاية لا تُدرَك. ولن تعد أن تجد بجانب هؤلاء الحاقدين، العرضى في نفوسهم، كثيرين من المخلصين الذين يُقدِّرون من يستحق التقدير، ويَقُونُ عَن يَسْتَحِقُّ الثَّقة، فيعترفون بفضلِكَ، ويُقرُّون بعقدتِكَ. وهذا أكبر مُشجِّع أدبي للإقدام، وعدم الخوف من المسؤولية.

فالمسؤولية تجعل القوى أقوى، وتُصَيِّرُ الضعيفَ أضعفَ، فينبى ألا تعطى إلا مَنْ يَسْتَحِقُّهَا.

(٣) الصبر :

الصبرُ فضيلةٌ تَمَكِّنُ العقلَ من القيامِ بوظائفه العقليةِ في هُدوءٍ وثباتٍ ، وتُنقِذُهُ من الاضطرابِ عندَ الشدائدِ ، وتجعلُ الإنسانَ هادئًا ، رزينًا ، بعيدًا عن الطيشِ والاندفاعِ في الأشياءِ من غيرِ تفكيرٍ في العواقبِ .

وقد سأل (وليام بيت^(١)) ذاتَ مرةٍ : « ما أهمُّ صفةٍ يجبُ أن يتصفَ بها رئيسُ الوزارةِ ؟ »

فأجاب أحدُ الحاضرين : « الفصاحةُ » . وقال آخر : « العلمُ » ، وقال ثالث : « الجدُّ في العمل » . فقال (وليام بيت) : « إن أهمَّ صفةٍ يجبُ أن يتصفَ بها رئيسُ الوزارةِ هي الصبرُ » . والحقُّ أن الصبرَ ضروريٌّ لا للرؤساءِ فحسبُ ، ولكنَّ للمرءوسينَ الماديَّينَ أيضًا .

وقد كان خالدُ بنُ الوليدٍ يسيروا في صفوفِ الحربِ ، ويُشجِّعُ الناسَ ويقول لهم : يا أهلَ الإسلامِ ! إن الصبرَ عزٌّ ، وإن الفشلَ هِجْرٌ ، وإن النصرَ مع الصبرِ .

وقد سأل عمرُ بنُ الخطابِ رضى الله عنه بَنِي عَبْسٍ : كيف كنتم

(١) William Pitt (١٧٥٩ — ١٨٠٦ م) : كان من أكبر السياسيين من الإنكليز

المروقين بالخطابة وحسن البيان .

تَقَهَّرُونَ مِنْ نَاوَأْكُمْ^(١) ، وَلَسْتُمْ بِأَكْثَرِ مِنْهُمْ عِدْدًا وَلَا مَالًا ؟ فَقَالُوا :
كُنَّا نَصْبِرُ بَعْدَ اللَّقَاءِ (لقاء الجيش) هُنَيْهَةً^(٢) .

وَقَالَ عَلَى كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ : « الصَّبْرُ مَطِيَّةٌ لَا تَكْبُو^(٣) » ، وَسَيَفُ^(٤)
لَا يَنْبُو^(٥) .

وَالْجَزْعُ مَعْنَاهُ الْعِزُّ عَنْ ضَبْطِ النَّفْسِ ، وَالْفَشْلُ فِي وَجْهِ الْقُوَّةِ
وَالْحَمِيَّةِ وَالْحَرَارَةِ — الَّتِي تُسَيِّرُ الْعَقْلَ نَحْوَ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ — وَمَعْنَاهُ
الْخِيَّةُ فِي الْعَمَلِ . وَالشَّخْصِيَّةُ الْقَوِيَّةُ تَتَنَاقَى مَعَ الْجَزْعِ وَعَدَمِ الصَّبْرِ .
وَكَمَا أَنَّ الصَّبْرَ يُوْدِّي إِلَى النِّجَاحِ ، فَالْجَزْعُ يُوْدِّي إِلَى الْفَشْلِ فِي كُلِّ
شَيْءٍ . وَلَا تَوْجِدَ الْعَظَمَةَ بَيْنَ الرِّجَالِ إِلَّا حَيْثُ يُوجَدُ الصَّبْرُ .
وَالضَّعِيفُ الصَّبُورُ قَوِيٌّ بِصَبْرِهِ ، وَالْقَوِيُّ الْجَزْعُ ضَعِيفٌ بِجَزَعِهِ .
وَإِذَا وُجِدَ الصَّبْرُ أُرْسِلَتْ أَشْعَةُ مِنَ النُّورِ إِلَى الشَّخْصِ فَيَتَّقُ بِنَفْسِهِ ،
وَيُجْتَهِدُ فِي إِيجَادِ جَوْرِ لِلْفُوزِ وَالنِّجَاحِ فِي الْعَمَلِ . وَإِذَا ذَهَبَ الصَّبْرُ
ذَهَبَتِ الرَّاحَةُ وَالْهُدُوءُ ، وَأُضْطَرَبَتِ النَّفْسُ ، وَقَلِقَ الْفِكْرُ .

فَيَنْبَغِي أَنْ يَتَحَلَّى الْإِنْسَانُ بِالصَّبْرِ ، وَيَسْتَغْلَ بِقَدْرِ طَاقَتِهِ ، وَيَنْتَفِعَ
بِالظُّرُوفِ الَّتِي تَمُرُّ بِهِ ؛ كَيْ يَصِلَ إِلَى غَرَضِهِ ، وَيُرَبِّزَ وَجُودَهُ فِي هَذِهِ

(١) نَاوَأَهُ مُنَاوَأَةً وَنَوَاءً : عَادَاهُ . يُقَالُ : إِذَا نَاوَأَتِ الرِّجَالُ قَامِيرَ .
(٢) وَهَذَا بِسِيَرٍ . (٣) لَا تَنْقُطُ . (٤) لَا يَنْجِبُ .

الحياة . وإن الصبرَ مع الضعفِ أقوى وأشدُّ أثرًا من الجزعِ مع القوة .
والثابرةُ على العملِ مع عدمِ المبالاةِ بالنتائجِ أحسنُ وسيلةً للفوزِ
والانتصارِ في كلِّ عملٍ من الأعمالِ .

قال صلى الله عليه وسلم : « الصبرُ نصفُ الإيمانِ » ، وقال أيضاً :
« إِذَا مَبَتْ أَصَبْتَ أَوْ كِدْتَ تُصِيبُ ، وَإِذَا أَسْتَمَجَلْتَ أَخْطَأْتَ
أَوْ كِدْتَ تُخْطِئُ » .

وقال المسيح عليه السلام : « إِنَّكُمْ لَا تَدْرِكُونَ مَا تُحِبُّونَ إِلَّا
بِصَبْرِكُمْ عَلَى مَا تَكْرَهُونَ » .

وقال عليٌّ كرم الله وجهه : « الصبرُ من الإيمانِ بمنزلةِ الرأسِ من
الجسدِ . ولا جسدَ لمن لا رأسَ له . ولا إيمانَ لمن لا صبرَ له . وقال
أيضاً : لا يمدِّمُ الصبورُ الظفرَ وإن طال به الزمانُ .

وقال الإمام المرحومُ الشيخ محمد عبده : « الصبرُ خُلُقٌ من
أَمَهِاتِ الأخلاقِ ، بل مَسَاكُ كُلِّ خُلُقٍ » .

ولتتمثلْ (ياسحق ثيوتن) الفيلسوفُ الإنكليزيُّ الكبيرُ
(١٦٤٢—١٧٢٧ م.) والعالمُ العظيمُ ؛ فإنه ما كانَ ذا قِرمِحةٍ ^(١) وقادةً ،
وذاكهُ حادٍ في مدرسته ، يَدَّ أنه عُرِفَ بالصبرِ والجِدِّ ، ومَضَاءُ ^(٢) العزيمة ،

(١) الذكاء والقدرة على استنباط العلم . (٢) قوة .

حتى لقد أثبه معلمه مرةً فغضب وقال : « يا سيدي إني وإن كنتُ حاجزاً لستُ مُقصرأ ، وثقُ بأنني قد بذلتُ كلَّ جُهدِي في استذكارِ دروسي » .

ولقد سئلَ (نيوتن) مرةً : كيف أَسْتَنْبَطْتَ كلَّ هذه المستنبطاتِ الفريية ؟ فأجاب : بالتأمل المستمرِّ فيها ؛ فقد كنتُ أضعُ الموضوعَ نصبَ عيني ، وأنا بَرُّ على مزاويلته وعلاجه ، حتى يَبْزُغَ ضَوْؤُهُ ، ويصيرَ نوراً ساطعاً . ومن أقواله المأثورة : « إن كنتُ قد أدِيتُ للعالمِ خدمةً فباجتهادي وجَلَدِي ^(١) » .

وفي المثلِ الإنكليزيّ : « الحجرُ المتدحرجُ لا يَنْبُتُ عليه العُشبُ » .
وفي المثلِ الفرنسيّ : « النبوغُ صبرٌ طويل » . والحقُّ أن أعظمَ هبةٍ طَبِيعِيَّةٍ مُنَحِّها للإنسانُ هي الصبرُ ؛ فبالصبرِ والمثابرةِ يصلُ الإنسانُ إلى مُبتَغاه ، وبالجزعِ وضعفِ العزيمةِ يَفْشَلُ في عمله مهما أوتى من ذكاء .

(٤) المثابرة : Determination

إن المثابرةَ وقوةَ الإرادةِ من أهمِّ صفاتِ الشخصيةِ العظيمةِ . ومن عُرِفُوا بالإرادةِ الحديديةِ خالدُ بنُ الوليد ، والإسكندرُ المقدونيّ ، و نابليون بوناپرت ، وجورج واشنطن ، والزعيمُ الخالدُ الذكرُ سعدُ

زغالول باشا ، وكثير غيرهم من العظماء ، ومنهم السير (فول
بِكستون^(١)) الذى بذل جهداً عظيماً فى حركة تحرير الأرقاء فى أيام
(ولبرفورس^(٢)) ؛ فقد كان (بكستون) لا يعرف الرجوع إلى الوراء .
ومن نصائحه الماثورة عنه للقراء :

- (١) لا تترك كتاباً تقرأه حتى تنته .
(ب) لا تظن أنك قد أنهيت من الكتاب إلا إذا فهمته جيداً .
(ج) حَكِّمْ عقلك فى جميع ما تقرأ .

وفى نهاية حياته التى لم يشعر فيها براحة قال : « إني واثق بأن
الفرق العظيم بين الناس قوتهم وضعيفهم ، عظيمهم وحقيهم ،
فى النشاط ، وقوة العزيمة ، وتحديد الغرض ، ثم النصر أو الموت » .
وحينما وجدت الإرادة الحديدية وجدت قوة الشخصية . ولا
يكفى أن تقول : أريد أن أكون كذا ، أو أحب أن أفعل كذا ،
أو أرغب فى كذا ، بل يجب أن تكون الإرادة قوية ، والعزم شديداً ،
والرغبة كبيرة ، ثم تُصَبِّب هذه الرغبة بعزيمة ثابتة لا تعرف
الضعف ، وهمية عظيمة تستلذ التعب ، وتشارب فى عملك حتى تنجح فى
الوصول إلى أمينتك . وإنك لا تستطيع أن تنتفع بالحديد وتصوره

كيف شئتَ إلّا إذا كانَ مصهوراً شديدَ الحرارة . فإذا ما تركته حتى أصبحَ بارداً فن الصعب أن تُكوّنَ منه شيئاً .

وعِرفة الشيء ، وإدراكه نتائجُه ، يمكنُ تحريكِ العاطفة ، وإظهارُ القوة ، وتقوية العزيمة والإرادة ، فينظرُ الإنسانُ إلى الأمام ، ويسلُ إلى النهاية ، غيرَ مُبالٍ بالخطر مادام يعتقد في الفوز والنجاح ، والوصول إلى الغرض . ولن يؤثرَ فيه مدحٌ أو ذمٌ متى شعرَ في نفسه بأنه إذا عَزَمَ على شيء فلن يستريحَ حتى يُحقِّقه وينتصرَ عليه .

قال أبو جعفر المنصور :

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكنْ ذا عزيمة * فإنَّ فسادَ الرأي أنْ تردداً
وقد أمر الإسكندرُ المقدونيُّ أحدَ قواده بالإفارة على حصنٍ
أمنعَ من عُقابِ الجو ، يخالفه القائدُ قائلاً : يا سيدي إن ذلك مما
لا يُستطاع . فصاحَ الإسكندرُ في وجهه مُغضباً : « لا شيء في العالمِ
عالمٌ على مَنْ يبذلُ جهداً ، ويُضَيِّعُ جزءاً » . ولم يَمُضِ إلّا قليلاً حتى
أخضعَ الإسكندرُ عدوه ، ودمَّرَ حصونه ، وأذلَّ مُقاتله .

وكان نابليونُ إمبراطورُ فرنسا (١٧٦٩ — ١٨٢١ م) يكره من
الكلماتِ ثلاثاً : « لا أعرف — لا أستطيع — محال » . فكان جوابُه
عن الأولى : « تعلَّم » . وعن الثانية : « حاول » . وعن الثالثة : « جَرِّب » .

الفصل الثامن عشر

(ب) الإخلاص Sincerity

الإخلاصُ هو الصفاء ، هو الصدقُ في القولِ والعمل ، هو المروية ، هو أن تعملَ في السِّرِّ ما لا تَسْتَحْيِي منه في العلانية ، هو البعدُ عن الكذب والرياء والنفاق . يقول الشاعرُ العربيُّ :

فَسِرِّي كإِعْلَانِي، وتلكَ خَلِيقَتِي * وظُلْمَةُ لَيْلِي مِثْلُ ضَوْءِ نَهَارِي
وهذا هو الإخلاصُ عينُهُ ، وهو روحُ الشخصية . وإذا قيل إن فلاناً أَيْضُنُ القلب ، صافِي السَّريرة ، صادقُ صريحُ في قوله ، فأعتقد أنه مخلصٌ ، وأن له شَخْصِيَّةً جَذَابَةً .

فالإخلاصُ يُظْهِرُ العقلَ حَقِيقَةً من غيرِ زِيَادَةٍ أو نَقْصٍ أو مِبالغةٍ أَوْ رِياءٍ أو كَذِبٍ . وَحينما يَنْتَقِي الإخلاصُ يُحَاوِلُ العقلُ أنْ يُخْفِيَ حَقِيقَتَهُ ، فيغيرُ الحقائقَ عَمْدًا أو عن غيرِ عَمْدٍ ، ويحملُ الحقَّ باطلاً ، والباطلَ حقًّا ، والبعيدَ قَرِيبًا ، والقريبَ بَعِيدًا . وليس هذا من الإخلاصِ في شيء . . .

وللإخلاصِ أثرٌ كبيرٌ في شَخْصِيَّةِ الإنسان ، وفي نِجَاحِهِ في عمله ، وفي حَيَاتِهِ العَمَلِيَّةِ والاجتماعيةِ والاقتصاديةِ . ولا أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ أنْ يَنْجَحَ

إلى النهاية بالغش والكذب والحياة . وإن الذين يلجئون إلى هذه الدنيا
المنافية للإخلاص يحضرون أكثر مما يرغبون . ومن المحال تأسيس
عمل عظيم من الأعمال إلا على أسس قوية من الصدق والأمانة
والإخلاص والجِد . وقد نفّس بعض الأفراد مدة من الزمن ، ولكننا
لا يمكننا أن نفّس الجميع ونُضللهم ونُضللهم إلى النهاية .

وما الأسماء العظيمة والجماعات الكبيرة المحترمة ، والشركات
التجارية المشهورة ، والمصارف الموثوق بها إلا أثر من آثار الإخلاص
والأمانة والصدق في المعاملة . وإذا ذهبت الأمانة ، وهي روح
الإخلاص ذهبت هذه الأسماء والجماعات والشركات والمصارف ،
وأصبحت في خبر كان .

يقول (إمرسون) الأمريكي : « إن الشرط الأساسي للنجاح في
العمل هو الغيرة على العمل . والغيرة نتيجة الإخلاص » . وإن عدم
إخلاصنا يقلل من ثقتنا بغيرنا ؛ فالصحيح يعتقد أن الناس جميعا لصوص ،
والخائن يعتقد أنه كغيره من الناس ، وأنهم كلهم خونة . والمجرم يظن
أن الكل مجرم مثله . وفي الوقت الذي يرتكب فيه الشخص صداً
خطيئة من الخطايا يعتقد في هذه الخطيئة ، ولا يثق بغيرها .

وتظاهر الإنسان بغير الحقيقة ينشأ عن عدم الإخلاص ؛ لأن فيه

تشويهها للحقائق ، وتفضيلاً لغيره بالكذب حيناً ، والمبالغة المقتورة حيناً آخر . وإذا عُرِفَتْ حقيقة المتظاهر — وسرعان ما تُعرَف — وأتضح أمره ، شكَّ الناسُ في كلامه ، وقلَّتْ أوفُقِدَتْ ثقتهم به . ومتى فقِدَتْ الثقة بالشخص ضاعت شخصيته . ولا يتظاهرُ بالعلم — كما قلنا — إلا من يشعُرُ بالجهل . ولا يتظاهرُ بالثنى إلا الفقراء . ولا يدعى القوة إلا الضعفاء . وإذا أُستطاع الإنسان أن يخدع الناسَ جميعاً فإنه لا يستطيع أن يخدع نفسه . وإذا ضاعت ثقته بنفسه فن المحال أن يشعُرَ بالقوة .

يقول (مارك رذرفورد) (١) : « إنه لا يوجدُ إنسان كله رياء أو كله إخلاص ؛ فنحن جميعاً مُراءونٌ في كلِّ أقوالنا ، وفي كلِّ أفعالنا ، وفي جميع أفكارنا . أما الإخلاصُ فيتوقفُ على طبيعة الشخص ؛ بمعنى أنه إن كان لديه ميلٌ فطريٌّ للإخلاص ، فن الممكن أن يكونَ مخلصاً بعضَ الإخلاص ، لا الإخلاصَ كله » .

وإننا نأسفُ إذا قبلنا هذا القول كما هو من غير أن يذكّرَ لنا دليلٌ يُثبتُه . ولكننا نُسَلِّمُ بأن الإخلاصَ نادر ، وأن المخلصينَ قليلون ، ونعترفُ بأنه قوةٌ جذابةٌ ليس فوقها قوة . ولهذا القائلِ المذرُ فيما قال ؛

فالحياة مملوءة بالمخجلات من الرياء والكذب والنفاق والغش والتضليل والنقائص المضادة للإخلاص .

ومن العظمة النفسية أن يكون الإنسان مخلصاً ، وفيّاً ، أميناً في قوله وعمله . ومن الإخلاص أن يكون الإنسان صريحاً يقول ما يعتقد بكل أمانة وشجاعة . ولكن كم يُقاسى الشخص في سبيل الصراحة ؟ وأين المكان أو الزمان الذي يَسْمَحُ بالصراحة ، الصراحة في إبداء الرأي ؟ إننا لا نقول كل ما نعتقد ، ونحن ضحايا البيئة والعادات . وإننا في سيرنا وأحوالنا نعمل على ألا نخالف البيئة التي نعيش فيها ، والعادات التي رُبِّينا عليها . ولكن ما نحن بهذا ؟ الثمن هو تشويه الشخصية الإنسانية ، وإضعاف نفوذها أو تأثيرها الشخصي . وكيف يمكن أن نُؤثِّرَ في الناس ، ونغتنك قلوبهم ، ونكتسب احترامهم ، ونتمتع بثقتهم إذا سِرْنَا وراء الستار ، ولم نَقِفْ أمام إخواننا وأبنائنا بأنفسنا الحقيقية ؟ كيف نحصل على ثقتهم أو نُؤثِّرَ فيهم إذا قلنا ما لا نعتقد ، وأعتقدنا ما لم نقل ، وكنا غير مخلصين ؟

ففي عدم إخلاصنا ظلم لأنفسنا ، وظلم لغيرنا ممن يتصلون بنا ، من أبناء وأقارب وأصدقاء وغيرهم . وهو إذا وُجِدَ في الجواهر النفيسة عُدَّةً نقصاً كبيراً . وإذا حُرِمَ الإنسان الإخلاص فقد حُرِمَ أكبر قوة

جاذبية وجمالٍ طَبِيعِيٍّ فِي الْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَةِ .

قال المرحومُ سعدُ زغلول باشا وهو وكيل الجمعية التشريعية :
« لَا عَيْبَ فِينَا فِي الرَّجُوعِ إِلَى الْحَقِّ مَتَى ظَهَرَ لَنَا ؛ لِأَنَّا مَا جِئْنَا هُنَا
لِنُدَافِعَ عَنْ أَنْفُسِنَا ، بَلْ لِنُدَافِعَ عَنِ الْحَقِّ وَنُؤَيِّدَهُ » .

وقد وُضِّحَ (جون بنيان) فِي كِتَابِهِ الثَّمِينِ : « نَجَاحُ الْحَاجِّ »^(١)
مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ عَصْرِهِ مِنْ غَشٍّ وَخِدَاعٍ وَرِيَاءٍ . ذَكَرَ أَنَّهُ قَدْ
زَارَهُ فِي سِجْنِهِ أَحَدُ الْمُدَّعِينَ مِنْ جَمَاعَةِ الْأَصْدِقَاءِ^(٢) ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ أَحْضَرَ
لَهُ رِسَالَةً مِنْ اللَّهِ ، وَأَعْتَذَرَ لَهُ عَنِ التَّأْخِيرِ فِي تَسْلِيمِهَا بِأَنَّهُ زَارَ نَصَفَ
سُجُونٍ اِئْتَلَتْهَا وَهُوَ يَحْتَثُّ عَنْهُ ، وَأَنَّهُ مَسْرُورٌ كُلَّ السَّرُورِ لِلْعَثُورِ عَلَيْهِ
أَخِيرًا . فَأَحْسَنَ (بنيان) فِي الْحَالِ عَدَمَ إِخْلَاصِ هَذَا الرَّجُلِ الْكَاذِبِ ،
فَقَالَ لَهُ : « لَوْ كُنْتُ مُرْسَلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مَا كُنْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَى هَذَا
التَّمَبُّعِ فِي الْبَحْثِ عَنِّي فِي جَمِيعِ السُّجُونِ ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي فِي سِجْنٍ
(يُدْفُورُذ) مِنْذُ سَبْعِ سِنِينَ مَضَتْ » .

وَالْإِخْلَاصِ (بنيان) أَوْ كَتَسَبَ كَثِيرًا مِنْ تَقْدِيرِ الْجُمْهُورِ لَهُ .

(١) The Pilgrim's Progress تأليف John Bunyan . وقد كتب « بنيان » كِتَابًا
عَدَّةً وَهُوَ فِي سِجْنِهِ ، أَشْهَرُهَا الْكِتَابُ الْمَذْكُورُ ، وَقَدْ تَرَجَّمَ إِلَى مُعْظَمِ لُغَاتِ الْعَالَمِ .

(٢) The Society of Friends .

ومما يساعد عَلَى الإخلاص :

(١) الدقة فِي القولِ تدقيقنا فِي النقود ؛ فأقوالُ الإنسانِ هِيَ المرآةُ التي يُرَى منها عقله . ومن العيوبِ الشائعةِ التهاوُنُ فِي أَسْتِمَالِ الكلماتِ وأدْمَاؤُنَا معرفةَ أشياءَ قد نجهلُها .

(٢) الدقة فِي التفكيرِ ؛ فَزِنُ ما نقوله بِمِيزَانِ الحقيقةِ خدمةَ الحقيقةِ ، ونذكرُ ما نعتقدُ بكلِّ شجاعةٍ وأمانةٍ .

وإننا لَا نَتَطَلَّبُ الإخلاصَ فِي القولِ فحسبُ ، بل نَتَطَلَّبُ أَيْضاً الإخلاصَ فِي الكتابةِ ، والإخلاصَ فِي الفعلِ ؛ حتَّى لَا نَخْدَعُ أَنْفُسَنَا ، ونضللَ غَيْرَنَا .

والإخلاصُ يَسْتَدْعِي إظهارَ الحقيقةِ كما هِيَ ، مع الدقة فِي التفكيرِ والقولِ والكتابةِ ؛ فلا نقولُ إلَّا ما نعتقدُ ، ولا نَدَّخُ إلَّا من يَسْتَحِقُّ المدحَ ، ولا نَنقُدُ إلَّا من يَسْتَحِقُّ النقدَ ، ولا نَحْكُمُ إلَّا بما تُملِهُ علينا ضمائرُنَا ، ولا نَسْتَعْمِلُ الظروفَ والصفاتِ وأَقْلَ التفضيلِ إلَّا بكلِّ حكمةٍ ودقةٍ فِي التعبيرِ .

فكما تَجِبُ الدقةُ فِي الْعَمَلَةِ كذلك تَجِبُ الدقةُ فِي الْكَلَامِ ، بحيثَ يَتَّفَقُ منطقُ الرَّجُلِ مع عقله ، وعقله مع منطقِهِ ، وقوله مع تفكيرِهِ ،

وَتَفَكِيرُهُ مَعَ قَوْلِهِ . وَلْتَذَكَّرْ دَائِمًا أَنَّ الْكَلَامَ إِذَا خَرَجَ مِنَ الْقَلْبِ
وَقَعَ فِي الْقَلْبِ ، وَإِذَا خَرَجَ مِنَ اللِّسَانِ فَإِنَّهُ لَنْ يَجَاوِزَ الْآذَانَ . وَلْنَعْمَلْ
بِمَا نَقُولُ حَتَّى لَا نَوْصَفَ بِالرِّيَاءِ وَالتَّضَلُّيلِ ؛ قَالَ تَعَالَى : « كَبُرَ مَقْتًا
عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ » . وَقَالَ اللَّهُ لِمُعَاوِيَةَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :
« يَا ابْنَ مَرْثَمَ عِظْ نَفْسَكَ ، فَإِنَّ أُتْعِظْتَ فِعِظِ النَّاسَ ، وَإِلَّا
فَانْتَحِ مِنِّي » .

الفصل التاسع عشر

الحماسة Enthusiasm (ح)

الحماسة نوعٌ من الشجاعة تُصحبُ بالشعورِ القويّ والإقدام .
ولا نريدُ بالحماسة تلك التي تؤدّي بنا إلى السيرِ في الطريقِ المظلمِ في
الحياة ، ولكننا نريدُ الحماسة المصحوبةَ بقوةِ الإيمانِ من جهة ، والتفكيرِ
من جهةٍ أخرى .

ولا يكفي للنجاح في الحياة أن يكونَ الإنسانُ ذكيًا ماهرًا ، بل
يجب أن يتحدَّ مع الذكاء والمهارة قوةً أخرى هي الحماسة ، والفيرةُ
الطبيعية . وما الفائدةُ من أن يصلَ العالمُ الباحثُ إلى نظريةٍ من
النظريات ، أو فكرةٍ من الأفكار ، إذا لم يستطع أن يُنفِّذها لعدمِ
وجودِ الحماسة أو الشجاعة الكافية لديه ؟ إنه لا فائدة من نظرياتٍ
لا يمكنُ تطبيقها عمليًا .

ولكن هل يمكن أن نبثَّ الحماسة ونولِّدها في النفوسِ الباردة ؟
والجواب : نعم يمكننا أن نُعوِّدَ الطفلَ من الصغرِ الإقدامَ والشجاعةَ ،
والقيامَ بالعمل ، والاعتمادَ على النفسِ في كثيرٍ من الأعمال . وهناك

أشياء ليست بالقليلة نتقُ بأنها مفيدة ، ونتائجها حسنة ، ومع ذلك
تترددُ في تنفيذها ، تُقدِّمُ رجلاً ونوَّعُ أخرى ؛ لقلَّةِ حماسِتنا ، وخَوَرِ
عزيمَتِنَا ، وَصَفِ إِرَادَتِنَا . وكثيراً ما تمرُّ الفرصُ أمامَ أعيننا ، وتضيعُ
منا بسبب ذلك النقص . وكلُّ ما نحتاجُ إليه للمعالجة هذا النقص هو
أن تفكرَ في الشيء أولاً ، فإذا بدا لنا صوابه فلنصحبَه بالعمل وقوة
المزيمة . وإذا وثقتَ بطريقك فأسرِعْ في خطاك ، وسِرْ في سبيلك
حتى تصلَ إلى النهاية .

قال (إمرسون) الكاتبُ الأمريكيُّ : « بغيرِ الحماسة لا يمكنُ
القيامُ بأمرٍ عظيمٍ في الحياة » . ولأجلِ أن يكونَ الخلقُ عظيماً ،
وتكونَ الشخصيةُ قويةً يجبُ أن يُضاءَ بقوة من الحرارة .
وتكونَ الحماسةُ بتشجيعِ الطفلِ على أن يَطْلِعَ على ما يَحْسُنُ
الاطلاعُ عليه ، وأن يرى ما تحسُنُ رؤيته ، وأن يبحثَ عن الحسناتِ
أكثرَ من البحثِ عن السيئاتِ ، وأن يستحسنَ أكثرَ مما يستقبح ،
وأن يوافقَ أكثرَ من أن يخالف ، وأن يثبتَ أكثرَ مما يثني ، وأن
يُشجِّعَ أكثرَ من أن يُثبط .

والأملُ في المسِنَّ - الذي بلغ من العمر سبعينَ سنةً ، المملوء
حماسةً ونشاطاً ، أكثرُ من الأملِ في الشابِّ الضعيفِ ، المترددِ ،

الجبان . والأملُ محالٌ في النفوسِ الضعيفةِ المترددةِ في كلِّ شيءٍ ، وفي أقلِّ شيءٍ . ولا رجاءُ في العالمِ إذا وُضِعَتِ اليَدُ الباردة ، يَدُ الجبنِ ، على قلوبِ الشبابِ . فإذا أُعْطِيَتْ آيَةٌ فَرَصَةٌ فَفَكَّرُوا ملياً ، ثم إذا أُسْتُصِبَتْ الأمرُ فَأَقْدِمُوا ، ولا تتردّدوا ، ولا تَخَفُوا صغرَ السنِّ ، ما دمتَ على صوابٍ . ومن الخطأ أن يُظَنَّ الإنسانُ أنه أصبحَ كبيرَ السنِّ ، ولا يُرْجَى منه عملٌ . ولا تَعْجَبْ إذا سمعتَ أن (المستر جِلَادِستُون^(١)) لم يبتدئْ أعماله العظيمةَ إلا في سنِّ الخمسينِ . فعاملُ السنِّ لا يُوَثَّرُ في الحماسةِ كلِّ التأثير كما يُظَنُّ . والشبابُ شيءٌ لا نِسْبَةَ ؛ فقد تجددُ روحُ الشبابِ في بعضِ الشيوخِ ، وتجددُ روحَ الشيوخِ في بعضِ الشبانِ .

والإنسانُ يَأْسَفُ إذا قال : إن معظمَ الشبانِ لدينا مُنْصَرِفُونَ إلى الملاهي ، لا يفكرون إلا في اللذاتِ ، وآمالهم ضعيفةٌ في الحياة ، وكلُّها موجهةٌ إلى الوظائفِ مهما كانتَ وَضِيعَةً . أما الإقدامُ على الأعمالِ الحرةِ فقليلٌ . وإذا دخلوا ذلك الميدانَ كانوا مُضْطَرِّينَ . والحماسةُ بعيدةٌ عنهم ، وهم بعيدون عنها . والإيمانُ بعيدٌ عن قلوبهم ، فهم يعملون عن غيرِ عزيمةٍ أو عقيدةٍ . وقد أصبحتِ العقولُ مظلمةً ، عليها طبقةٌ كَثِيفَةٌ من السُّحُبِ والغيومِ ، وصارتِ الأرواحُ ضعيفةً خاملةً .

(١) اقرأ : Life of gladstone, by John Morley

ونحن في حاجة إلى الخيال والشعر والموسيقى حتى تُبعث روح
الحماسة في النفوس ، وتوجد الشخصيات الفذة ، كما أننا في حاجة إلى
أن نشعر بأننا خلقنا في هذا العالم لنقوم بتبليغ رسالة وطنية أو علمية
أو اجتماعية أو خلقية أو صحية ، ونمثل دوراً عظيماً في رواية الحياة .

وبجانب التعود والخيال والأمل نحتاج في بث الحماسة في النفوس
إلى قوة الهجوم ، وروح الاحتجاج والمعارضة حينما نقابل أو نقابح
بالمصائب والعوائق التي تعوقنا عن القيام بالعمل . فإذا أردت أن تنجح
في عملك فأبذل كل ما تستطيع من جهد وعمل ، وأعمل بجد ، ثم تابر
على هذا العمل ، وبالله توفيقك .

وينشأ عدم الحماسة عن الشك وعن الخبث ، وهما من ألد أعداء
الشخصية . قال (روبرت لويس ستيفنسون^(١)) : « إني أمقت الخبث
(Cynicism) أكثر من مقتي للشيطان إذا كان الاثنان شيئاً واحداً »
فلنترك كثرة التشكك والتردد ، ولنجنب الوسوسة في كل شيء ،
ولنتمسك بالجد والعمل والإقدام حتى تتصل بالقوى العظيمة في الحياة .
ولنسير مع الجماعة ، ولا نقف في عزلة ؛ ففي الجماعة قوة ، وفي العزلة
ضعف . وفي القوة عظمة ، وفي الضعف مذلة .

(١) Robert Louis Stevenson (١٨٥٠ — ١٨٩٤ م) : كاتب إنكليزي ، قضى
كثيراً من حياته القصيرة مريضاً . وكتب معظم كتبه وهو على فراش المرض . وهو خير مثل
في قوة الزوح وقوة الإرادة .

ومن الحماسة أن تُعبّر عما في نفسك بالقول والفعلِ تعبيراً حسناً ؛
فلحُسنِ التعبيرِ أثرٌ كبيرٌ في الشخصية . ومما يقالُ عن سيدهِ أساءتِ
التعبيرِ عن شعورها ووجدانها أنها أخذتْ تبكي مما شاهدتهُ في روايةٍ
تمثيليةٍ خياليةٍ ، في حين أنها تركتْ سائقَ عَجَلتها في البردِ حتى تجمّد ،
ومات وهو ينتظرُها في خارجِ المسرح . فينبغي أن يفكرَ الإنسانُ في
غيره ، ويشاركه في شعوره ، ويفكرَ في الحقيقةِ أكثرَ من تفكيره
في الخيال ، ويُقدِّمَ حيثُ يجبُ الإقدامُ ، ويمتنعَ حيثُ يجبُ الامتناعُ ،
كي يمثّلَ دوره ، ويقومَ بواجبه ، ويحققَ الحكمةَ من وجوده
وهي العمل .

(٥) قوة الإحساس Sensibility

إن قوة الإحساسِ من أكبرِ المؤثراتِ في الشخصيةِ القوية ،
وبعضُها ينسبُ إلى الوراثة ، وبعضها مكتسبٌ بالتربيةِ والخبرةِ
والتهذيب . وإن الإنسانَ الصادقَ الحسَّ ، الحسنَ البصيرةِ ليس بذكيٍّ
مُغسَّبٍ ، ولكنه حسنُ التقديرِ والحكم على الأشياءِ ؛ يرى الفرصةَ
فينتهزُها ، وينتفعُ بها . والفرصُ تمرُّ بنا جميعاً ، وقد تمرُّ عبثاً ولا نُحِسُّها ،
وإذا أحسبناها فقد تركناها حتى تمرَّ مرَّ الرياح ، وتذهبَ مُدْنى .
فالمساواةُ في الفرصةِ لا تكفي وحدها ، ولكن يجبُ الشعورُ بها

والاستفادة منها . ولو أمكن أن نعطيَ الناسَ في القَدِ فرصةً واحدةً ،
فإننا نجد قليلينَ جدًّا لديهم القدرةُ على رؤيتها أو الانتفاع بها في حينها .
أما الكثيرون فقد لا يلاحظون حبيتها أو مرورها إلا بعد انتهاءها ،
ولكنهم يُظهِرون أنهم عقلاء حكياء يتمثلُ فيهم العقلُ والحكمةُ بعد
زوالِ الفرصة .

وهناك أفرادٌ لهم عينٌ لا يُبصرون بها ، ولهم آذانٌ لا يسمعون بها .
وليس السببُ في قلةِ الرؤيةِ أو السمعِ ناشئًا عن ضعفٍ ما أو ثِقَلٍ من
إحساس ، ولكنه ناشئٌ عن إهمالٍ ما لديهم من الإحساس ، وعن عدمِ
الانتفاع بما مُنِحُوا من مواهبٍ وميولٍ وأمزجةٍ وسجايا .
وإذا مدحنا صِدْقَ الحسِّ ، وإجابةَ الداعي ، وقوةَ الإحساسِ في
الإنسان ، فإننا لا ندعُ أن يكون شديدَ الإحساسِ (Sensitive) ؛ بحيث
يتأثرُ لأقلِّ شيءٍ ، بل نطالبُ أن يُحدِّدَ هذا الإحساسُ حتى يمتدَّ
الشخصُ ضبطَ نفسه ، وكتمانَ شعوره ، فلا يكون شديدَ التأثرِ لآفتهِ
الأسباب . فعنِبطُ النفسِ هو روحُ الشخصيةِ وقوتُها المعنوية . وقد
وصفَ الشاعرُ الإنكليزيُّ (شيلي) ^(١) النباتَ الحساسَ في قصيدة له بهذا
العنوان ^(٢) فقال :

(١) Percy Bysshe Shelley : شاعر إنكليزي من شعراء الطبيعة ، معروف بحبه

للطبيعة ، وغيره على الإصلاح .

(٢) Sensitive Plant

« قد نما النباتُ الحساسُ^(١) في الحديقة ، ثم غَذَاهُ النسيمُ العليلُ
بالبُطْل^(٢) الفضيَّ . وفتحَ للنورِ وجوهاً من الأوراق ، ثم طَوَاهَا تحت
قُبَلَاتِ الليل . »

وإن معرفة متى نفتحُ عقولنا لاستقبال تلك الآثَارِ التي لا حدَّ
لها في الحياة ، ومتى نمنعُها عن أَسْتِقْبَالِهَا تستلزمُ أن نعرفَ كثيراً عن
أسرارِ الحياة ، وأسرارِ السعادة ؛ لأن الجهلَ بتلك الأسرارِ قد يؤدي
إلى تضحية الإنسانِ بِرَاحَتِهِ العقلية ، وسعادته الداخلية .

• A Sensitive Plant in a garden grew,
And the young winds fed it with silver dew,
And it opened its face like leaves to the light,
And closed them beneath the kisses of night. •

(١)

(٢) الندى الخفيف .

الفصل العشرون

اضطراب الشخصية وانقسامها^(١)

الآن وقد تكلمنا عن الشخصية وماهيتها^(٢) ، وعناصرها ، وأنواعها ، ومُضعِفاتها ومُكَمِّلَاتها ، لا يفوتنا قبل أن نُختمَ هذا الفصل ، وهذا الكتاب ، أن نذكر كلمة موجزة عن اضطراب الشخصية وانقسامها ؛ لما للموضوع من الأهمية . وقد كُتِبَتْ عنه كتب^(٣) باللغات الأجنبية المختلفة ، فارجع إليها إن شئت .

إن الإنسان وإن كان يُعدُّ وحدةً لا تتجزأ ، قد لا تحدد دائماً ميوله الفِطْرِيَّة^(٤) المختلفة ، ورغباته المتعددة . وقد يتعارض بعضها مع بعضها الآخر ، فيختلف سلوك الإنسان باختلاف الظروف .

وكثيراً ما نقول : إنَّ سلوك فلان اليوم يختلف عن سلوكه العادي ، أو نقول : إن فلاناً كاملٌ دائماً ؛ مُريدٌ بذلك أنه لا يتغير مطلقاً ،

(١) Disorders of Personality. (٢) حقيقتها .

(٣) راجع :

(A) Diseases of personality, by Ribot, Eng. trans. 1891 .

(B) Alterations of personality, by Binet, Eng. Trans. 1896 .

(٤) الطبيعة .

وأن ميوله متحدة ، في حين أننا نحكم على شخص آخر بأنه رجل لا يمكن التحقق منه ، أو الثقة به ؛ لأنه كثير التغير والانقلاب ، وليس على حال واحدة . ولكن من الكمال تهذيب الميول المختلفة والتوفيق بينها بحكمة حتى تكون شخصية الإنسان كاملة .

انقسام الشخصية^(١)

قد تنقسم الشخصية وتعدد وتسير في أكثر من طريق واحدة ، فيكون للإنسان شخصيتان أو أكثر : شخصية له في عمله ، وأخرى له في منزله مثلاً . وقد تكون الغرائز والميول والرغبات المسيطرة على الإنسان في هاتين الجهتين مختلفاً بعضها عن بعض ، فيختلف سلوكه تبعاً لاختلافها ؛ فبينما تراه في عمله قاسياً فظاً غليظاً جافاً ، إذ تجده في منزله مع زوجه وأبنائه وديماً سهلاً كريماً . والشواهد على ذلك كثيرة . وإن رواية « الدكتور جيكيل والمستر هايد »^(٢) مثل واضح في تعدد الشخصية ، وإن كان ذلك المثل أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة ؛ لأنه بعيد عن الحياة الحقيقية . وإذا قلنا بتعدد الشخصية وانقسامها فكأننا سلمنا بأن هناك شخصين في جسم واحد ؛ وفي

Dissociation of personality. (١)

Dr. Jekyll a Mr. Hyde. (٢)

هذا القولِ نظرٌ . ولكن قد أثبتته الدكتور (مورتون برنس)^(١) كما سيأتى :

وقد تمرضُ الشخصيةُ الإنسانيةُ وتضطربُ تبعاً لاضطرابِ الأعصابِ والعقلِ ، فتختلُّ الذَّاكِرَةُ أو تُفقدُ ، ويضطربُ التفكيرُ ، وتتغيرُ بعضُ مظاهرِ الجسمِ ، وتختلفُ قُوَّةُ الإحساسِ ، كما يختلفُ الميلُ والزَّاجُ ، فيظهرُ المريضُ في حالةٍ غيرِ حالتهِ الطبيعيَّةِ ، ويشعرُ شعوراً مختلفاً ، ويبدى آراءً تخالفُ آراءَهُ وهو في حالتهِ الطبيعيَّةِ الأولى . ويقومُ بأعمالٍ غريبةٍ آليَّةٍ قد تُعدُّ فوقَ الطاقةِ البشريَّةِ العاديَّةِ . ويُسيطرُ عليه في ذلك الوقتِ العقلُ الباطنُ . وقد يفكرُ في أشياء لا وجودَ لها مطلقاً . وقد يتكلَّمُ في أمورٍ بعيدةٍ عن العقلِ والمنطقِ . وقد يمتدُّ أن له جسمين ينامان في سريرين مختلفين ، والواقعُ أنه جسمٌ واحدٌ له شخصيتان أو أكثر .

وفي حالةِ النحولِ واضطرابِ الشخصيةِ ، والنوبةِ العصبيةِ ، قد يشعرُ بعضُ المرضى بأنهم فقدوا أسنانهم ، أو فقدوا معدتهم ، أو أصبحوا بلا أرجل ، وما فقدوا شيئاً من أسنانهم أو معدتهم أو أرجلهم . ويظنُّ آخرون أن أجسامهم زجاجيةٌ أو خشبيةٌ أو مصنوعة من الزُّبدِ .

وقد يشعر المريض بأنه خفيفُ الروح ، ويزعمُ بشخصيته الجديدة أنه (عنترة) في القوة والبطولة ، أو أنه ملكٌ من الملوك ، ويتخذ له تاجاً ، ويأمرُ وينهى ، ويتظاهرُ بمظاهرِ الأبهة والعظمة ، أو أنه إلهٌ خالقٌ لهذا العالم ، منظمٌ لهذا الكون ، أو أنه أعلمُ العلماء ، وشيخُ الفلاسفة ، وكبيرُ المُشرِّعين ، لا آخرَ لعله ، ولا نهايةَ لفضله ، أو أنه (قُورْد) في ثروته ، مصانعه لا تتسعُ لها بقاعُ الأرض ، وشركائه تحتلُّ الجوّ وتملأ البحارُ والأنهار . . . وما إلى ذلك من التخيلات التي لاحدٌ لها ولا ضابط ، مما يتجلبه المجانين في كثيرٍ من الأحيان .

أمثلةٌ لوقسامِ التَّوَهُّمِ :

ولنذكرَ هنا بعضَ الأمثلةِ لانقسامِ الشخصية ، وتماقُبِ شخصيتين ، أو أكثرَ على شخصٍ واحدٍ في حالاتِ الأمراضِ العقليةِ والمصبيةِ الزمنيةِ عندَ الذهول ، حيث يفقدُ المريضُ شعوره ويتشجّع .

(١) امرأةٌ قضتَ شطراً من حياتها في العُمر ، تلك الرذيلة التي يندى لها جبينُ الإنسانية ، ثم ذهبتُ إلى الدير — وقد قُصِيَ على أعصابها — لتقضى الشطرَ الأخيرَ من حياتها في الرهبانية .

ففي أثناءِ التوبةِ المصبيةِ كانت تتماقُبُ عليها حالتان : حالةُ العُمر ، وحالةُ الرهبانية ، فتكلمُ آونةً بلسانِ الماهرِ معتقدةً أنها ماهرٌ ،

في وقت ليست فيه بالماهر . وتكلم حيناً بلسان الراهبة ، ثمثة حياة الراهبة . وفي كلتا الحالتين يتغير صوتها وحديثها وأفكارها ، وتتبدل حالها ، وتغير ملابسها ، وتجدها في حالة غير حالتها الطبيعية وقت اليقظة كأنها امرأة أخرى ، وشخص آخر ، وكأن المتكلمة شخصية أخرى غير الشخصية التي تعرفها من قبل ، شخصية جديدة مختلفة كل الاختلاف ، ولا عهد لك بها .

(٢) ضابط فرنسي أتابته الأمراض المصيبة بعد الحرب العالمية الكبرى ، فترك حياة الجندي ، وانتسب إلى الدير ليحيا حياة الرهبانية ؛ فكان أحياناً في حالة ذهوله يتخيل أنه رجع إلى الجندي ، وأصبح جندياً كما كان ، فيحلق ذقنه ، ويقص شاربه ، ويخلع ملابس الرهبنة ، ويلبس ملابس الجندي ، ويغير عادته ، ويتحدث حديث الضباط ، ويسير سيرهم ، ويظهر بشخصيته الأولى ، حتى يظن من رآه أنه عاد ضابطاً كما كان .

(٣) ولد كان مريضاً بالماخوليا ، لم يجد في طفولته أية عناية ، وحرم كل شيء يدعى تربية أو تعليماً . كان الشارع مأواه ، والطريق ملجأه ، والاستجداء مهنته ، يستجدي حيناً ، ويسرق حين لا يجد من يعطى . أخذ يسرق حتى حكم عليه ، فأخذ إلى إصلاحية الأحداث ،

وهناك تعلم صناعة الخياطة. وفي بعض الأحيان عند ذهوله واضطرابه تمودُ إليه شخصيته الأولى، فينسى حياته الأخيرة، وينسى معها الخياطة، ولا يتذكر شيئاً عنها، ولا يستطيع أن يخطط شيئاً. ويصبح ثانية مثلاً للشريد الطريد، واللص الماهر، والسائل المسكين، فينتقل من الحالة الجديدة : حالة النظام وحسن السلوك إلى حالته الأولى؛ حالة التشرد والسرقة، والبذاءة والامتجداء.

وهناك حالات أخرى وأمثلة كثيرة، يضيق المقام عن ذكرها، فارجع إليها في كتاب (بينيه) السابق الذكر، أو في كتاب (ماكشيش^(١)) إذا أردت.

وتلك الحالات كلها تبين أن الإنسان قد تمتدّد شخصيته بغير ضابط، وبغير نظام مُعين، فتختلف شخصيته، ويختلف سلوكه من حالة إلى أخرى؛ فينما يكون في حالة اليقظة هادئاً ساكناً وديماً إذ يكون في حالة الذهول شكساً غضوباً شريراً.

وبقوة العقل الباطن تحتل الشخصية الثانية أو الشاذة مكان الشخصية الأولى أو الطبيعية بالتدريج. وفي أثناء التوبة قد يتذكر المريض تجاربه السابقة، وما حدث له في الماضي، وتكلم كأنه يتكلم

عن شخص آخر . وبعد اليقظة لا يستطيع أن يذكّر ما قاله أو فعله وهو في حالته الشاذة ، إلا بطريقة الإيماء إذا نُومَ .

وقد تتجسّس الشخصيةُ الثانيةُ على الشخصيةِ الأولى ، فتلاحظها من وراء ستار ، وعلى هذا ينقسم الشخصُ قسمين يميلان في وقت واحد ، ولكن في جهتين مختلفتين .

وبالطريقة الآتية قد ردّ الدكتور (مورتون برنس) على من يشكُّ في وجود شخصيةٍ ثانية ؛ فقد أستطاع أن يميّز فتاةً من أن تنتقل من حالتها الطبيعية إلى الحالة الشاذة ، ثم يعيدها إلى حالتها الأولى بطريقة تشبه طريقة التنويم المغناطيسي ، وأخبرها وهي في أثناء نومها أنها مكلفةٌ أن تحلّ مسائلَ حسابيةٍ مُعينة ، ولم يُرها الأعداد الحقيقية في الجواب . رجعت إلى حالتها الأولى وهي حالة اليقظة ، فأراها إياها مدةً وجيزةً من الزمن . ولما نوّمت مرةً ثانية وسُئلت عن الأجوبة ، أجابت في الحال وقالت : إن الأجوبة كانت حاضرةً لديها ، وكانت تنتظرُ إعلانها بفروغ صبر . وهذا على الأقل مظهرٌ من المظاهر التي تؤيد رأي (الدكتور برنس) ، وهو أنَّ جزأين مختلفين من الشخص كانا يميلان في وقت واحد عمداً . ولكن هل يحدثُ مثلُ ذلك في الحياةِ العادية ؟ نعم يحدثُ للإنسان أمران ؛ أحدهما محزن ، والآخَرُ سارٌّ ، في وقت واحد ؛

فبينما تراه حزينا لفقد عزيز لديه مثلاً ، إذ تراه مسروراً لربحه عشرة آلاف من الدنانير في التجارة في ذلك اليوم .

أسباب انقسام الشخصية

وما يمتري المريض في حالته غير الطبيعية
إن انقسام الشخصية حالة غير طبيعية للإنسان ، تنشأ عن صدمة
وجدانية عيفة ، أو حادثه مُرعبة ، أو مفاجآت كلها أهوال ونكبات ،
فتختل أعصاب الشخص ، ويضطرب عقله ، وتتبدل حالته الطبيعية ،
وتتغير إلى حالة أو حالات أخرى يختلف الشخص في أثنائها في تفكيره
وآرائه وصوته ، وشعوره وميله ، ومزاجه ، وأقواله وأفعاله . والانتقال
من حالة إلى أخرى قد يصحبه نوم عميق أو غيبوبة ؛ بأن يمكث مدة
لا يشعر فيها بشيء . وقد يلاحظ هذا الانتقال قبل حدوثه ، وقد
يظهر التغير بفتة ، كما قد يختفي بفتة في غير الموعد المعروف .

وقد حدث أن رجلاً مسكراً وجد ابنته الصغيرة التي تبلغ من العمر
أربع سنوات نائمة في سريرها ، فألقاها وهو في حالة السكر على الأرض
يُسَنَف ، ففرغت الطفلة أيماً فزع . ومن تلك اللحظة تغيرت شخصيتها ؛
فبعد أن كانت فرحة مَرِحَة مبتسمة ضاحكة ، أصبحت في حالة أخرى ،

تمثلُ الكآبةُ الدائمةُ ، والحزنَ المستمرَ ، وأخذتُ الأمراضُ العصبيةُ
تنتابها حتى قضتُ نَجَبَهَا في العاشرة من عمرها ، ولسانُ حالها يقول :

هَذَا جَنَاهُ أَبِي عَلَيَّ* وَمَا جَنَيْتُ عَلَى أَحَدٍ

وذهبت الفتاةُ ضحيةَ الشكرِ وسوءِ التصرفِ .

والشخصيةُ الثانيةُ قد تَرَبَّتْ الشخصيةُ الأولى عالماً وعملاً ، وقد
لا ترثها مطلقاً ؛ فبترك الفردُ كأنه طفلٌ حديثُ الولادة ، لا يعلمُ عن
الحياة شيئاً ، ولا خبرةً له بشيء ، وعليه أن يتعلمَ كلَّ شيءٍ من جديد ،
وإن كان يُرى كبيراً في جسمه . وقد يكون التغيرُ وقتياً في ساعاتٍ
مُعَيَّنةٍ ، من أيامٍ معينة ، وقد يكون دائماً .

تحليلُ الشخصية

وبالتنويم المغناطيسي ، والتنويم الصناعي أو الطبيُّ بالمخدراتِ
المختلفة^(١) تمكنُ دراسةُ بعضِ الحالاتِ العصبيةِ وتحليلُ الشخصيةِ .
والمَنوَّمُ وإن كان فاقداً لشعوره ، لا يدري ما يدور حوله^(٢) ، يمكنه
أن يُحسَّ تحت تأثيرِ الإيحاء .

ويُعدُّ اضطرابُ الشخصيةِ حالةً من الأحوالِ الشاذَّةِ كحالةِ مَبْشَى

(١) التنويم بالكوروفورم أو الكوكاين أو الأثير .

(٢) إذا كان التخديرُ تاماً وغير موضي .

النائم ، وقيامه بأشياء غريبة تحت تأثير العقل الباطن ثمّذ من المحال وقت اليقظة .

وتختلف الشخصية الثانية عن الأولى كل الاختلاف . وفي حالة التنويم يمكن أن تُذكر الحالات المنسية بسبب المرض واضطراب الشخصية .

وعلى أي حال لا يمكننا أن نتمد من الوجهة العلمية الدقيقة على النتائج التي يمكن الوصول إليها بمنثل هذا التحليل .
وختاماً أسأل الله الهداية والتوفيق .

المراجع العربية

- (١) البيان والتبيين للجاحظ .
- (٢) كتاب الأذكياء لابن الجوزى .
- (٣) نهاية الأرب في فنون الأدب للنويرى ، طبعة دار الكتب سنة ١٩٢٦ .
- (٤) الإحياء للغزالي .
- (٥) الأملى لأبي علي القالى — طبعة بولاق سنة ١٣٢٤ هـ .
- (٦) العمدة لابن رشيقي — طبعة الخانجي سنة ١٩٠٧ .
- (٧) زهر الآداب للحصرى القيروانى — شرح الدكتور زكى مبارك .
- (٨) مقامات بديع الزمان الهمذاني — (طبعة اليسوعيين)
- (٩) مجانى الأدب فى حدائق العرب ، للأب لويس شيخو اليسوعى (طبعة اليسوعيين ١٩١٣)
- (١٠) الأغاني لأبى الفرج الأصبهاني .
- (١١) ثمرات الأوراق للحموى .
- (١٢) الصناعتين لأبى هلال المسكرى .

المراجع الانكليزية

1. Alterations of Personality, by Binet, Eng. trans., 1896.
2. Dictionary of Philosophy and Psychology, Edited by J. M. Baldwin, vol. 11, pp. 284—86.
3. Psychology, by Woodworth. ch. XXI.
4. An Outline of Psychology, by William Mc. Dougall, ch. XVIII.
5. Manual of Psychology, by Stout, Bk. IV, chaps. VII and X.
6. Character and the Conduct of Life, by W. Mc. Dougall, chaps., V and X.
7. Psychology for Teachers, by Lloyed Morgan, ch. X.
8. Psychology of Education, by Welton, ch. XIII.
9. Introduction to Psychology, by Loveday and Green, ch. XVI.
10. The Changing School, by P. B. Ballard, ch. VII.
11. Education : Its Data and First Principles, by Sir Percy Nunn.
12. The philosophy of Sleep, Mac Nish, 1930.
13. Diseases of Personality, by Ribot, Eng. trans. 1891.
14. Life of Gladstone, by John Morley.

فهرس الأعلام

(١)

أحد بن المصم (أمير عباسي) : ٢٤
الأحف بن قيس : ١٠٥، ٦٧، ٦١
١٠٦
الأدرع : ٧١، ٦٩
إديسون : ١٢٩، ١٤ — ١٣٠
أرسطو : ٤٠
إسحق نيوتن : ١٦٤، ١٤ — ١٦٥
الإسكندر الأكبر : ١٦٧، ١٦٥، ٨٤
أشج عبد القيس : ٦٢
أف بري (لورد) : ١٤٦
الأنبي الجرمي : ١٩ — ٢٠
أفلاطون : ٩٨، ٤٠
إمرسون : ١٧٦، ١٦٩، ١٣٣
آغار : ١٨ — ٢٠
أوليغر جولدميث : ٥١ — ٥٢
إياد : ١٨ — ٢٠
إيلس القاضى : ٢٠ — ٢٤، ٢١

(ب)

باستور (لويس) : ٩٣
بادروسكي : ١٣٣
بديع الزمان الهناني : ١٤٤
برسي ن « السير » : ١١
بروتيج (روبرت) : ١٤٠
بليروت : ١١٩
بليا : ١٤٠
يكون (فرنسيس) : ١٤٧
بينيه : ١٨٧

إبراهيم بن الحسن بن سهل : ٤٤
أبراهام لنكولن : ٤٨، ٣٢، ١٤ — ٤٥١
١٢٨
إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك : ٦٤ — ٦٦
الأبرش السكبي : ٤٥
ابن التوام : ١٠٤
ابن الجوزى : ٦٩، ٢٦
ابن الرومي : ٨٩
ابن زياد : ٢٩
ابن عبد السلام الهاشمي : ٧٦
ابن مسكويه : ٨٠
ابن المتمر : ٦٢
أبو إسحق محمد المصم : ١٦٠، ١٥٨
أبو أمامة : ٩١
أبو بكر (رضي الله عنه) : ٦٨
أبو تمام (الطائي) : ٢٤ — ٢٣، ٢٥
أبو جعفر المنصور : ١٦٧، ٢١
أبو حامد الخراساني : ٢٦
أبو حنيفة : ٢٨ — ٢٩
أبو سفيان : ٤٧
أبو الشيس : ٨٨
أبو الباس السفاح : ٦٤
أبو عبد الله بن جعفر : ٦٠
أبو العلاء المعري : ٢٩
أبو السبيل : ٢٥
أبو هلال السكري : ٦٣
أبو يوسف يعقوب الكندي : ٢٥
أحمد بن طولون : ٣٢

(ت)

تيم بن جيل : ١٠٨، ١٦٠
تنسون : ١٣٣

(ث)

ثمانية بن الأخرس : ٢٥

(ج)

الجاحظ : ٩٨، ١٠٢، ١٠٤

جرير : ٦٨

جعفر الصادق : ٦٣، ٥٥

جعفر بن يحيى البرمكي : ١٥٣—١٠٤

جلادستون (الستر) : ١٧٧

جن جاك روسو : ١٥٢

جورج واشنطن : ١٤، ١٦٥

جوستاف لويون : ١١٣

جون بنيان : ١٧٢

جيتيه (الفيلسوف الألماني) : ١٤٥

(ح)

حاتم الطائي : ١٤

الحجاج : ٢٧—٢٨، ٧٨، ١٠٧

الحسن (رضي الله عنه) : ١٠٥

حمزة بن رافع الدوسي : ٩٥

(خ)

خالد بن عبد الله : ٤٨

خالد بن الوليد : ١٤، ٦٨، ١٦٢، ١٦٥

(د)

درواس بن حبيب : ١٠٨—١٠٩

دزرائيلي : ١٧٩

ديكنز (تشارلز) : ١٤

(ر)

ريسة : ١٨—٢٠

رسكن : ١٣٧

الركاض (صبي) : ٣٣

روبلين كروزو : ١١٢—١١٣

(ز)

الزرقاء بنت عدى : ٧٤—٧٥، ٧٧

(س)

سالم (غلام رجل من الأنصار) : ٨٥

ستيفنسون (روبرت لويس) : ١٧٨

سرى السقطي : ٦٣

سمعد زغلول : ١٤، ١٣٥، ١٥٦، ١٦٥، ١٧٢

١٧٢

سقراط : ٦٢، ٩٨

سليمان بن عبد الملك : ٤٨

سنكا : ٤٩

سهل بن هرمون : ١٠٣—١٠٤

(ش)

شارلي شابلي : ١٤

شريح القاضي : ٢٧

شعبي (برسي ييش) : ١٨٠

الشياني : ٨٨

(ص)

صامويل جونسون : ٥١

صلاح الدين الأيوبي : ١٤

(ض)

ضرار الصديقي : ٧٣

كرزلى : ١٣٣

كسرى (أحد ملوك فارس) : ٩٦

(ل)

لقمان الحكيم : ٦١

لويد جورج (الستر) : ٧٢، ٣٥

(م)

مارتن لوثر : ١٣٦

مارك توين : ١٤٧

مارك رذرفورد : ١٧٠

ماكيتش : ١٨٧

ماكولى الأسكتلندى (لورد) : ٣٥—٣٤

للأمون : ٧٣، ٧٥، ٤٤، ٤٦، ٤٦، ٩٤

للتوكل (الخليفة الباسى) : ٩٨

محمد بن حميد الطوسى : ٤٧—٤٨

محمد بن عبد الله (رسول الله صلى الله

عليه وسلم) : ١٨، ٨٥، ٨٧، ٩١

١٠٢، ١٦٤

محمد عبده (الإمام) : ١٣٦، ١٦٤

محمد فريد : ١٤

المختار : ١٠١

للدائى : ٢٩

المسيح = عيسى بن مريم عليه السلام

٩٢، ٩٣، ١٦٤، ١٧٤

مسيلة الكذاب : ١٤

مصطفى كامل : ١٤

مصعب بن الزبير : ١٠١—١٠٢

مضر : ١٨

معاوية : ١٤، ٦٤، ٧٣—٧٧

مكدوجل (وليام) : ١١٧

المهدى : ٤٤—٤٥

مورتون برنس (دكتور) : ١٨٤، ١٨٨

مورق السبلى : ٦٢

موسى (عليه السلام) : ١٠٠

موسى الهادى : ٣٠

(ع)

عاصم بن الطرب المدونى : ٩٥

عاصم بن عبد القديس : ١٠٥

العباس بن عبد المطلب : ١٨

عبد الله بن أبي بكر : ٤٥

عبد الله بن الزبير : ٥٦

عبد الله بن طاهر : ٢٥

عبد الله بن قيس الرقيات : ١٠٢

عبد الملك بن مروان : ٤٦

عقبة (الريانى الإسرائيلى) : ١٣٦

علي بن أبي طالب : ٧٣، ٧٧، ١٦٣—١٦٤

عمر بن الخطاب : ١٤، ٤٢، ٤٤، ٥٦، ٦٨

٩٦، ٩٦، ١٠٥، ١٦٢

عمر بن عبد العزيز : ٢٢، ١٢٧

عمرو بن مسعدة : ٤٤—٤٥

عترة الببسى : ٨٢

عيسى بن مريم (عليه السلام) : ٩٢، ٥٩

١٦٤، ١٧٤

عيفة بن حصن : ٩٦

(غ)

غافى الزعيم الهندى (مهاٲا) : ٩٤

(ف)

فرعون : ١٠٠

فولوكستون : ١٦٦

(ق)

قبيبة بن مسلم : ٨٨

قيس بن ماسم القرى : ٦١

(ك)

كارليل : ١٣٧

كثير غزاة : ٩٤—٩٥

(ن)

الناشطة الدينامي : ٤٥

تايلين بوتابرت (امبراطور فرنسا) : ١٤

٢٦٧٠١٦٥٠٧٢ — ٧١٠٣٨

التجافي : ٩٢

نزار : ٢٨

نصر الحادم : ٤٤

(هـ)

هارون الرشيد : ٩٣٠٤٨٠٧٢

هارون بن عمران : ١٠٠

هربرت سبنسر : ٦٧

هشام بن عبد الملك : ١٠٨٠٤٥ — ١٠٩

هليل : ١٣٦

هيودوس : ٦٤

(و)

وردسورث : ١٣٣٠١٧٦

ولبرفوس : ١٦٦

وليام پت : ١٦٢

وليام هازلت : ١٤٤

وولتر سكوت (السير) : ١٤٨٠٤٠٠٣٤

(ي)

يحيى بن أكثم : ٦٠

يحيى بن جيان : ٩٦

يزيد بن معاوية : ٦٤

يسار (غلام رجل من الأنصار) : ٨٥

يوسف بن يعقوب بن إبراهيم : ٩٦

يونس بن حبيب : ١٠٤

الفهرس التفصلى

الموضوع	ص	الموضوع	ص
أبو تمام وعبد الله بن طاهر	٢٥	مقدمة الطبعة الثانية	٣
عمامة بن أمرس والسي	٢٥	الأولى	٥
أبو حنبل الحراسانى القاضى والسجور	٢٦	الفصل الأول	
الحليج وامرأة من الخوارج	٢٧	مقدمة	٧
صريح القاضى	٢٧	شريف الشخصية	٩
الحليج والأعربان	٢٧	الشخصية هبة فطرية أم سفة مكتسبة؟	١٠
حيلة الإمام أبى حنيفة فى القبض على	٢٨	الاختلاف فى الشخصية	١٢
القصوس		الفصل الثانى	
الإمام أبو حنيفة والأعربان	٢٩	الناسر الرئيسة التى تتكون منها	١٥
ذكاء جارية	٢٩	الشخصية القوة	
موسى المعادى والتخلص من الخارجى	٣٠	الجابذية وتمريضها	١٥
الأعربان والأمير	٣١	بماذا يجذب الإنسان غيره من الناس؟	١٥
أحمد بن طولون والباسوس	٣٢	الفصل الثالث	
أثر ذكاء «أبراهام لتكولن»	٣٣	النشاط العقلى أو الذكاء	١٧
حضور بديهة «الورد ماكولى»	٣٤	أثر الذكاء فى شخصية الإنسان	١٨
سرعة الخاطر لدى «المسترويل سيجورج»	٣٥	ذكاء أولاد تزار	١٨
الفصل الرابع		ذكاء لياس القاضى	٢٠
المشاركة الوجدانية وأثرها فى الشخصية	٣٧	ذكاء من بن زائمة	٢١
قسوة «نابليون»	٣٨	غلام ذكى وعمر بن عبد العزيز	٢٢
الرؤساء والمشاركة الوجدانية	٣٨	الركاض والرشيد	٢٢
(السير وولتر سكوت) والمشاركة	٤٠	الولد النجيب والخليفة	٢٣
الوجدانية		المأمون والحسن بن رجا	٢٣
تمثل المشاركة الوجدانية فى سيدنا	٤٢	الأسمى والتلام العربى	٢٤
عمر بن الخطاب		ذكاء لياس بن مساوية	٢٤
عطف المهدي على أعرابية	٤٤	رأى الفيلسوف يقرب الكندى فى	٢٥
عطف المأمون على عمرو بن مسعدة	٤٤	أبى تمام	
رأفة عبد الله بن أبى بكر بأعرابية	٤٥		
عفو المأمون عن رجل أذنب	٤٦		

الموضوع	ص	الموضوع	ص
شجاعة عمر بن الخطاب وعلاء بن الوليد	٦٨	عفو عبد الملك بن مروان عن رجل يبد الأعرى بقتله	٤٦
جراحة الأندلس	٦٩	إحسان محمد بن حيد الطوبى إلى من أساء إليه	٤٧
إقدام (نابليون بونابرت)	٧١	عفو سليمان بن عبد الملك	٤٨
الشجاعة في إيماء الرأي	٧٢	تحكيمات عن (أبراهيم لنكولن)	٤٩
شجاعة غرار الصبائي في وصفه	٧٣	تتمثل فيها المشاركةوجدانية	
ليدنا على		(صامويل جونسون) وعظفه على	٥١
معاوية والزرقاء	٧٤	البائسين	
الحجاج والاعتراض عليه في إمالة الخطبة	٧٨	الطيب أوليفر جولد سمث	٥١

الفصل السادس

الحكمة وسداد الرأي	٧٩
رأى ابن مسكويه في الحكمة	٨٠
حزم عشرة العيسى	٨٢
أحزم الناس وآخرهم	٨٢
ما تتطلبه الحكمة قبل العروج في الفصل	٨٣
ما يجوز دون الحكمة	٨٣
حزم معاوية بن أبي سفيان وحظه	٨٤
الإسكندر الأكبر	٨٤

الفصل السابع

التفاؤل . وعمله لدى الرسول الكليل	٨٥
ينشأ التفاؤل من ضعف النشاط	٨٦
ووهن الرقابة العقلية	
تفاؤل تقيية بن مسلم	٨٨
ما قيل في التفاؤل والتفاؤل	٨٨
ابن الرومي كان كثير التطير	٨٩
لا تزال روح التفاؤل سائلة قد الحرافات	٨٩

الفصل الخامس

الشجاعة فضيلة	٥٣
مظاهر الشجاعة	٥٥
الشجاعة في ضبط النفس	٥٥
جفر الصادق وضبط النفس	٥٥
الخفاوق الوهمية تكثر عند ضعف الشخصية	٥٦
الشجاعة في مقاومة مصاعب الحياة	٥٨
« السبح عليه السلام » وضبط النفس	٥٩
عفو المأمون	٦٠
الجارية وأبو عبد الله بن جفر	٦٠
حلم الأخنف بن قيس	٦١
ما قاله لعمان وقيس بن عامر وقيس الفلاسفة في الحلم	٦٢
أوجه الحلم	٦٣
إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك	٦٤
رأى (هربرت سبنسر) في ضبط النفس	٦٧
(جورج واشنطن) وكتيان الثمور	٦٧
الشجاعة في التغلب على المصاعب	٦٧

الموضوع	ص
ما قاله طاهر بن عبد القيس في قوة البيان	١٠٥
تأثير عمر بن الخطاب بحسن بيان الأخف بن قيس	١٠٥
الحجاج وقصاحة الفتان الثلاثة	١٠٧
درواس وهشام بن عبد الملك	١٠٨

الفصل الحادى عشر

الثقة بالنفس والاعتقاد عليها	١١٠
ينبغى أن تعود الأطفال الاستقلال الشخصى	١١١
ما يطلبه الاعتدال على النفس من الأمور	١١١
الرجل الراضى بنفسه وقوله وفعله يستطيع أن يخف وحده متادياً برأيه	١١١
روبنسن كروزو والاعتدال على النفس	١١٢
المصلحون يسلمون في آرائهم المجتمع الذى يعيشون فيه بصفات الستين	١١٢
رأى (جوستاف لوبون) في الثقة بالنفس	١١٣

الفصل الثانى عشر

اعتدال المزاج وأثره في الشخصية	١١٤
اختلاف الناس في الأزوجة	١١٤
أقسام الأزوجة	١١٤
آراء العلماء قديماً وحديثاً في الأزوجة	١١٥
تأثير المزاج بالمواد الكيمائية وفرازات الغدد	١١٦
العناصر التى يجب أن تتحقق في الشخصية القوية	١١٧

الفصل الثالث عشر

أنواع الشخصية	١١٨
الشخصية الصلبة	١١٨

الموضوع	ص
التواضع أساس للشخصية المحبوبة	٩٠
التواضع في غير ذلك سبيل النجاح	٩١
تواضع الرسول صلى الله عليه وسلم	٩١
تواضع سيدنا عمر والتباضى	٩٢
تواضع (لويس باستور) العالم الفرنسى	٩٣
تواضع (الهاتما غامدى)	٩٤

التصنع والتظاهر والجسبة من علامات الضعف	٩٤
ليس من الحكمة أن يفتر الإنسان بالمظاهر	٩٥
ما قاله حمزة بن رافع الدوسى عند ملك من ملوك حمير	٩٥
ابن الأخيار وابن الأحرار	٩٦

الفصل التاسع

حسن مظهر الإنسان وقوامه وأثره في الشخصية	٩٧
إن من يشمر بنفسه جسمى يتجمل ليكمل ذلك النفس	٩٧
شخصية سقراط	٩٨
شخصية الملاحظ	٩٨

الفصل العاشر

قوة البيان تكسب الإنسان شخصية قوية	١٠٠
موسى وفرعون وهرون	١٠٠
تأثير مصعب بن الزبير بطلاوة البارة	١٠١
آراء الملاحظ في البيان والتبيين	١٠٢
جفر بن يحيى البرمكى وقوة البيان	١٠٣
ما قاله سهل بن هرون ، وونس بن حبيب ، وابن التوام في البيان	١٠٤

الموضوع	ص
الفرق بين الشخصية والثانية	١٥٥
العوامل التي تمتاز بها الثانية	١٥٦
الصراحة وعدم الالتواء في الفكر والقول والعمل	١٥٦
صراحة المرحوم سمد زغلول باشا	١٥٦
صكثرة التردد في الرأي والقول	١٥٧
والفصل ثقل من منزلة الإنسان	
تيم بن جيل والمستمع	١٥٨
حب المشيئة وعدم التواضع منها	١٦٠
الصبر ورأى (وليام بيت) فيه	١٦٢
آراء في الصبر	١٦٣
الجزع يؤدي إلى الفشل	١٦٣
(لاسق نيوتن) وهبة الصبر	١٦٤
المتابعة من أم صفات الشخصية الطيبة	١٦٥
(فولر بكتون) لم يعرف الرجوع إلى الوراء	١٦٦
إذا وجدت الإرادة الحديدية وجدت قوة الشخصية	١٦٦
الإسكندر المقدوني ونايليون وقوة الإرادة	١٦٧
نايليون	١٦٧
الفصل الثامن عشر	
الإخلاص روح الشخصية	١٦٨
الأمانة روح الإخلاص	١٦٩
النزعة على العمل نتيجة الإخلاص	١٦٩
تظاهر الإنسان بغير الحقيقة يتناقض مع الإخلاص	١٧٠
رأى (مارك دزفورد) في الإخلاص	١٧٠
(نجاح الحاج) لجون بنيان	١٧٢
ما يساعد على الإخلاص الحق في القول والتفكير	١٧٣

الموضوع	ص
الهدوء العقلي	١٤٣
عن أي شيء ينشأ الاضطراب العقلي؟	١٤٤
(وليام هازلت) ويجزء عن ضبط نفسه	١٤٤
الرضا بالحياة مع العمل	١٤٥
(جيتة الألماني) وميله للمعارضة	١٤٥
(الورد أف بيري) ورأيه في السعي لنجاح في الحياة	١٤٦
(مارك توين) والمحافظة على الآمال	١٤٧
(يكون) ووجوب السعي	١٤٧
البهاشة ورحب الصدر	١٤٧
شخصية (الير وولتر سكوت) تمثل في مناعة أخلاقه	١٤٨
من مظاهر قوة الشخصية الفكرية التغلب على الساطفة	١٤٨

الفصل السادس عشر

مضغفات الشخصية	١٤٩
اتكالم الشخص على غيره	١٤٩
التأثر بالمادات والتقاليد	١٤٩
الشخصية لا يمكن أن تنمو في قفص من حديد	١٥٠
في التمسك بالأفكار التي نقرأ تحم في الشخصية	١٥١
(جن جاك روسو) وترية الشخصية	١٥٢
من مضغفات الشخصية تحم ميول الشخص فيه	١٥٣

الفصل السابع عشر

الصفات السكالية لشخصية	١٥٤
الثانية أو الاستقلال الثاني	١٥٤

الموضوع	ص	للموضوع	ص
مرض المنصبة الإنسانية واضطرابها	١٨٤	الفصل التاسع عشر	
أمثلة لأقسام الشخصية	١٨٥	الحاسة وأثرها في الشخصية	١٧٥
المرأة الماهر	١٨٥	انصراف الشبان إلى الملاهي	١٧٧
الضابط الفرنسي	١٨٦	قوة الهجوم	١٧٨
الولد المريض بالمأخوليا	١٨٦	حسن التمييز عن الشرور	١٧٩
اختلاف الشخصية والسلوك	١٨٧	قوة الإحساس	١٧٩
دكتور (مورتون برس) على	١٨٨	وصف الشاعر الإنكليزي (شيلي)	١٨٠
من يشك في تعدد الشخصية		فنيات الحساس	
أسباب اهتمام الشخصية وما يعتري	١٨٩	الفصل العشرون	
المريض في حالته غير الطبيعية		اضطراب الشخصية	١٨٢
الرجل الكبير وابنته الصغيرة	١٨٩	اهتمام الشخصية	١٨٣
تحليل الشخصية	١٩٠	رواية (الدكتور جيكل والمستر هايد)	١٨٣
المراجع العربية	١٩٢		
المراجع الإنكليزية	١٩٢		

بيان الخطأ والصواب

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
أنت	أأنت	١٨	١١
السويق	السويق	٢٩	٦
قلا	قلا	٣١	٧
كتابه	كتابه	٣٤	١٢
لخزبه	لخزبه	٣٥	٤
غشهم	غشهم	٣٨	المهامش
العاديّن	العاديّن	٥٣	٩
جاء	رجاء	٦٣	١٢
استنبأناه	استنبأناه	٧٣	١١
فأحسنوا	فأحسنوا	٨٢	٨
تبر	تبر	٨٨	١
عبد الملك	عبد الملك جلوساته	٩٥	٩
٩٣٧	٣٩٧	٩٨	المهامش
الإفهام	الإفهام	١٠٣	٥
قال	قال	١٠٤	٨
صنّع في القّب	صنّع في القلب	١٠٤	١٣
من	الذي	١٠٧	١٥
فسيه	بنفسه	١١١	١٤
سواء أ	—	١٢٣	١٣
التسج	التسج	١٢٨	٦
واختباري	واختباري	١٣٥	٧
أصاب	أأصاب	١٥٦	المهامش
اليو	اليوم	١٥٩	٦
إليهم	إليهمو	١٥٩	١٤
الأمر يكي	الأمر يكي	١٧٦	٨



Bibliotheca Alexandrina

0380692